التَّكْيَة

رواية

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

الخليوي، عبد الجبار
التكية : رواية / عبد الجبار الخليوي
ط2- القاهرة: دار النشر للجامعات، 2018.
240 ص؛ 20 سم.
تدمك: 8 489 316 977 978
1- القصص العربية
أ- العنوان 813

تـــاريخ الإصـــدار: 1439هـ - 2018م

حقـــوق الطبـــع: محفوظة

الطبعـــــــة: الثالثة 2017م

رقـــم الإيـــداع: 7364/ 2014م

الترقـــيم الـــدولي: ISBN: 978 – 977 – 316 – 489 – 8

الكـــــــود: 469/ 3

تحـــــــذير: لا يجوز نسخ أو استعمال أى جزء من هـذا الكتـاب بـأي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسـائل (المعروفـة منها حتى الآن أو ما يستجد مستقبلا) سواء بالتـصوير أو بالتسجيل علـى أشـرطة أو أقـراص أو حفـظ المعلومـات واسترجاعها دون إذن كتابى من الناشر أو المؤلف.

دار النشر للجامعات
ص.ب (130 محمد فريد) القاهرة 11518
ت: 23929878 – ف: 23929878
E-mail: darannshr@hotmail.com

التَّكْيَة

رواية

عبد الجبار الخليوي

إهداء

إلى كل من يعشق هذه المدينة الرابضة فوق أرض الذاكرة ..

إلى كل محب للكلمة الوفية الصادقة

أقول:

هذه الرواية ..

ليست تأصيلا تأريخيًّا ..

ليست سيرة ذاتية ..

ليست حكاية اجتماعية ..

ليست حقيقة متكاملة النمو ..

إنما هي:

رواية خاصة بعينٍ مبصرةٍ.

فأرجو من القارئ والقارئة قبولها بعين الرضا وبرحابة صدر ..

لم أقصد في سطورها المساس بأيٍ كائنٍ كان.

تحياتي ..

عبد الجبار الخليوي

E-mail: turathi@hotmail.com

غرفة رقم 3 في التَّكْيَة

يـأتي شـتاءٌ جديـدٌ فيـصاحبه بـردٌ قـارسٌ، لا يعـرف في سـجلاته الرحمـة والشفقة، ولا يُميّز بين صغير ولا كبير، ولا غني ولا فقير، يلتهم في طريقه كالـشبح كـل الأحيـاء مـن إنسان وحيـوان ونبـات، تتصاعد سُـحب دُخـان أخشاب الصناديق المهملة من فوهة صفيحة التمر الفارغة بكثافةٍ؛ لتدفئة الغرفـة، مـسببة نوبـات مـن الـسعال الحـاد في أجـواء المنطقـة المحيطـة بهـا، فتختلط هذه السُحب مع حلقات دخان أعقاب السجائر المحشورة في سماء الغرفة، فَتُكون منطقة ضبابية، تتراقص فيها رؤية الأشياء في الليل، سربٌ سريعٌ من قطرات المطر الهاربة من مياه سطح التكية، تتسرب بحرية لمعدة الغرفة، دون رادعٍ، عبر الشقوق المنتشرة في سقف الغرفة، المكتظة بلحم أجساد البشر، المتعفن برائحة التعب والشقاء، وبرائحة فم الفقر وجوف الـضياع، سُكانها يعيشون بـين سـعال يلـبح، وعويـل يـئن ألـمًا، وذكريـات متسخة بوحل الحضارة، تصرخ وتبكي وتستجدي العطف والحنان من خـلال النظـرات، ومـستقبل خـاوٍ يـسكنُ في عـشه عـصافيرٌ ملونـةٌ تُزقـزقُ بآهاتِ الـضياع والـشتات القسري، وخيبـة فقدان الأمـل .. كلُ البشرِ فيها يجمعهم قاسمٌ مشتركٌ واحد؛ ضياع الأمل بمستقبل مشرق، كلهم يسكنون خلف جدار تليف العواطف الإنسانية ..

قلةٌ من البشر يستشعر مآسي وهموم هذه الحشود البشرية القابعة بهدوءٍ وسكينة خلف بوابة هذه التكية المجاورة لجامع الزبير بن العوام، هذه التكية التي بناها السيد أحمد النقيب؛ لتكون مقرًّا لطلاب العلم بدايةً، ثم أصبحت فيما بعد مأوىً للفقراء والمساكين وعابري السبيل، مبنى مكون من عدة غُرف متجاورة، لا تقل عن الخمس، تتوسط هذه الغُرف باحة كبيرة؛ لاستيعاب أكبر كمية من الهواء النقي .. شقت قلبها سدرة ضخمة، غدت محطة آمنة للطيور الدارجة والفاخات الهاربة، ومرتعًا للديدان الزاحفة، صُفت هذه الغُرف على شكل طابور مدرسة صباحي بصورة بدائية كفصول مدرسة تقليدية، خُصصت بعض هذه الغُرف لبعض النساء المشردات الضائعات الوافدات من خارج مدينة الزبير، بوابتها الوحيدة والمكونة من (درفتين) تفتح نحو جهة الجنوب الشرقي منها، مقابل الركن الشمالي لقاعدة منارة جامع الزبير بن العوام، الذي يُعتبر أول جامع تأسس في الزبير، رغم أن كثيرًا من أهالي الزبير ينكرون الصلاة فيه؛ بسبب وجود قبر في أحد غرفه المعزولة عن روضة الجامع، يتوسط مدخل هذه التكية جلسة صغيرة (دكة) على يمينه ويساره، بُنيت من الطابوق، ومسحت بمادة الجص الأبيض، تستوعب لجلوس ستة أو ثمانية أشخاص فوقها، مفتوح بابها في الليل والنهار؛ فلذا أصبحت مأوًى للكلاب المشردة والقطط الطريدة في كثيرٍ من الأحيان، ناهيك عن الفئران التي تنعم بحرية العيش

فيها .. قلةٌ من الناس من يستشعر وحشة جفاف واحة الأمل في عيون قاطنيها، قلة هم من يستشعر مقتل الطموح في قلوبهم عندما كان جنينًا في رحمه، أو برعمًا طريًّا يافعًا في غصن شجرة يومه ..

في الزاوية الشمالية الشرقية من الغرفة رقم 3، شيخٌ كبير رَكنَ عصاهُ بجواره، تقرفص بهيكله العظمي المتداعي في مقر حدود سكنه، الذي لا يتجاوز المترين طولًا في المتر الواحد عرضًا، حصل عليه حسب نظام توارث الأقدمية، ضيّع شطرًا من عمره في مساحة هذه الثكنة، يسعلُ مرتجفًا، جوعًا، ألمًا، مرضًا، ضياعًا، يضع بجانبه مغرافًا للماء (دولكة) تلاعب سقوطه المتكرر على الأرض بملامح وجهه، وبجانبه الآخر غضارة (إناء للمرق)، لونها أحمر، ودكني (للرز)، انقشعت أجزاء من وردته، مُدثرُ عظامه الهشة ببطانية بالية وممزقة، عفرّها الغبار بلونه الأصفر المسود، بعض أطرافها فقد عصب الحياة من كثرة تعاقب استعمالها، فتناثرت خيوطها الملونة، لم ينج جسدها المترهل بشدة من أثر سقوط جمر السجائر المتطاير شرره فوق مساحتها ..

في الزاوية الشمالية الجنوبية منها، رجلٌ أطلق للحيته العنان بلونها الفضي كي تعبث في مشاريع تضاريس مناخها كيفما تشاء، دون تدخلٍ منه لتهذيبها أو ترتيبها أو تلوينها بالأصباغ المتاحة لدى العطارين، يذكر الله قيامًا وقعودًا وكأنه في هلوساتِ خلوة المتصوفين المبالغين في عباداتهم، يُسبح الواحد الأحد، وكأنه في محراب صلاة دائمة، وفي حضرة عبادة متواصلة لا

تنقطع، لا تعرف بدايتها فتسمع منه الفاتحة، ولا ترى لها أثرًا لنهاية لتسمع تشهده وسلامه، ولا ترى حركة نقر سبابته في أثناء تشهده، إنه يعيش مآسي إفرازات قيء مجتمعه، الذي فضل أن يبتعد عنه ويهجره، ويتقوقع مع زمرة الفقراء والمساكين والضائعين والمشردين، مُتأسيًا بقولٍ لم يفهم منطق تفسير حقيقته: (اللّٰهم احشرني مع الفقراء والمساكين)، يمشي في الأسواق سادرًا يردد بصوتٍ مسموعٍ:

"اذكروا الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد"، فيتبعه الأطفال من بنين وبنات من كل مكان، ويرددون خلفه بعض الأهازيج التي تزعجه في بعض الأحيان، مثل "هذا عليوي المينون"، فيتبعهم ركضًا بعد فرارهم خوفًا منه، لكنه هيهات أن يمسك أحدًا منهم، وربما يتعمد عدم الإمساك بأحدهم؛ لأنه يتسلى في اللعب معهم ..

زهد في حياة الدنيا التي استوع بت كل الناس، حتى بلغ زحف زهده ملابسه الخاصة، فرفض لبس قماش الثياب العادية، وظنها ترفًا ينبغي عليه اجتناب لبسها؛ لأنها لا تتناسب مع وقارة الزاهدين في هذه الدنيا، فقام بتفصيل ثوبه الخاص بيده من قطع بالات الرز (خياش، جمع خيشة)، بمخيط استعاره من محلات بيع الخضرة وخيط صُوتلي (يشبه خيوط الخيشة)، جمعه من أطراف الخيشة (كيس الرز) .. إنه لا يملك النقود ولا يعرف قيمتها الشرائية، لقد جرد نفسه من الملكية الشخصية، ومن حياة

المـاديات، فكل ما يحتاجه من شربٍ ومأكلٍ يحصل عليه بمساعدةٍ من أهل الخير، الـذين يتسابقون على الوصـل ببره ورحمته والـشفقة عليـه مـن هـذا المرض العُضال، ويسألون الله له الرحمة والمغفرة والشفاء العاجل ..

قـال أهـل الأسـواق في دقـائق تفاصـيل سـيرته الذاتيـة، روايـات كثـيرة، رددتها الألسن والأفواه، دون تحقيق في صحة نسبها وثبوت مرجعيتها ..

أشهر هذه الأقاويل:

كان في مقتبل عمره طالب علم ودين، ومن أهل التقوى والورع، كان يحب فعل الخير ويبحث عنه، حج مرتين في حياته، واعتمر عشر مرات، وزين بهاتين الحجتين صدر جدار مجلسه، فوضعهما في إطارين من زجاج، قبل أن ينتابه المرض، لكن في عقده الخامس حط ناموس الخرف المبكر رحاله في أرض عقله، فأصبح كالبهيمة الضائعة، لا تعلم أين بيتها، فنسي أهله ومنزله وعالمه الخاص ..

قالوا عنه أيضًا:

مجتمعه له دور في تركيبة شذوذ عقله وانحراف بوصلة خريطته، هـم كـانوا سـببًا في رواسـب تخلـف تفكـيره، وهكـذا هـي بعـض الـشعوب والمجتمعات تترك عينات بارزة على سوء خلقها وسوء انحطاطها، فتترك عينات تطفح على جلد المجتمع، كبثور سوداء بحاجة لعمليات إزالة ..

كثيرٌ مـن القـصص والروايـات حيكـت بخـصوص سـيرته الشخـصية، ولكـن لم ترتـقِ أي منهـا لمستوى درجة الـصحة واليقين، وبقيت مثل هـذه

السيرة تتداول كما تُريدها أحاديث المجالس والأسواق والناس، لا كما يُريدها الصحيح منها والثابت ..

صيفٌ شديد الحرارة بقيظه الملتهب، يُعلن عن قدوم نشاطه، ولا أثر لأجهزة التبريد، ولا يمكن سماع هدير صوت مكائن أجهزة التكييف، ولا أمل في وجود مراوح سقفية تُحرك أمواج رياح الهواء في داخل الغرفة المخنوقة بالأنفاس الساخنة ..

مصدر تهويتهم الرئيسية تستحوذ عليها المراوح اليدوية (المهفة)، مصنوعة من سعف النخيل، المصبوغ بألوان زاهية، والمُستوردة من منطقة الجنوبات في البصرة، التي تُوجد فيها بساتين النخيل، وبعضٌ منها صُنعت من قطعة ورق كرتون مهمل.

يأتي القيظ مكشرًا عن أنيابه، يعضُ هذه الأجساد الخاوية، يمتصُ بقايا قطرات مائها المخزون، هذه الأجساد التي أهملها التاريخ بقساوته، وأهملها الناس بكل جرأة وعدم مبالاة!!

في الركن الجنوبي الشرقي من هذه الغرفة نتعرف على من باع حياءه ودينه وعقله بقارورة خمرٍ متعفن، أكلت هذه الخمرة عقله، وجعلته في خبر كان، جعلته في غيبوبةٍ عن الزمان والمكان، لوحة من لوحات الهذيان المستمر غير المنقطع، كل ما يجمعه في الصباح الباكر بكل ألوان الذل وبشتى وجوه التسوّل، يطيح به ليلًا بأقصر الطرق، تحت نغمات سكراته، لا يشعر بحر الجو في القيظ، ولا يستشعر شدة البرد في الشتاء، يعيش في عالم

الفوقية الخرساء، يستوطن في مدينة أخرى أكثر أحلامًا وخيالًا ونرجسية، يرقد في عالمٍ غير عالم سكان غرفته، التي ينتشي صحبتها معهم، يزبدُ فمه برغوةٍ صابونية بيضاء، ويهيج لسانه في شطحاتٍ من الكلمات التي لا تنتهي أبدًا، إلا بضرباتٍ موجعة من متبرعٍ في كل ليلةٍ ..

وفي الركن الجنوبي الغربي من هذه الغرفة يقبعُ شابٌ مُلثم الوجه بغترته البيضاء، لا ترى من وجهه غير عينيه المفتوحتين بشراهة، يُحدقُ بتركيز في كل شيء، ابتداء بالموجودين، بنظرة واحدة يشعرُ بوجود وجه الغريب من بينهم، يستشعر الخطر الداهم نحوه قبل لحظة وقوعه، تشعر بالخوف من شدة نظراته إليك، إنه لا يحبُ الغرباء، رغم أنه يعيش في داخل ثكنة الغربة، وفي مجتمع الغرباء، ربما في داخل سور حياته أسرار ..

أخذ مكانه في موقعه الخاص به، قرب النافذة المطلة على باحة (التكية)، التي يكاد أن يبتلعها الظلام الحالك ليلًا إلا من مصباحٍ كهربائي، يدفع بأشعة نوره على حياءٍ ليُضيء جزءًا بسيطًا من مدخل التكية..

عرفوه ملثم الوجه منذ انضمامه إليهم ومشاركتهم الحياة في التكية، لم يكشف ملامحه لأحدٍ منهم، ليلًا ولا نهارًا، لا في صحوته ولا في منامه، بل بلغ به الأمر عند دخوله لدورة المياه أن يُدشن نفسه فيها ملثم الوجه، لم يتمكن أحدٌ في البداية من معرفة تفاصيل خارطة وجهه، وبقيت هذه المراسم سرًّا من أسرار التكية في غرفة رقم (3) ..

يأتيهم مع اندلاق عتمة الليل لمشاركتهم مآسي ساعات النوم والراحة، جعل من التكية سريرًا يرقد فيه، في كل لياليه ينامُ مستلقيًا على ظهره، نسيَ نومته المفضلة، والتي كانت على وجهه، منذ أن ترك سريره في غرفته الخاصة بمنزلهم، مرن نفسه بإتقان على أن يُغلق عينًا ويترك الأخرى مفتوحة للرقابة والحراسة؛ خوفًا من عبث العابثين في بضاعته ..

وخامسٌ اسمه حسين، لا يخرج من التكية إلا نادرًا، وغالبًا ما يكون في الليل، وكأنه سحيَّر الليل (خفاش)، يخرجُ لعدة ساعات ثم يعود، أكثر مستوطني التكية ظنوه يذهب للمقاهي ليستمتع بمشاهدة برامج التلفزيون المحرومين منها في التكية، خصوصًا من محطة تلفزيون الكويت، لأنه يسأل عن الكويت كثيرًا، فحبه لها شغف قلبه وأكل عقله، فاسمها يرن في قعر جمجمته كل حين، يروي لسكان التكية عن قصص بعض التمثيليات الكويتية المُعجب بها والتي يتابعها، وكان يحاول جاهدًا نفسه في محاكاة اللهجة الكويتية ..

أغلب سكان التكية شاهدوه يتحدث بهمس مع الملثم، فسكانها لم يفقهوا سر العلاقة بينهما، إنه قادمٌ من الناصرية من منطقة سوق الشيوخ، تظهر على ملامح كلامه وطريقة لبس هندامه وأسلوبه المحترم في التعامل مع الآخرين، أنه من طلاب الجامعات ومن مثقفيها، لا يأكل إلا القليل ولا ينام كثيرًا، ويشغل باله همٌ لم يطلعه على أحدٍ، أكثر أوقاته يقرأ في أي قرطاسٍ يقع تحت نظره أو بين يديه، يلتهم السطور بسرعةٍ مريبةٍ، حتى يكاد المتابع له يظن بأنه يتسلى بتقليب الصفحات ومتابعة الصور والإعلانات،

يجمع الساقط من المجلات والجرائد المهملة، القديم منها والحديث، ويأتي بها للتكية؛ لهضم ما كُتِبَ فيها وتحويل خلاصة أنزيمها الثقافي لمركز ذاكرته، بعض سكان التكية، شهدوا قسمًا بأيمان مغلَّظة على أنهم رأوه لأكثر من مرة يدخل مع الملثم لقاعة المكتبة الأهلية وقاعة المكتبة الوطنية في الزبير، وفي أحد الأيام شاهدوهما يذهبان للعشار في باص مصلحة نقل الركاب، كانا جالسين جنبًا إلى جنب يتحدثان بحرارةٍ بينهما ..

وفي نفس الغرفة يقطن سادسٌ وجد نفسه ابن الشارع، عاري النسب والانتماء، بدون أهل، وبدون رعاية أسرية من أم أو أب، لا يعرف أي معنى لتفاصيل الأسرة وشجرتها، كل الذي عرفه من بطاقته الشخصية أن اسمه ليث، واسم أمه مريم، رمته المريم بعد ميلاده بساعاتٍ عند أقرب باب بيتٍ في شارع الجزائر بالعشار، وبعد رحلة صراع طويلة من التنقلات في حضن الحياة، يجد نفسه في هذه الدار مع سكان آخرين، تجمعه معهم علاقة رحم الجدران، عاش مرحلة طفولته في دور الأيتام والمشردين في البصرة، لم يَتلقَ التعليم إلا في مرحلته الابتدائية؛ لذا كان التجنيد الإجباري كفيلًا لتربية أمثال هذا الصنف من البشر، فخدم في العسكرية الإجبارية لمدة خمس سنوات، معظم هذه الفترة قضاها داخل السجن؛ نظرًا لفراره المتكرر من الخدمة العسكرية الإجبارية، فكلما فر من وحدته العسكرية قبضوا عليه، فساقوه من جديد لوحدته لنيل العقاب، وعادة ما يكون سجنًا مع حلاقة شعر الرأس صفرًا (حلاقة بالموس)، عمل أخيرًا بجدٍ ونشاط في فرن

لصناعة الكعك والصمون، بعد أن تم تسريحه من الجيش العراقي؛ لعدم صلاحيته في العسكرية؛ بسبب اختلال وزن عقله ..

وسابعٌ وثامنٌ وعاشرٌ، حشروا أجسادهم المنهكة في معدة هذه الغرفة الخالية من نظام أجواء الرعاية الصحية، تتسرب من منافذها الضيقة القليلة جميع الروائح بحرية تامة دون رقابة دبلوماسية من أحد، دون مجاملة من رسميات الطبقات الأرستقراطية ..

بعضهم يهمس بكلام لمن قربه في أثناء فترة المنام برواية قصة حدثت له في الصباح، وآخرٌ يضحكُ بملء فمه ويُضحكْ من حوله في الغرفة، وثالثٌ يدندنُ بينه وبين نفسه، مستمتعًا بأغنية من أغاني السيدة، فيُمتع الحاضرين معه الذين ينصتون لصوته، وخصوصًا عندما يتقمص صوت أنغام موسيقى العود المصاحب لأغنيته، ورابعٌ يبكي لتسرب هذيان ذكرياته، فيُبكي من يسمعه، فيطلبون منه متوسلين ضرورة النسيان رفقًا به وشفقة على حالته، يطلبون منه الكف عن انهمار هذه الدموع الساخنة، وآخرٌ من شدة ألم مرضه يعوي كالكلب المصاب بداء عُضال، وآخرٌ يتحسر على ما فرط من أمره في أيام ضيّع شبابه..

وهنالك في ركن من هذه الغرفة من يسرح بخياله بعيدًا، بعيدًا جدًّا عن أجواء غرفته، يُحلقُ في سماء ملكوت خياله، يجري مهرولًا خلف حدود جغرافية محيطه، خارج نطاق صحبته، هنالك من يهرب من جحيم مجتمعه، ومن سوء تضاريس أحوال سيرته، ومن ضياع شبابه إلى مقبرة نهايته، يُريد

سرعة الذهاب إلى عالم الصفر في منطقة حياته، يُريدُ اللحاق بمن سبقه من الأموات، كل يوم يقف منتظرًا أن يحملوه على نعش خشبٍي لمقبرة الحسن البصري ليواروه الثرى، ولكنه لا يستطيع اختيار ساعته، ولا يتمكن من تحديد هويتها، فيقف حائرًا بين تقاطعات عقارب يومه، فدقائق ساعاته بطيئة الحركة والسير، تعيشُ زحمة بلا عمل، يحاول الوصول لمحطته الأخيرة المتباعدة، ولكن قطاره ربما ضل طريقه، وسار في اتجاه آخر بعد أن تجاوزه ..

تعوي بعض أصوات سكان التكية، عن إعلان وصول وجبة طعام جديدة، فسرعان ما يتدفق جريان الدم في عروق بطونهم الخاوية، فتتمدد الكروش لاستيعاب أكبر كمية من الطعام؛ ليتم نقل خلاصتها عبر شرايين أجسادهم؛ لتمدهم بالحيوية والنشاط، وعادة ما تكون مثل هذه الوجبات عبارة عن مشروع تقديم "زيارة" (اعتاد بعض الناس تقديم أكل مثل الرز بصواني كبيرة للفقراء والمساكين، وخصوصًا يوم الخميس ليلة الجمعة)، أو تكون "صدقة جارية" قام بتوصيتها أحد الأموات لورثته، أو تكون وجبة "كفارة نذر"، يُريد صاحبها أن يَبر في قسمه ..

عند سماعهم لصوت الإعلان عن مثل هذه الوجبات، سرعان ما يتقافزون من معتقلات ثكناتهم، كالقطط المشردة الجائعة التي تتقاتل داخل برميل على قطعة عظم مرمي بداخله، تتسارع خُطاهم نحو المكان المخصص للأكل، تسبقها كلمات بصوت عالٍ مسموع: إنها وجبة .. إنها وجبة!!

كل من في الغرفة يشعر بالغربة مع من حوله من سكانها، تجمع شتاتهم هذه الصومعة المنزوية في أحد أركان التكية، فهي الأم الغالية الحنونة لهم جميعًا، وهي العمود الفقري للحسب والنسب والأصول والفصول لهم، بعضهم شغف بحبها كثيرًا، وبالغ في صلة رحمها، فأطلق عليها بكل فخر اسم "الوطن"، ووسم نفسه باعتزاز "بالمواطن"، ثم عدد صفات أنواع المواطنة حسب مفهومه لأيديولوجية التكية، فأعلن عن هوية مواطنة ذاته، فوصفها بغرور وشموخ بالمواطن الصالح فيها والبار لها والمدافع عن أرضها وحرماتها، وعرَّف غيره من الساكنين خارج حرمها بالمواطن الطالح ..

تعودت أرواحهم على اجتياح زوابع الوحدة، وقسوة رياحها الجافة، مهما كانت اتجاهاتها، كل من هؤلاء قابعٌ في عالم سكنه الخاص فيه، لكل منهم سرٌ وطلاسم غير معروفة، كتعويذات المشعوذين، وككتابات السحرة والدجالين، فحياة كل فردٍ منهم كوجهِ القمر الذي فيه الجانب المظلم دائمًا، كل منهم لا يبوح بسره لأحد، لا في ليل ولا في نهار، فسره مقبورٌ في صدره داخل أحشاء قلبه، يستهلك جزء من جرعات تنفسه ..

في قلب الغرفة يسكن شاب أسمر اللون فاحم الشعر، لم يجد مكانًا شاغرًا له غير هذه المساحة الضيقة من ممر أقدام المشاة؛ لذا كان من الضروري على كل من يُريد الخروج والدخول للغرفة شدة الانتباه لموطئ قدمه عند تجاوز منطقة حدوده، خوفًا من سحق جسده، البارزة عظامه، اسمه سردار، يتكلم بالعربية المكسرة، يدعي زورًا بأنه جاء من منطقة

عربستان الإيرانية، لكن جمال وسامته ولون سحنته السمراء تُعلن بصراحة للمشاهد من أول وهلة عن أصوله الهندية، أما لهجته العربية بصورة عامة فيغشاها ذرات بهارات اللحن الهندي الحارة!!

يعملُ حمالًا في محل لبيع المواد الغذائية، صاحبه عبد الله المحطب، من تجار مدينة الزبير، ومن المشهورين في سوق الجت "البرسيم"، وممن يتمتع بثقة عالية عندهم، ممن يبيعون بالمفرق والجملة وبالنقد وبالدين (على الحساب)، ويعتبره بعض الخاصة المقربين منه والعامة الممثل الرسمي لمصرف "بنك" أهل الزبير، فكثيرٌ من أصحاب دكاكين الأسواق يقومون بإيداع مدخراتهم الفائضة عن حاجتهم اليومية لديه في حسابات مستقلة بأسمائهم، في دفاتر الذمم والأمانات لديه، إنهم لا يفضلون التعامل مع مصرف الرافدين المتواجد فرعه في سوق الحزم، مقابل مسجد الدروازة؛ ظنًّا منهم بأنه مصرف ربوي، محرم التعامل معه، في محل عبد الله المحطب خزنة حديدية كبيرة جدًّا ضد الحريق (قاصة)، يُودع فيها سيولته الخاصة من نقدٍ، وجميع السجلات الخاصة بأصحاب الدكاكين، وبعض الصكوك الخاصة بالناس؛ لثقتهم فيه، كعهدة وأمانات؛ خوفًا عليها من الحريق والتلف والسرقة، لا يتقاضى عليها أجورًا مقابل إيداعها في خزنته، يأتيه أصحابها بين فترة وأخرى لاستعارة سجلاتهم وصكوكهم، كلما اقتضت الحاجة إليها، وليس هنالك من طريقة شرعية غيرها، إما مع (عبد الله المحطب) أو مع (جاسم الشبيب)، الذي يقع دكانهم في سوق الحزم، مقابل دكاكين سبيل الماء، والمشهورين في بيع كافة أنواع التبغ وتوابعه وبيع

المواد الغذائية، وكذلك شهرتهم الكبيرة بتجارة صرف العملات الأجنبية، خصوصًا الريال السعودي والدينار الكويتي، المتداولين في مدينة الزبير، فقد راجت تجارتهم في هذا المجال، فقدموا لأهل مدينة الزبير خدمات جليلة يُشكرون عليها، بخصوص صرف هذه العملات، بصرف النظر عن ضخامة حجم أرباحهم التي يجنونها من فرق سعر الصرف بين العملتين (البيع والشراء)، مقارنةً بأسعار صرف العملات الأجنبية في البورصات العالمية والإقليمية والمحلية الموجودة بكثرة في مدينة البصرة، فقد وفروا على أهل المدينة مشوار الذهاب للبصرة من أجل صرف بعض الدنانير الكويتية أو الريالات السعودية ..

في كل يوم يرفع سردار فوق ظهره أطنانًا من بالات (كياس) الرز والطحين وصناديق الشاي الخشبية الكبيرة، يأتي للتكية في أول الليل منهكًا ومتعبًا، يضع رأسه على وسادته، فينام على وجهه دون شعور بحركة الذين من حوله من شدة الإرهاق والتعب، في الثلث الأخير من الليل يستسلم لأرق خفافيش هواجيسه الليلية الطائرة التي تُحلق بين أرض قلبه وسماء عقله فتلسعه بتياراتها الساخنة ..

تمكن بعد فترة وجيزة من إقامته في الزبير من تعلم صنعة جديدة، لم يكن مارسها من قبل، عمل صباغًا متجولًا للأحذية يحمل على كتفه صندوق الأصباغ بين عتبات المقاهي وبين أزقة الأسواق الكثيرة!!

سكان التكية ينادونه بـ (رفيق)، هو يرفض هذا الاسم ويقول لهم دائمًا:

إنه إيراني الأصل، وليس بهندي، وإن اسمه سردار، لكنهم يُصرون على

لصق بعض الأسماء الغريبة بشخصيته حين مناداته برضاه أم بزعله، كثيرًا ما كانوا يُنادونه: بسر، بدار، بدور، ردار وهلم جرى من مثل هذه التقليعات ..

سردار لغز من ألغاز مواطني هذه الغرفة، وعلاقته بذلك الشاب الملثم الوجه، تزداد قربًا يومًا بعد يوم، وتُكون زوبعة من الشكوك والظنون غير المهضومة لسكان هذا الوطن الصغير .. سربٌ من الأقاويل المتناقلة بين الألسن والآذان تحوم في باحة التكية، إنها علاقة غير مقبولة لأفراد مجتمع التكية. إن مثل هذه العلاقة الحميمة بين هذين الرجلين شكلت سُحبًا سوداء في أفق التكية، كان لزامًا عليها أن تنقشع سريعًا؛ حتى لا تكون فتنة قادمة للجميع، ويكون أحدهما أو كلاهما تابعين لرجال جهاز أمن الدولة (مباحث) ..

كان كلا الاثنين يُحيلان نفسيهما لأودية صدى الصمت وطلاسم السرية، كل منهما لا يريد الحديث مع غيره عن سيرة شخصية أيامه، لا يريد التحدث لغيره عن هموم وأوجاع سيرته الذاتية، ولكن بين الاثنين يستمر الهمس وينكشف صديد الألم، فينزف قيء ورم الذكرى، وتتعرى أرواحهما من ملابس الغربة والوحشة، ويجد كل منهما في الآخر مرآته الخاصة للحديث معه عن شؤونه وغربته ..

كل من في التكية رآهما كثيرًا ما يتسامران مع بعضهما البعض، تحت ظل السدرة في باحة التكية، يمزحان مع بعضهما البعض، يتناوبان أعقاب السجائر فيما بينهما، يضحكان مع بعضهما البعض بكل حرية ونشاط ..

تدحرج مثل هذا اللغز إلى كهف النفوس النهمة؛ لمعرفة أسرار وخفايا القلوب .. لمعرفة فك رموز العلاقة بينهما .. لمعرفة شفرة مفتاح هذا التجاذب الذي يربطهما مع بعضهما البعض ..

وفي ليلة من ليالي الشتاء الباردة، تسلل أحدهم مستعينًا بسرية حضوره على شدة الظلام، الذي فرض سواده في باحة التكية، فأرخى مسامعه لما يدور بين هذين الشابين، سمع أنين البؤس والحسرة والشقاء، سمع هدير بركان الصدر المتشبع بتلوث البيئة الاجتماعية.

***

بومباي

سَمِعَ سردار يقول:

كنتُ أحبها حتى الثمالة، أحببتها منذ فجر شبابي، منذ أن عرفت أن في الحياة هنالك شيئًا يُمارس قوة حكومته وسلطان ملكيته على قلبي، منذُ أن كنتُ طفلًا يافعًا صغيرًا لا يقوى حجم تفكيري وإدراكي على فك مثل هذه الرموز المزدحمة بالمجاهيل الكثيرة، كيف لا وهي جارتي وزميلتي في المدرسة؟! فمنزلهم اللصيق لمنزلنا كان كفيلًا بجعلها أميرة قلبي وسيدة حبي، فتفتحت براعم روحي الطرية في أرض وطنها، ونمت تحت رعاية ساعات إشرافها، نحن نتقاسم جدارًا واحدًا، أهلها مثل أهلي وأهلي هم أهلها، كم وجبة غذاء تناولتها معهم، وكم وجبة أخرى تناولتها معنا في منزلنا ..

كانت أسقف منازلنا شاهدةً على لقاءاتنا المتكررة في أوقات المذاكرة، كم مرة بنينا بيتًا صغيرًا لنا، فتقوم بهدمه عندما تغضب مني!!

إنها حبيبتي (ماريا)، تحبني كثيرًا كحبي لها، بل وأكثر مني ربما، منحتني جل أوقاتها من ساعات يومها، لقد منحتني كل شيء، فوعدتها وأقسمت لها أكثر من مرة بالزواج عقب تخرجي من كلية الطب ..

أبوها (راجو) صاحب الخمسين سنة الذي يعمل مراسلًا في بلدية بومباي، اجتاحه فقر في سنواته الأخيرة، فلم يتمكن من تحمل أعباء

مصاريفها مع أخواتها الأربع، فعجل في فكرة تزويجها لمن يتقدم لها، رغم أنها لا زالت تدرس في كلية اللغات (لغة فرنسية)، فزوَّجها رغم أنفها، هي تكرههما معًا ..

بعد زواجها كانت تُقابلني ظهر كل يوم فوق الأسقف بعلم والدتها التي كانت رافضة للزواج، أفعل معها ما يفعل المعشوق بعشيقته، كنتُ أتفكهُ من ثمارها اللذيذة في دائرة حضنها، ثم نبكي أنا وهي قدرنا التعيس، فأندبُ حظي؛ لأني لا زلتُ أحبها ..

تألمتُ كثيرًا في حضرة حبها الغالي، أشعرُ دائمًا بشوكة ضمير تتحركُ بين خلايا عقلي، فتجرحني كأنها نصلُ سكين حادة، تخترقُ عقلي فتمزقه ..

وفي لحظة من لحظات غياب العقل المجروح الذي ينزفُ ألمًا، قررتُ رفع سوط الانتقام، وخوض معركة تصفية الحساب مع هذه الآلام البشعة، التي تنتابني فتجرح الضمير في معظم الأوقات، قررتُ التخلص من هذا الكابوس الجاثم فوق سقف صدري، قررتُ إقصاء هذا السارق من حياتنا إلى الأبد، دون تريث للتفكير في عاقبة مثل هذه الأمور، أقدمتُ على قتل كومار دون رحمة بطعنات سكين حادة في جوف الليل والناس نيام، فبقرتُ له بطنه بثلاث طعناتٍ، مزقتُ له كبده، فأخرجتُ له بعض أحشائه من جسده، وتركته يهذي بسعاله، مرددًا اسمي الذي لم يغب عن لسانه، ساعة تلك الليلة ذكرتني بمادة التشريح سنة أولى طب، عندما كنا نقوم بتشريح جثث الموتى التي كنا نشتريها من حُراس المقابر بعد ساعات من دفنها في القبور، ثم نقوم بتقاسم أعضاء الجثة فيما بيننا بالقرعة ..

رجعتُ للمنزل فأخبرتُ أبي بما جرى من جُرمٍ طالبًا شفاعته ومشورته بمثل هذه الحادثة، خصوصًا أني تعودت على مصارحته ومكاشفته في كل صغيرة وكبيرة من أمور حياتي، فوضع والدي يده على رأسه من شدة هول ما سمع من مصيبة، فأنبني كثيرًا على هذه الفعلة الشنيعة، ثم بدأ يرغي ويزبد كالثور الهائج في حلبة صراع ثيران، يمشي في الغرفة ذهابًا وإيابًا كأنه يُريد أن يتأكد من طولها وعرضها لمعرفة مساحتها، ثم تدارك نفسه وكأنه وجد ضالته فاستبشرتُ خيرًا، توقف عن المشي وهدأت ضربات أنفاسه قليلًا، وبدأ يمسك بحبال أعصابه المتوترة، **ثم قال:**

يا بني أنصحك بالهرب من الهند فورًا، خير لك أن تُهاجر إلى مدينة البصرة جنوب العراق، والتوجه لمدينة صغيرة تقع غربها قرب قاعدة الشعيبة العسكرية، تُسمى مدينة الزبير، نصحني بالسكن في هذه (التكية) التعيسة.

والدي كان مجندًا في كتيبة الجيش البريطاني، المرابطة في معسكر قاعدة الشعيبة، أيام الحرب العالمية، كان يعرف طبيعة هذه المدينة الجغرافية والاجتماعية، ويعرف طيبة وأخلاق أهلها النجديين جيدًا، تعامل معهم كثيرًا، فتعرَّف على أسماء بعض العوائل المشهورة ..

نحن من قرية صغيرة من ضواحي بومباي المعقدة في تركيبتها السكانية، نصحني أبي أن أبقى في مدينة الزبير، حتى يجد لي مخرجًا مناسبًا لفعلتي هذه، **فقال لي:**

إني أعلم بأنه مكانٌ آمن يا بني، أهل هذه المنطقة جاءوا من قُرى نجد، أعرفهم طيبين جدًّا، افعل معهم حُسن مكارم الأخلاق، إياك والغش في العمل وفي الكلام، إياك أن تمتد يدك إلى سرقة، إياك وتكرار مثل فعل ما حدث هنا، اسكن في التكية واعمل في الصباح، لا ترسل لي رسائل؛ لأن أهل المقتول سيكتشفون عنوانك، وسيتعقبونك للثأر لابنهم، عليك أن تزيل ماريا تمامًا من خارطة ذاكرتك، لا تُخبر أحدًا بقصتك، وعندما أرى الأمور قد هدأت واستقرت وسارت كما نُريد سأعرف كيف أصل إليك ..

يا بني لو تعرضت لظروف سيئة - لا قدر الله - اسأل عن اسم عائلة النقيب، بعضهم يسكن في مدخل مدينة البصرة، ولهم بقايا أهل في مدينة الزبير، اطلب كبيرهم وعرِّفه بنفسك كاملًا، ولا تخف منه، قل له إنك ابني وإنك في مأزق وبحاجة لمساعدته، هم أهل فضل وأهلُ خير، وبيني وبينهم معرفة طويلة ..

وكما تُشاهد الآن يا سالم، فأنا أعمل صباغ أحذية، أتكسبُ منه قوتي بصورة مؤقتة، وفي الليل أنام هنا معك في هذا الصندوق الضيق، كل شروق شمس أنتظر خبرًا يأتي من والدي، الذي انقطعت أخباره عني، لكن متى تأتي مثل هذه الأنباء؟ وكيف تصل إليَّ مثل هذه الأخبار السارة؟

لقد تجرأت بحماسٍ أكثر من مرة، فذهبتُ لمكتب البريد، الكائن قرب الفلكة، مقابل مقهى الملا من جهة الغرب، فسألت مدير إدارة البريد (أبومنذر) عن رسائل وصلت من الهند باسمي وأعادها بالخطأ لمرسلها لعدم معرفة المرسل إليه، أو قد يكون سلمها لشخصٍ آخرٍ غيري عن طريق

الخطأ، لكنه استغرب من كثرة ترددي عليه، وكثرة إلحاح سؤالي، فتعاطف مع شعوري مشكورًا، ووعدني خيرًا، فدون اسمي في دفتر ملاحظاته في حالة ورود رسائل باسمي سوف يُرسلها على عنواني في التكية غرفة رقم(3) ..

صدقني لم أُخبر أحدًا غيرك بسر حكايتي هذه؛ نظرًا لمكانتك العزيزة الغالية في قلبي، ربي بعثك من وحي هذه الأرض لتكون أخًا وصديقًا وفيًّا لي، كم أنا أشكر الرب على هذه الهبة الربانية الممنوحة لي ..

يا سالم ..

بالله عليك، قل لي أنت: ما هي قصتك؟ ما سبب مجيئك إلى هذا المستنقع اللصق في وحولته؟ مجيئك إلى ملجأ المشردين والأيتام والضائعين؟

***

المجصة

اسمعني يا دكتور سردار بن راجو ..

ولدتُ وترعرعتُ في منطقة تُسمى (المجصّة)، تقع شمال الزهيرية، محاذية للسور الغربي لمدرسة طلحة الابتدائية للبنين، والتي تأسست في عام 1927م، يوم كان موقعها في قلب منطقة الزهيرية، في منزل ثُريا الفداغ، ثم انتقالها للمبنى الجديد بالعراص في عام 1953م، محاذية بقايا السور الشرقي لمدينة الزبير، الذي لا يزال محافظًا على بعض من ذكرياته المحيطة بالمدرسة من جهتها الغربية ..

سميت بمدرسة طلحة؛ تيمنًا بذكرى سيرة الصحابي الجليل طلحة بن أبي عبيد الله – رضي الله عنه – الراقد قبره في الجهة الشرقية من جامع الإمام علي – رضي الله عنه – وكلا المشهدين يقعان على الطريق المؤدي للبصرة، قبل تقاطع مفرق طريق سفوان ..

سُميت هذه المنطقة بالمجصّة نسبة لوجود مصانع "الجُص"، التي كانت منتشرة فيها، هذه المادة البيضاء، التي تُستخدم في البناء قبل ظهور مادة (الإسمنت)، وانتشارها في أنحاء المعمورة، كانوا في هذه المنطقة يحرقون الرمل الأحمر الناعم، الذي يأتون به من باطن الأرض، من منطقة تُسمى بالدراكيل (منطقة محفورة في باطن الأرض) بعد إضافة مادة الكلس له،

فيتحول هذا الرمل من لونه الأحمر إلى اللون الأبيض بعد الحرق، والذي يُعرف فيما بعد بالجص، ومثل هذه المادة سريعة التماسك مع بعضها البعض ومع حبات طابوق البناء، ولهذا كان لمثل هذه المادة "الجص" طريقة خاصة في طبخه (خلطته) أثناء البناء، وبحاجة إلى طباخٍ ماهر، يُتقن مثل هذا الفن؛ لأن طريقة طبخه ربما تتعرض للموت السريع عن طريق التيبس قبل الاستعمال ..

وفي رواية أخرى، عن نشأة منطقة المجصة، تقول فيها إن هذه المنطقة التي كانت داخل سور الزبير القديم سكنًا لأهالي العمال الذين يشرفون على محارق الرمل، وتحويله إلى جص. لقد كانت المحارق خارج سور الزبير القديم قرب الدراكيل، التي تقع خلف مستوصف العقيل، وخلف منطقة أثل الوزان ..

وسكيك (شوارع حواري) المجصّة ضيقة جدًّا، وغير مستقيمة، ومتناثرة بين المنازل دون تنظيم، كما أنها غير مسفلتة كباقي سكيك المناطق الداخلية للأحياء الأخرى في مدينة الزبير، تعصف بها الأتربة والرمال القادمة من عمق الصحراء بحرية، خصوصًا عند مرور سيارات أو عربات تجرها الخيول .. منازلها متلاصقة الجدران، ويصعب عليك تقدير مساحة المنزل وجغرافيته، من خلال النظرة الأولى لبوابته الخارجية؛ لأن الغرف فيها متداخلة فيما بينها بشكل عشوائي.

أما سطوح (أسقف) المنازل، فيفصل بينها جدار، ليس بذلك الارتفاع

الشاهق، فبإمكان تسلقه بسهولة، وهذا ما كان يحدث لي عندما كنت في مرحلة الدراسة المتوسطة، كان وقتها والدي يضرب علي حصارًا بعدم الخروج في الليل بعد صلاة العشاء، فيقفل الباب بالمفتاح، فكنت أتسلق الجدار الذي يفصل بين منزلنا ومنزل جارنا حمدي، وأخرج معه؛ لنجلس مع بعض الشباب في رأس العاير، بينما كان والدي يظن بأني في سابع غطة في فراشي ..

دكتور سردار ..

لا تستغرب لقد تنازل رحم أمي عن حضانتي بعد تمام التسعة أشهر في بطنها كباقي الأرحام الطبيعية، دون تأخير واستباق لأوانه، كان مخاضها في بيتنا مثل مخاض باقي الأمهات عندما يلدن صغارهن، ليس فوق سرير أبيض معقم في مستشفى، كما يُولّد الأطفال الآن؛ خوفًا عليهم من عدوى الميكروبات وآفة انتقال الفيروسات، غرفة نومنا الرئيسية المسماة بالطويلة، كانت غرفة العمليات الجراحية، لا أثر فيها لظروف التعقيم والتخدير، غير تطاير رذاذ فقاعات الماء الساخن في أجوائها، على شكل سحابة بخار، تتصاعد من قدر الماء الذي يغلي من غير غطاء فوق صُوبة (مدفأة كيروسين)، وتفوح منها رائحة الزنجبيل والدارسين وعطر دهن الفيكس ذو العلبة ذات اللون الأزرق ..

في زاوية من زوايا تلك الغرفة التي يُنيرها مصباحٌ واحد، يتدلى من

السقف في وسطها، يدفع الإضاءة من قلبه ببطء شديد،كانت الحجية عاصبة الرأس في ملفع أسود (غطاء الشعر)، وتصرخ وتطلب الرحمة من الله، رغم أن القابلة وضعت في فمها قطعة قماش، وتؤنبها بأن نساء هذا الزمن لا يطقن تحمل ألم المخاض .. كانت الحجية تضرب الجدار بيدها اليمنى، وتضغط على يد جارتها أم حمدي باليدِ اليسرى، وتصرخ بقوة لتطلق زفراتها الأخيرة بخروجي للحياة .. تسمع صوت بكاء وليدها .. إنه ولد بعد ثلاث بنات، بشروا أبيه بهذا الخبر السعيد .. لقد جاء من يحمل شجرة اسمه، ويحمل الراية عالية خفاقة ..

كانت قابلتها (مولّدتها) وقت ذاك المنفسّة المشهورة "شيخة" – رحمة الله عليها – قبل ظهور القابلة المرخصة "زينب"، تُوفيت القابلة الشيخة قبل عدة سنوات، كنت أسميها بـ "يمه شيخة"، بل اكتشفت فيما بعد بأن كثيرًا من الأطفال يُنادونها بيمة شيخة، كنت أذهب إليها في أيام الأعياد وأيام توزيع شهادات النجاح الدراسية؛ لتدس في يدي الدرهم والدرهمين (الدرهم خمسين فلسًا)، وكنتُ أحمل إليها أكياس زكاة الفطر من رزٍ وطحين في ليلة عيد رمضان، وفي أيام التشريق تُرسلني والدتي بقطعٍ من لحم الأضاحي هدية لها، وعادة ما تكون يدًا أو فخذًا من الأضحية ..

جئت إلى هذا العالم بهوية تنحدر جغرافيتها من أصول نجدية، مخلوطة من أب زبيري، أصوله من منطقة القصيم؛ ولهذا اكتسب القوة والقسوة في التعامل مع الآخرين، ومن أبرز صفات معالم شخصيته، شدة محافظته على قناعاته الدينية، وكأنه نسخة من آلكتب الستة، يتعمد حضور الدين في كل

المواقف والمناسبات، حتى ما كان منها مباحًا أو مسكوتًا عنه، وأم زبيرية ترجع أصولها لمنطقة سدير، ولهذا هي اكتسبت الرقة والعطف والحنان والخشوع في العبادة، دون الدخول في جدال، مبتعدة جدًّا عن فتاوى الحماس في الشبهات ..

فأظن أن برعمي يجلس فوق شجرة تنتمي جذور بذرتها للأراضي النجدية، لم أعثر على عقد زواج يرتبط فيه والدي بوالدتي، كما هو حاصل الآن، ولكن حسب صفحات جواز سفر والدتي، الذي يقول بأنها زوجته الرسمية والشرعية - ربما كان عقد زواج لملأ شهد عليه اثنان كانا في المجلس ..

منطقة المجصّة يحدها امتداد شارع الباطن من جهة الشمال، وهو بمثابة الطريق الرئيسي المؤدي للبصرة، وكنا نعتبره الطريق السريع في مدينة الزبير، ويحدها من الجنوب منطقة الزهيرية، وسُميت بهذا الاسم نسبة لعائلة آل زهير الحاكمة لإمارة مشيخة الزبير، لأكثر من مائتي سنة، وتتداخل البيوت بين منطقتي الزهيرية والمجصّة بخارطة عشوائية بين الجدران المتجاورة، حتى تبلغ درجة عدم التفريق بين هذه البيوت، تابعة لأي منطقة منهما، فيشتد نزاع الخلاف والمنافسة بين سكان الجارين المتلاصقين المشتركين بجدار واحد، في حقوق نسب منطقة منزليهما ..

عرفتُ هذه المنطقة بسكيكها (أزقتها) الضيقة المتعرجة وعوايرها (رأس الشارع) الصغيرة الكثيرة، ودخلتُ في بيوتها بيتًا بيتًا، كمحرم من محارم أهلها، عرفتُ سكتها المشهورة فيها (سكة العَبيّد)، التي تمتد من قلب

المجصّة ناحرة بشريانها الجهة الشمالية لمنطقة الزهيرية، صابةً أقدام المشاة التي تسير على ظهرها في عمق دكاني يوسف وعبدالرحمن السبع ..

أما من جهة الغرب فتحدها منطقة العبدلية، التي تبدأ من دكان الحتة، الذي يقف فوق خاصرتها الشرقية، ثم سكة البشر المتاخمة لحدود منطقة المجصة، وسكة الغملاس التي تصب في ضفة الباطن من جهته الجنوبية، وسكة الجديمي التي قد تنفذ لمنطقة المجصة لو أُزيلت بعض البيوت، حتى قلب هذه المنطقة (العبدلية)، ليقف أمامك جامع النجادة الضخم، الذي يتوسط مدينة الزبير بكل فخر وشموخ، الذي قام بتجديد بنائه أمير دولة الكويت الشيخ (عبدالله السالم الصباح في عام 1966م)، في الجهة الشرقية لهذا الجامع، ومقابل بابه الشرقي الجنوبي، بإمكانك أن تُشاهد خرائب بقايا مدرسة الدويحس العلمية ..

منطقة العبدلية تُعتبر مركز مدينة الزبير ونقطة ارتكازها، فهي تتوسط مدينة الزبير، فمنها تنطلق الشوارع والمنافذ المؤدية إلى كافة المناطق الأخرى والأسواق، وكأنها القلب النابض للمدينة، يُقال إنها أول منطقة أسسها المهاجرون من أهل نجد عندما قدموا الزبير أيام القحط، وهي الرواية الثانية لتأسيس مدينة الزبير، وهي أكثر المناطق ارتفاعًا في الزبير؛ لذا كان أهلها يُعانون من شدة ضعف انسياب الماء لمنازلهم، فكان أكثرهم يستخدم نظام الدينموات والمواطير لتقوية المياه في منازلهم لملء الخزانات..

درستُ الابتدائية في مدرسة النجاة الأهلية، والتي يحلو لبعض الأهالي تسميتها بكل فخر واعتزاز بـ (مدرسة الشنقيطي)؛ نسبةً لمؤسسها محمد

أمين الشنقيطي، تقع في منطقة الرشيدية، وسميت بهذا الاسم نسبة لمؤسسيها (آل راشد)، الذين كانوا آخر من حكم مشيخة إمارة الزبير، وأصل هذه الكلمة (الراشدية)، ولكنها كانت ثقيلة في اللفظ، فتحولت من الراشدية إلى الرشيدية، من باب السهولة في اللفظ ..

درستُ في هذه المدرسة الأهلية، يوم كان مديرها (محمد شحاته الصفطاوي) المهاجر من جمهورية مصر للزبير، أيام تسلط الفكر الناصري على الدعوة الإسلامية وتشريد رموز دعاتها، ومن مدرسيها كل من الأساتذة الأفاضل (عبد الله المزين، جاسم العقرب، عبد الرحمن العقرب، أحمد الأحمد، عمر الدايل، أحمد العجمان، إبراهيم المبيض، عبد القادر الخزعل، أحمد الزيد، رشاد، إبراهيم عاشور) ..

درستُ في تلك المدرسة البعيدة عن منزلنا؛ بسبب تمسك والدي وتشدده في التقاليد السلفية، ورفضه لي بلبس البنطلون والقميص، ورفضه دراسة مناهج الحكومة، كان يظن مثل هذه الملابس انتقاصًا بحق الرجولة، ونوعًا من أنواع تقليد الغرب في الملبس، وفيه من أدلة النهي الشرعية ما يكفي لمقاطعته؛ بسبب تقليد الكُفار ..

تلقى والدي معرفته السلفية الحنبلية المتشددة، عن طريق جدي، الذي درس في مدرسة الدويحس العلمية الآنفة الذكر سابقًا، والتي كانت تهتم بتدريس منهج الفقه الحنبلي بصورة خاصة، يوم كان لها صيت في المنطقة

الإقليمية، كان يأتيها الطلاب من كل حدب وصوب، وكانت الدولة العثمانية مع بعض المحسنين يمدونها بالعون والمساعدة، ويتكفلون برعاية مصاريف طلابها ومناهجها؛ لهذا فإن والدي ساهم في ترسيخ قواعد مدرسة النجاة الأهلية؛ إسهامًا منه في المحافظة على امتداد هذا التيار السلفي النجدي في المنطقة ..

كنتُ الوحيد بين أطفال منطقة المجصة الذي يدرس في مدرسة النجاة الأهلية، في أول أسبوع من الدراسة لي، اقتادني والدي للمدرسة؛ كي أتعرف على الطريق لهذه المدرسة النموذجية في تدريسها، هنالك ثلاثة طرق تؤدي للمدرسة من منطقة المجصة؛ الأولى منها أن أذهب شمالًا بمحاذاة حديقة البلدية، ثم أسيرُ شمالًا في اتجاه الغرب عند ثانوية البنات، مرورًا بمنطقة الشمال، بمحاذاة دكان ياسين المشهور، والذي يُعتبر أهم عاير من عواير منطقة الشمال (العاير منطقة تجمع شباب وشياب)، ثم أصل لمنزل فهد الراشد، الذي يقع على ثلاثة شوارع، ومقابل مخبز الشمال جنوبًا، ثم أتجه شمالًا تاركًا المنزل على جهة اليمين. أما الطريق الثاني فكان عليَّ الذهاب عبر شارع الباطن، من أي منفذ من منافذ منطقة المجصة الكثيرة، والتي تصب في شارع الباطن، وأسير في اتجاه الغرب، حتى أصل لسوق البنات، فأنعطف يمينًا للسير نحو الشمال، حتى أصل لمنزل فهد الراشد، ومنه إلى مدرسة النجاة، مارًّا بمنازل كل من النجران والذكير ومبنى روضة النجاة الأهلية، ثم منازل الفليج والعمران والمجيم والعوجان. أما الطريق الثالث فكان علي فيه تجاوز سوق البنات، وعيادة نوري الدول، ثم ورشة

الشايجي وتانكي الماء، متجاوزًا منزل الجاسم، لأصل إلى مسجد الحصي، وعنده أتجه يمينًا نحو الشمال، عبر براحة منطقة الحصي، ثم أواصل السير نحو الشمال، مرورًا بمنزل القابلة المرخصة (زينب)، ثم مدرسة أسماء الابتدائية للبنات، ومن هناك أصل لمدرسة النجاة الأهلية ..

مشوار طويل كان عليَّ قطعه كل يوم من أيام الدراسة في المرحلة الابتدائية؛ بسبب هذا البنطلون والقميص (ملبوس الأفندية)، وبسبب بعض مناهج الفقه والعقيدة وفن تجويد القرآن، وإمساك الدفاتر الحسابية، كمواد إضافية مقررة في مدرسة النجاة الأهلية، وعلى كافة الطلاب اجتياز اختباراتها ..

لم أدرس كباقي أبناء منطقة المجصّة في مدرسة طلحة الابتدائية، القريبة جدًّا من منزلنا، يوم كان مديرها الأستاذ (عبد العزيز المبيض)، ومن أشهر مدرسيها كل من الأساتذة عثمان الرشود، وسليمان المبيض، وحميد خضير، وعبد الملك الشبيبي، وحسن زبون، وعبد الرزاق المانع، وعبد الله الشريدة، وعبد الهادي المجيم.

عشتُ مرحلة الطفولة كاملة دون منغصات، فكنتُ في مرحلتها مدللًا؛ لأني الولد الوحيد بين البنات، لقد تأخر رحم أمي في إنبات الذكر .. استمتعتُ بأوقات مرحلة الطفولة، ولعبت كافة ألعابها المنتشرة في ذلك العصر؛ من لعب بالچقات (مصاقيل)، والچعاب (جمع كعب الخروف)، ودوامات (الخشبة المخروطية الشكل الصغيرة)، ودرايات (أطراف حافة البرميل)، ورنقات (عجلات السياكل)، وحاح وقمندر وساحة وميدان،

في رملة السكة التي كنا نصنعها في زاوية من زوايا السكة، وكنتُ ماهرًا في الطفر (القفز)، وكنتُ جريئًا في طفولتي لا أهاب المخاطرة والمجازفة، رغم تحذيرات والدتي لي من مسميات توارثوها وما أنزل الله بها من سلطان، مثل الطنطل وعبد السلة وحمارة القايلة وخضرا أم الليف، حذرتني كثيرًا من هذه الأسماء التي تعتدي على الأطفال، فيخطفونهم، وخصوصًا في أوقات الظهيرة بأيام القيظ (الصيف) ..

تدربتُ في منزلنا مع أخواتي بتشجيعٍ مني على القفز من درج السطح غير المحمي بجدار للحوش (لباحة المنزل)، بدأنا مشوار التحدي بيننا بالقفز من ارتفاع خمس درجات بدايةً حتى تمكنا من القفز من ارتفاع عشر درجات، وأنا الوحيد الذي تمكنت من القفز من سطح المنزل للحوش على بلاط الحوش (الباحة)، تمكنتُ من معرفة سر طريقة الهبوط الصحيحة، ولقد جرَّأت أطفال الحي على القفز من فوق أسوار المنازل، بدأنا القفز من سور مدرسة طلحة، ثم تدرجنا بالقفز من منازل السكة، وفي يوم من الأيام قفز أحد الأطفال فسقط على الأرض بالخطأ، فانكسر عظم ساقه، فوضع له ناصر حسن المبيض تجبيرة خشبية (نوع من أنواع الطب الشعبي السائد في تلك الفترة، والتي اشتهر فيه كل من مَثال المطيري، والحاج حمود الحمود المحيسن وحسن المبيض)، بدلًا من الجبس ..

ثابرتُ في الدراسة منذ نعومة أظفاري، رغم أن كلًّا من أبي وأمي كانا يعيشان في ظلام الأمية، فهما لا يقرآن ولا يكتبان، ولا يستطيعان فك الخط

(كتابة وقراءة الرسائل)، رغم أن والدي يحفظ كثيرًا من سور القرآن، ويحفظ أحاديث كثيرة، يستشهد بها دائمًا في عرض حديثه، رغم أنه لا يعرف درجة صحتها، ومنسوب ضعفها، يرقي المرضى والمقروص بالعقرب، شهدتُ عليه في أكثر من حادثة أمام عيني على رقيته للدغة العقرب وعضة الأفعى، أما والدتي فقد حرص جدي - رحمه الله - على إلحاقها في مدرسة الملاية (نعيّمة)، ولكنها لسوء الطالع لم تتمكن من إكمال المنهج المقرر عليها في مثل مدارس هذه الملايات؛ بسبب زواجها المبكر من أبي، فلذا كنتُ منذ صغري أعتمد في الدراسة على حضور انتباهي في حصة الدرس، وعلى نفسي بالمذاكرة المنزلية، لم أكن أعرف الدروس الخصوصية كغيري من أبناء الميسورين؛ لأن دخل العائلة لا يسمح لنا بمثل هذه التسهيلات التعليمية، التي يتمتع فيها بعض الطلاب، وخصوصًا كان والدي يكفيه مني النجاح بدرجة مقبول، وتجاوز المرحلة التي أنا فيها هذا العام، دون اهتمامه بالمراتب المتقدمة، فلذا تركتُ غيري يتنافس في سلم ترتيبها، دون الدخول في منافسةٍ مع بعض المتقدمين معنا، كأمثال بعض طلابنا في كليتي الطب والصيدلة.

أنهيتُ المرحلة الابتدائية والتحقتُ بمتوسطة مصعب بن الزبير في نفس المبنى، لمدرسة طلحة الابتدائية، رغم عدم رضى والدي عن هذا التصرف، واعتبرها جرأة مسبوقة لا مثيل لها في تصرفاتي، ولكنه أذعن أخيرًا لقراري بسكوته، وكأن شيئًا لم يكن ..

في مرحلة المتوسطة، تعودنا على نظام أوقات الدوامين، ثلاثة أيام نذهب للمدرسة في الصباح لغاية بعد صلاة الظهر، وثلاثة أيام أخرى نذهب الساعة الواحدة ظهرًا حتى فترة ما بعد صلاة العصر، ويوم الجمعة يوم عطلة المدارس الرسمي ..

في مرحلة دراسة المتوسطة، بدأت أتنفس شيئًا من الحرية، ما عدا الخروج الليلي كان ممنوعًا، أما المبيت خارج المنزل فكان من المحرمات التي لا جدال فيها؛ لثبوت أدلتها العقلية والنقلية؛ لذا كان عليَّ لزامًا الرجوع للمنزل بعد صلاة العشاء مباشرة دون تأخير، وإلا نلت العقاب الرادع لمثل هذا التهور، وقد حدث لأكثر من مرةٍ ..

في هذه الفترة القصيرة أسسنا فريقًا رياضيًّا لكرة القدم، أسميناه فريق النجوم، نسبة لمؤسسه نجم الدهلوس، ثم انتقلتُ للعب مع فريق (الزهيرية)، ثم عن طريق إغراءات عيال البابطين والفارس الذين كانوا يدرسون معي في الصف (الفصل)، انتقلتُ للعب مع فريق المتياهة (الزبير)، لعبنا مباريات كثيرة في مدينة الزبير وخارجها، وشاركنا في بطولة دوري الفرق، الذي كان يُنظمه نادي الزبير، وقد شغلتنا كرة القدم كثيرًا بحبها، وأخذت من أوقاتنا الكثير في الاجتماعات والتمرين والتخطيط على لوحة السبورة وعلى وجه الأرض، وكنتُ على خلاف مع أبي بخصوص هذه الكرة الملعونة، أو الشيطان المنفوخ كما يحلو لوالدي تسميتها، كان لا يظن منها خيرًا، ولا أية فائدة ومنفعة مرجوة، إنما هي مضيعة للوقت وملهاة للشباب، الذي يجب أن يُؤسس على مرضاة الله سبحانه وتعالى،

وناهيك على أنها هدرًا للمال، وتعطيلًا للطاقات، التي ينبغي أن تُصرف في مكان آخر، يدرُ نفعًا عليهم في الدنيا والآخرة ..

كان يُطالبني بالحضور للعمل معه في دكانه بسوق الجت "البرسيم"، الذي يبيع فيه خضروات وفواكه موسمية، تتغير واجهة العرض للدكان تبعًا لمنتجات الموسم، في كل موسم من المواسم لوالدي صنف من الأصناف التي يبيع فيه، يصحو قبل بزوغ الفجر، ثم يؤدي فرض الفجر مع الجماعة، وعندما يعود من المسجد يجد الحجية قد أعدت له ريوقه (فطوره)، المكون من طبقه المفضل، المسمى بـ المفروكة (سمن وخبز وحليب وسكر مطبوخ مع بعض في قِدرْ)، ثم تناول كوبًا من الحليب مخلوطًا مع الشاي الثقيل، فيذهب للسوق ولا يعود للمنزل إلا مع أذان الظهر، ليصلي مع جماعة المسجد، ثم يتناول وجبة الغذاء، وبعدها يستعد لطقوس قيلولته التي يُقاتل من أجلها، يذهب مرة أخرى بعد صلاة العصر لدكانه حتى أذان المغرب ليعود للمنزل، ينام مبكرًا مباشرة بعد صلاة العشاء، لا يعرف المجالس الليلية ولا الديوانيات، وينكر على جُلسائها، ويظنها في بعض الحالات الراجحة في ميزانه من نواقض سمات الرجولة، وخرمًا في أخلاق الرجال، لا يعرف الجلوس في المقاهي، ويمقتها، وكان يحذرني كثيرًا من التورط في الجلوس فيها (تعليمات عسكرية عليَّ تنفيذها)، يفزع لصلاته في الثلث الأخير من الليل لأداء فرض الشفع والوتر (لأنه يظنه فرضًا حسب الرأي الراجح في مذهب الإمام أحمد رحمة الله عليه)، لا زلتُ أذكر دعاءه المفضل، الذي كان دائمًا يتسرب إلى مسامعنا في جوف

الليـل، مخترقًـا اللُحـف والبطانيـات (اللّهم اسـتر علينـا في الـدارين، ولا تفضحنا أمام خلقك، وارزقنا جنتك بغير حساب ولا عقاب ولا مُساءلة)، كنتُ أستغرب منه مثل هذا السؤال لرب العالمين، لم أكن أستوعب طلب مسألته في صغري ..

والدي المسئول الوحيد عن إعاشة ستة أنفس بما فيهم نفسه، في المنزل الذي حصل عليه ورثًا عن أبيه عن جده، الذي اشتراه حين قدم لمدينة الزبير مهاجرًا مع مجموعة من رجال نجد، قام والدي بشراء نصيب إخوته وأخواته من تركة المنزل، تمسك والدي بشرائه، فدفع نقدًا للورثة كل ما ادخر من مال جمعه خلال هذه الأعوام.

***

ثانوية الزبير للبنين

أنهيت دراسة المتوسطة بتقدير متوسط، وأظنه نال القبول والاستحسان لدى الحجي (الوالد)، التحقتُ بثانوية الزبير، ويومها كان في مدينة الزبير ثانوية واحدة للبنين، وثانوية أخرى للبنات، تجمع كل منهما خريجي كافة طلاب مدراس المتوسطات الموجودة في مدينة الزبير، ما عدا طلاب بعض العائلات الزبيرية، الذين يدرسون في ثانويات البصرة والعشار، كإشارة بارزة على معالم تحضر مثل هذه العائلات وتمدنها، وإظهار جانب مقدرتهم المالية، ومن باب ظنهم بأن تلك المدارس، وهؤلاء المدرسين هناك في البصرة والعشار، أفضل من مدارس ومدرسي ثانوية الزبير.

تقع ثانوية الزبير للبنين(المبنى القديم) في أقصى الجهة الغربية لمدينة الزبير، مقابل مقبرة الحسن البصري من جهتها الجنوبية، ومجاورة لمصلى العيد من جهتها الغربية، قريبة جدًّا من منطقة المربد، تم نقلها لموقع جديد آخر مبني على الطراز الحديث؛ كي تستوعب عدد الطلاب المتزايد في كل عام، لمنطقة جديدة تقع قرب جمرك الزبير القديم، في الطريق المؤدي إلى منطقة آبار الدريهمية، والتي أشهرها البئر الذي حفره وشيد بناءه سعد الخليوي رحمة الله عليه، كان يومها تُعتبر هذه الآبار من المصادر الرئيسية لإمداد إمارة مشيّخة الزبير بالماء، عندما كان يُنقل الماء على ظهور الحمير بالقِرَب الكبيرة بسعر الآنة والآنتين (الآنة 4 فلوس قبل تغييرها في حكم الزعيم عبدالكريم قاسم).

عرفتُ في الثانوية (الإعدادية) أكثر أسماء شباب الزبير الملتحقين معنا من مناطق أخرى، من منطقة الرشيدية، منطقة الزهيرية، منطقة الكوت، منطقة الشمال، منطقة عتيّة، منطقة المراغة، والشيشية (التي غالبية سكانها من الحساوية)، ومنطقة محلة العرب (منطقة العُشش والصنادق المتاخمة لحدود الزبير من جهة الشمال الغربي والتي يسكنها عرب العشائر الرُحل، ومنطقة المربد (التي غالبية سكانها من الجالية الأرمنية، والذين أغلبهم يعملون في شركة النفط)، ومنطقة البايب (التي تقع قرب أنبوب النفط القادم من منطقة البرجسية المشهورة في آبار النفط)، ومن مناطق أخرى كثيرة يا دكتور سردار ..

ثانوية الزبير تُمثل جامعة مصغرة للمدينة، ولكنها غير مختلطة، من مدرسيها كل من الأساتذة عبد العزيز القناص وكاسب البدران ومحمد الهلال وخالد محمد خالد والركابي وعبد الله العلي وخالد البارودي ومحمد العجيلي، وكان مديرها الأستاذ مصطفى العيد..

في سنواتها الثلاث اشتد تقرير المصير، وزادت همة أوقات الدراسة، فقمتُ بتكثيف الدراسة فيها، وتنازل لي والدي عن أوقات حصة الحضور معه في الدكان في هذه السنوات؛ من أجل التفرغ للدراسة، أظنه وقتها بدأ يستشعر أهمية الشهادة العلمية، رغم أني في ذلك الوقت لم أحبذ تنازله عن الحضور، وكرهت إقدامه على مثل هذه الخطوة غير المتوقعة؛ لأني وجدتُ مصرف فورة طيش شبابي الضال في هذا السوق، من مغازلة الفتيات القادمات من منطقة محلة العرب للتسوق من سوق الخضرة، وعادة أهل

مدينة الزبير ينكرون دخول نسائهم في مثل هذه الأسواق، إلا المضطرة منهن، وهن قليلات جدًّا، أما مسئولية التسوق لمنازلهم من مثل هذه الأسواق، فجرت العادة المتوارثة عند أهل الزبير، أن تكون ملقاة على الرجال دون النساء، فهم من يقوم بها، ويُعتبر من العيب وقصور في المسئولية، أن تتسوق المرأة لهم من هذه الأسواق ..

أكثر مضايقة واجهتنا في مرحلة الثانوية مشكلات إدارة الاتحاد الوطني للطلاب، التي لا تنتهي على خير أبدًا، لم يفتأ أعضاؤه بمطاردتنا الفكرية والحزبية، ودعوتنا بين فترة وأخرى لميولهم السياسية، لم يكفوا ألسنتهم عن لهجة الهجوم اليومية علينا وعلى معتقداتنا النجدية، وصمونا بالرجعيين والمتخلفين، ومرة أخرى وصفونا بالجبناء المتخاذلين والانتهازيين، وأكثر ما كنا نكره منهم من تصرفات توزيعهم علينا استماراتهم الانتمائية، ويقصدون فيها تحديد هوية انتمائك الحزبي، لأي حزب تنتمي!!

كنا نمقت الخروج الإجباري معهم بمظاهراتٍ، كانوا يُسجلون أسماء المتخلفين عن مسيراتهم الشوارعية، ليُساءلوا في اليوم التالي عن سبب تخلفهم في المسيرة الطلابية، أو هروبهم منها في أثناء السير ..

لا أطيق مثل هذه المسيرات منذ يوم عاقبني والدي في سنة أولى ثانوي، خرجت في مسيرة مع طلاب ثانوية الزبير قبل انتقالها لمبناها الجديد قرب جمرك الزبير، فمرت هذه المسيرة بمركز شرطة الزبير، ثم سارت بمحاذاة المكتبة الأهلية والبريد المركزي، مرورًا بقهوة (الملا)، ثم واصلت سيرها، مرورًا بدكان خليل الشيخلي لتصليح الساعات، مقابل محل الغديان

صاحب البوريات (المواسير)، وكان في نيتهم السير لمدرسة طلحة، ولكني تمكنت من الهروب من هذه المسيرة عند منطقة شديدة الازدحام قرب قهوة (الحميّد)، فخرجتُ منها رغم ملاحقة وملاحظة بعض مشرفي أعضاء الاتحاد الوطني لجميع الطلاب الفارين، وتسجيل أسمائهم لمعاقبتهم لاحقًا.

في اليوم التالي لم تقم لجنة الاتحاد باستدعاء الطلاب (الرجعيين المتخاذلين) الفارين من مسيرة (القرن) حسب ما يصفها المسئولون في الاتحاد، فهم عادة ما يطلقون على كل مسيرة جديدة اسمًا جديدًا، من باب تميّز ذكريات مسيراتهم الميمونة ..

لكن الذي حدث أن والدي كان يترصد معاقبتي، فوجدته في انتظاري، فاستدعاني عند عودتي من المدرسة مباشرة، كان ينتظرني بعد صلاة الظهر والنوم يتلاعب في حركة أعصابه، **فقال:**

ألم أنهك سابقًا عن المشاركة في المسيرات مع الطلاب؟

إلى متى تستمر في السير في عنادك لما أراه مصلحة لك ولمستقبلك؟!

قلت له: والله ليس بإرادتنا، علينا لزامًا السير معهم حيث تنتهي المسيرة، على كل الطلاب دون استثناء من أحد منهم الخروج في هذه المظاهرة السلمية، والسير بين صفوفها مع بقية طلاب المدرسة، ولقد خرجتُ منها بقناعتي عند قهوة الحميد، وكنتُ أظن بأنهم سيستدعونني هذا اليوم من أجل التحقيق، لكن يا أبتي أسألك بالله كيف عرفت هذا،

هل من الجواسيس الجالسين في قهوة الملا من أجل مراقبتي ومراقبة الآخرين، من الناس الذين يبحثون عن السعادة في اختلاق الفتنة، من الناس الذين لا يعرفون في قلبهم الرحمة والشفقة.

- كِلْ تبن واطلع، وخليني أستريح، عيوني عافسها النوم عفاس.. (قال الحجي)..

عشتُ أجمل أيام المراهقة في مدينة الزبير، عشتُ كما عاشها غيري من الشباب في ذلك الوقت، فتمتعتُ بأنواع قصات شعرها ولبسها، وروعة أغانيها، وكانت لنا فيها ذكريات جميلة، لا يمكن نسيانها ..

رحلاتٌ ممتعة لمدينة الألعاب في المراقيل، وساعات رومانسية رائعة في جزيرة السندباد في المعقل، ومخيمات ربيعية بمنطقة بر چويبدة في ماكان يُسمى ساحتي باريس وروما.

***

جامعة البصرة

أنهيتُ الثانوية العامة "القسم العلمي"، وحصلت على معدل مقبول في كلية الهندسة في جامعة البصرة في منطقة (التنومة)، ويومها كان والدي مسرورًا وفخورًا بي في مجمتعه، وفي مرحلة الجامعة بدأت مشكلاتي تتفاقم مع أبي المحافظ على أصوله الدينية النجدية، اختلفتُ معه في مسائل كثيرة كباقي شباب الجامعة في عصري، كما تعرف يا دكتور سردار ..

أنا ابن سلسلة حلقات صراع طويلة بين الجيل القديم المحافظ على مراسم طقوسه وتقاليده، وتركة أوزار أصوله، مع الجيل الجديد، الذي يبحث عن التطوير والتجديد ومسايرة عصره؛ من علوم وتقنية وأكشنات اجتماعية، سلسلة صراعات يومية في كل شيء، أبت أن تجد صلحٍ فيما بينها، وتتنازل عن جزء من مساحة حقوقها، جملة متخمة حتى الإشباع من الخلافات التي لا تنتهي أبدًا في بعض البيوت، وتصادمٌ في مسار الثقافات دون الانتباه لتقاطع إشارات العقل القاتلة لصلة الثقافة ..

تصور يا دكتور سردار حتى في طريقة شرب الماء، هنالك من الطقوس التعبدية، عليك المجاملة فيها، والمحافظة على أصولها، وإلا سوف تكون من فئة الضالين المنحرفين عن جادة المسلمين، تصور حتى في طريقة نومك فوق سريرك عليك الالتزام بطقوس معينة، وإلا ..

تصور يا دكتور سردار، كان والدي ينكر وقوف الرجال أمام المرآة، **كان يقول:** إن المرآة خلقت للمرأة؛ لتتزين وتتعطر، ولم تُخلق للرجل، من المنقصة على الرجل أن يتزين أمام المرآة ..

ربما تسألني يا دكتور سردار عن سبب طردي من البيت (تشريدي) ..

لقد فاجأني والدي بدخوله لغرفتي المنزوية في مؤخرة السطح (سقف المنزل)، وشاهدني ممسكًا ببقية سيجارة، لم أتمكن من ابتلاعها بالجمرةِ، لم يكن يجهل بتدخيني للسجائر، فقد كان على علم مسبق به، فلقد شم في الغرفة رائحة الدخان، وشاهد فيها أعقاب السجائر في الطفاية (المنفضة) لأكثر من مرة، نهرني عدة مرات بضرورة الانصياع لتعليماته، وترك تدخين هذه السجائر المحرمة شرعًا، وأمطرني بوابلٍ من نصوص أدلة التحريم من الكتاب والسنة النبوية المطهرة، ثم توعدني كثيرًا بقطع المصروف اليومي عني؛ لأنه الممول الرئيسي الذي يساعدني على اقتنائه، وكم من مرة قطعه عني، فتدخلت والدتي الحنونة - حفظها الله - باستخدام أساليب طرق النساء الدبلوماسية المعتادة، فتمكنت من إعادة عقله الجاف إلى ليونة رحمة الأبوة مرة أخرى، بعد أن استنهضت روح نشاط شبابها المنزوي بين كثرة أنواع التكاليف الملقاة على عاتقها، فنشطت في استخدام بعض المساحيق الشعيبة الملونة في ختم وجهها، ورشت المساحات المهمة على جسدها ببعض العطور النسائية المنسية في ركن من أركان دولابها الخشبي، الذي تفوح منه رائحة تخزين العطارين ..

لكن والدي هددني لأكثر من مرة وتوعدني، وأقسم بأغلظ الأيمان لي بأنها ستكون الأخيرة، وإلا سوف يقوم بطردي من المنزل إن لم أترك التدخين، مشكلتي لم أكن أتصور بأنه سوف يبر بقسمه، وينفذ مثل هذا التهديد القاسي ..

في يوم من أيام الجامعة التي لا تُنسى ذكرياتها، كنتُ في دعوةٍ لحفل تخَرُّج زميلنا حكمت في كلية العلوم، أقيم في منزلهم الكائن في منطقة المعقل بالعشار، أقامه له والده، تكريمًا له على تخرجه بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف، حضر هذا الحفل لفيفٌ من الطلاب والطالبات المقربين لحكمت وبعض من أقربائه، كان والده صاحبُ منصبٍ وجاه كبير في إدارة محافظة البصرة، يُعتبر من القياديين المهمين الذين يُعدون على أصابع اليد الواحدة في المحافظة، ممن يسيرون دفة الحكم فيها.

في تلك الليلة بالغت كثيرًا في العودة للمنزل دون شعور، وخصوصًا كان من بين الحاضرين ممن يعشق قلبي، وعند عودتي للمنزل، وجدتُ والدي في انتظاري في حوش (باحة) المنزل جالسٌ فوق القريولة (السرير)؛ ليُحقق في سبب تأخري لمثل هذه الساعة من الليل، فناداني بصوتٍ عال، وطلب مني الاقتراب منه .. وأعرف سر مناداته لي وطلبه لي بالاقتراب منه .. يُريد أن يشم رائحة السجائر في فمي وفي ملابسي، لكنه اكتشف أكثر من ذلك، شم رائحة السجائر المتخمّرة ..

فجن جنونه، واهتزت أوتار أعصاب عقله، وطاش غضبه في كل اتجاه، طاش كما تطيش الكولا في قارورة مرجوجة أثناء فتحها، كان الوقتُ قُبيل

طلوع الفجر بساعةٍ، فضربني ضربًا شديدًا، كان يُريد أن يُطفئ هذه الثورة التي اجتاحته بقوة، استخدم الأرجل والأيدي بضربي، هوت لكماته على رأسي وجسمي، فما كان مني غير حماية وجهي بتغطيته بكلتي يدي، ثم نقلهما بطريقة عشوائية لا إرادية لتغطية مواضع بطني وصدري؛ لتلافي الضربات الموجعة، فغدتْ يداي كبستمين في قلب ماكنة سيارة، تتأرجحان بين الصعود والهبوط!!

ثم دفعني بشدة نحو باب الشارع، بعد أن تلقيت منه كافة أنواع اللكمات فصدم رأسي الباب من قوة دفعته، ففتحت شقًّا في رأسي، فتدفق الدم منه، لا يزال أثره شاهدًا على مأساة ذلك اليوم اللعين، تركني أنزف دمي خلف الباب، صرختُ عليه بأني لم أعد طفلًا .. سأسهرُ كباقي الشباب .. لكن صوتي كان ضعيفًا فلم يسمعه، نعم طردني في ليلتها يا سردار وقال:

لا مُقام لعاصٍ في بيتنا، اذهب إلى زمرة شياطينك، وأكمل معهم بقية سهرتك وليلك..

طردني من البيت دون رحمة، رغم معرفتي بأن التقصير جاء من طرفي، وحاصرتني شدة سياط قسوته الأبوية إلى أي مكان ألجأ إليه، فطلب من أعمامي وخالاتي وعماتي ومن كل أقاربي عدم إيوائي ومساعدتي، وهددهم بالقطيعة إن هم قدموا مساعدات لي، لقد ألب عليَّ كل المعارف والأهل، يظن أن هدفه كان نبيلًا؛ تأديبًا لي على فعلتي الشنيعة بنظره ونظر مجتمعه (لأنها مخرجة من الملة)، هدفه أن يصنع من شخصيتي كيان رجل سوي

عاقل، لكنه أخطأ أسلوب الأبوة مثلما قلبه قبله قد أخطأ الطريق لمعالم الرحمة والمغفرة، لم يفقه معرفة معالم التربية الصحيحة، كان عنوان التربية في نظر بعضهم الضرب والسياط والطرد والتشريد ..

يا دكتور سردار .. انظر للمسألتين المماثلتين أمامك يا سيادة القاضي المحترم .. انظر لأبيك الحنون ذي الرحمة والمغفرة، كيف تعامل معك ومع مشكلتك، بالرغم من أنك مجرمٌ .. عفوًا لا أقصد إيذاءك بمثل هذا الكلام، ولكن كما تعلم هي الحقيقة في نظر القانون الذي لا يرحم، انظر كيف قدم لك وسائل سُبل المساعدة، وكل أنواع التسهيلات المتاحة، قدم لك مساعدة بلا حدود وبلا شروط، انظر لأبي كيف طردني من البيت (شردني)، هل تعي معاني البيت في النفس المطمئنة، ليس السكن كما يراه بعض الناس، ليس المأكل كما يفسره من لم يفقهه، ليس المشرب كما يظنه الفقراء المعوزون من الناس .. إنه كل العواطف الإنسانية مجتمعة، إنه الشعور بوجود الآخرين، إنه حاضر المستقبل .. إنه .. إنه .. (فحاصره بركان دموعه المتدفق بغزارة) ..

فسكت برهة ليجمع قواه المتناثرة وأنفاسه المبعثرة في باحة التكية .. لقد بر بقسمه ونفذ تهديده المشؤوم، وها أنا معك في هذا الملجأ التعيس يا دكتور سردار، وها أنا ذا أعيشُ معك يا دكتور سردار، ملجأ المشردين والأيتام والمساكين، ملجأ من لا أهل ولا عزوة له، ملجأ من لا وطن نفسي يُؤيه، كما تراني أمامك قد انقطعتُ عن الكلية منذ شهرين، كان بيني وبين التخرج هذه السنة فقط ..

- لماذا لم تذهب لعمك، لخالك، لكبير العائلة؟

- لقد حاولوا جميعًا معه في التأثير عليه؛ لرفع ورقة القطيعة المفروضة على ابنه، لكنها لم تكن كهشاشة ورقة قطيعة كُفار قُريش قاتلهم الله لتأكلها الأرضة (دودة الأرض)، لقد حاولوا منفردين ومجتمعين معه؛ علهم ينجحون في مساعيهم الدبلوماسية للم الشمل، لكن والدي أصر على رأيه في ممارسة هذا الأسلوب الخاطئ فيَ التربية، فرفض عودة المياه لمجاريها، ورفض رفضًا قاطعًا تقبيل الأيدي والرأس من أجل مشروع المصالحة، وأصر على تنفيذ هذا النوع القاسي من التربية المجنونة، **وقال لهم:**

لقد أعطيته فرصًا بما فيه الكفاية لتدارك كثرة أخطائه، وآخرها عودته للمنزل في آخر الليل على ما هو عليه حالة، والعياذ بالله من أعماله الصبيانية.

❊❊❊

سوق الحزم

سردار الشاب الوسيم الذي في منتصف عقده الثالث، الشاب الأسمر النحيف الذي تُزينه شامة صغيرة تركن فوق هضبة خده الأيسر المتورد بحيوية الشباب ونشاطه، الذي لا يُطيق رؤية شنبه في صفحة وجهه، فيتعمد حلاقته، وعدم ترك أثر لمنابته ..

سردار ذو الشعر الأسود الفاحم الدهني الطويل، الملامس لسقف حاجبيه، يتعمد ترك بعض خصلاته تضربُ مقلتي عينيه الكبيرتين السوداوين المزروعتين في واجهة رأسه الكروي الشكل، صاحب الأنف النابت من مرتفع المنطقة التي بين العينين، ليرتفع شاهقًا، مبتعدًا عن كتلة وجهه، وكأنه سارية علم يرفرف خفاقًا، ثم يهبط بهدوء فوق فمه المستدير الشكل ..

سردار من أول يوم وطأت قدمه أرض مدينة الزبير، عبر بوابة ميناء أم قصر، على ظهر باخرةٍ قادمة من بومباي بعد أن توقفت في أكثر من ميناء من موانئ منطقة الخليج العربي لإفراغ بعض البضائع من حمولتها، والتي كانت محملةً بكمية كبيرةٍ من الأخشاب، وهو يعيش على هاجس العودة لأحلام عالمه الخاص، وموطن أمنياته الجياشة، ذلك الموطن الذي هاجر منه ..

يعيش على أمل العودة لأرضه، ورؤية عشيقته (ماريا)، التي من أجلها فعل جريمته النكراء في عُرف الناس والقانون ..

لا تكاد صور ذكريات خيالها تدعه يخلو بلحظةٍ من اللحظات، دون أن يمر شريط مسلسل ذكراها، وساعات أحاديثها، التي لا تُمل أبدًا بالنسبة له، حاول كثيرًا نسيان جريمته في بقر بطن زوجها (كومار)، لكنه لم يوفق مطلقًا في نسيان مثل هذه الأحداث المؤلمة، إنها تأكل ضميره في وخزاتها وتحتل مساحة كبيرة في محكمة إنسانيته، إنها كل يوم تذبحه، وتؤكد له سوءة جرمه ..

في أول يوم وصل فيه للزبير تعرَّف على تكوينها الجغرافي والسكاني والتجاري، وتعرّف على أسماء أحيائها، وعرف معالم أسواقها وطبيعة أخلاق أهلها، إنها نفس الصورة التي حدثه والده عنها، بالضبط نفس الخارطة التي وصفها له في بومباي، فتفاصيل أسواقها كما كانت في عهد والده لم تتغير كثيرًا، لم يطرأ عليها ملامح التغيير منذ أيام الاحتلال الإنكليزي قبل سقوط الملكية في العراق، كل ما فيها هادئ وأهلها طيبون جدًّا، ومتعاونون فيما بينهم على الخير لأبعد الحدود، لم يحتج مزيدًا من الوقت كي ينصهر ويتأقلم في حياتها الاجتماعية المصبوغة ببعض ألوان بقايا البداوة المتناثرة هنا وهناك بين الأسواق والأحياء ..

عَرف جيدًا منافذ ومخارج جميع طرق الأسواق، وتعرَّف على التفاصيل الدقيقة لأكبر سوق فيها، سوق الحزم الذي يبدأ من قهوة (عجيمي العارضي) المقابلة لدكان المزروع لبيع المواد الغذائية قرب سوق الحمام والدجاج، وينتهي عند مسجد الدروازة غربًا، ثم يتجه شمالًا حتى ينتهي

بسوق المسامير، وأشهرها دكاكين (البشر، المهنا، والنافع)، أما من جهة الجنوب، فتحده تفرعات دكاكين سوق الجت (البرسيم) الكثيرة ..

يتفرع من هذا السوق الكبيرة عدة أسواق صغيرة، كسوق التنكجية (الحدادين)، الذي ينفذ لمنطقة الكوت بحرية، وسوق الأقمشة المسقوف، الذي يتفرع منه سوق مسقوف آخر صغير، حيث هناك تقبع المغازة المشهورة لصاحبها (أحمد الحمودي)، المشهور ببيع المستوردات الكويتية، ومن ثم سوق العطارين والمواد الغذائية المسقوف من أوله لآخره، وأشهر دكاكينه تمتلكها عائلة العثمان (البغادة)، ويتفرع من سوق الحزم شارع السويلم الذي يُعتبر الواجهة التجارية لمدينة الزبير وشارع الإبراهيم المشهور في دكاكينه الصغيرة، ويتفرع من سوق الحزم سوق البشوت الجديد المسقوف وسوق الحراج، وهناك مجموعة من القيصريات الصغيرة المنتشرة في سوق الحزم، مثل قيصرية دكاكين البلدية، وأشهر الدكاكين فيها دكاني الشماس والعليان، وبالقرب من قهوة (عجيمي) يتفرع سوق الخياطين القريب جدًّا من مسجد الرواف، الذي يؤمه الشيخ إبراهيم المبيض ..

عرف سردار أسماء كل المقاهي في المدينة، والتي أشهرها مقاهي (الملا والحشاش، الصانع، الشلهوب، أبو طامي، العيم، البريه، أبو عزوز، الجيعان، شويكر، بلاسم، قاطع ...)، وعرف أكثر أسماء أصحاب الدكاكين في هذه الأسواق، وعرف الطريق إلى سبيل الماء كذلك ..

***

سبيل الماء

سكان أهل مدينة الزبير لم يعرفوا الماء الصالح للشرب عبر الحنفيات الداخلة للمنازل قبل عام 1930م، لم يعرفوه قبل إنشاء خزان الماء الكبير (تانكي الماء) في منطقة البراحة، الذي كان يقوم بتغذية شبكة مواسير المياه المنتشرة في مناطق المدينة، وقبل هذا التأريخ كان الماء يأتيهم من الآبار المحيطة بالمدينة، وأشهر هذه الآبار آبار (الدريهمية)، وهي مناطق منخفضة، تتجمع فيها مياه الأمطار، كانوا ينقلون منها الماء لمنازلهم فوق ظهور الدواب (الحمير) بقيمة الآنة والآنتين (الآنة أربعة فلوس) ثمنًا لجربة (قُربة) الماء، ثم تطورت وسيلة نقل الماء بالعرباين التي تجرها الخيول والحمير (العرباين جمع عربانة، وهي عربة مصنوعة محليًّا من الخشب والحديد) ..

قام أحد المحسنين الأثرياء في ذلك الوقت، المسمى الحاج عثمان الخليوي (الأول) ببناء سبيل وقفي لماء الشرب، بداية نقل الماء إليه بالقُرب من آبار الدريهمية إلى حوضه الواسع، زرع هذا السبيل في قلب سوق الحزم؛ لأنه أكثر حركة في المدينة لينتفع منه كافة الناس، ثم قام بشراء مجموعة من الدكاكين الملاصقة لجهته الجنوبية؛ لتكون ريعًا ودعمًا لنفقات ومصاريف هذا المشروع الوقفي، وبعد دخول شبكة الماء لمدينة الزبير، تم تزويده بطرمبة (حنفية)، يروي منها المحتاج، ومع مرور الأيام اندثرت بعض معالمه، وفقد أهميته، واختفت فضائله عند الناس؛ نظرًا لأن الماء

أصبح يصل لكل المنازل في المدينة عبر الشبكة، فضاعت أوراق الطابو (صكك الملكية) بين أبناء الورثة الكثيرين..

كان أهل محلتي العرب والبايب لا يصلهما ماء الشرب، عبر مشروع شبكة توزيع الماء كباقي بيوت الزبير؛ لأنهما من الأحياء الهامشية التي نمت خارج إطار هذا المشروع، ولم يكونا ضمن مخطط توزيع الشبكة وقت ذاك؛ لذا كان عليهما التزود بالماء من حنفيات خزان الماء الرئيسي (تانكي الماء) في منطقة البراحة أو من حنفية سبيل الماء في سوق الحزم، أو القيام بشرائه من أسواقهما المحلية ..

فكانت النساء والرجال يتدافعون كل يوم عند حنفية ماء السبيل اليتيمة في السوق، ويُشكلون منطقة زحمة واضحة للعيان في عرف النمو السكاني..

في يوم من الأيام بينما كان سردار يتسكع بين الناس بحثًا عن من يُريد صبغ حذائه، شاهد فتاة تحمل جالونًا بلاستيكيًّا فارغًا تُحاول أن تملأه بالماء، فيدفعها تزاحم الناس بعيدًا عن الحنفية فتصرخ بهم، وكلما حاولت مرة أخرى فقدت توازنها في الوصول للحنفية، فأخذ سردار منها الجالون فملأه لها بالماء، فبالغت له في شكره على مساعدتها، ثم ذهبت في سبيلها باتجاه موقف عرباين (محلة العرب) المقابل لقهوة (هلال)، تُريدُ أهلها، بعد أن قامت بتسوق ما يحتاجون لذلك اليوم، فالناس عادة يتسوقون بشكل يومي، ولا يعرفون أكل المبردات والثلاجات والمجمدات، معظم أكلهم طازج لنفس اليوم، وكأنهم يطبقون المثل الذي يقول:

كل ما في الجيب يأتيك ما في الغيب ..

ولج سردار إلى مقهى قريبة من السبيل، مناديًا بأعلى صوته (صباغ قنادر)!!

في اليوم الثاني تكررت معه نفس الحادثة ونفس الحكاية، فشكرته وأطرت كثيرًا على مساعدته لها، وسألته بجرأةٍ عن اسمه؟

- سردار ..

- وأنتِ ما اسمكِ ؟

- خاتون .. (قالت وهي تبتسم)، ثم شكرته ومضت في حال سبيلها ..

في اليوم الثالث جلس عند سبيل الماء ينتظر شروق شمسها بشوق ولهفة، ولكنها لم تأتِ هذه المرة كالعادة، وفي اليوم الرابع والعاشر لم تأتِ كذلك، فيئس من مجيئها، فظن أن أهلها عرفوا بأمر قصتها معه، ربما هنالك من رآها تُكلمه وتبتسم له فحبسوها في دارها وغلَّقوا عليها الأبواب عقابًا لها لأنها كلمت رجلًا غريبًا، في ظنه هكذا، هم العرب لا يسمحون للنساء بمخالطة الرجال، وإن حدث مثل هذا، فإنه في الغالب يحدث في متاهات أزقة السرية بين ظلال الهمس، وبين أشجار غابات الظلام، فارتعد قلبه لذكرى مأساة حبه الأول، وتذكر وصية والده له ..

شغل عقله غيابها كثيرًا، فقرر الذهاب لمنطقة محلة العرب، فذهب لموقف العرباين التي تجرها الخيول، وتقودك مباشرة لسوق (سُوادي)، الذي يُعتبر أشهر مكان في هذه المنطقة؛ لعله يجد لها بصيصًا من النور، أو على أقل تقدير يتعرف على هذه المنطقة المجهولة بالنسبة له، والتي لم

يذكرها له والده؛ لأن نشأتها كانت متأخرة، أي بعد رحيل الإنكليز من قاعدة الشعيبة ..

تجول في ذلك اليوم وهو يحمل صندوق أصباغه، وجلس في مقهى من مقاهي سوق سُوادي لساعات طويلة؛ علها تمر بجانب المقهى، عله يُشاهد أثرًا لها بين النسوة المارة في هذا السوق، لكن انتظاره ذهب سدى، فعاد أدراجه بعد أذان العصر مباشرة لسوق الحزم بالعربانة ..

سردار، جاء لمدينة الزبير هندوسي المنشأ والمعتقد والعبادة، يعبد البقر ولا يأكل لحمه، كثيرًا ما كان يسأل عن نوع اللحم الذي يُقدم في التكية حفاظًا على معتقده الوثني، وبفضل الله، ثم بفضل مجاورته لجامع الزبير الكبير، وبفضل اهتمام ورعاية بعض أهالي المدينة له، ومع شدة حفاوتهم به، دخل قلبه الإسلام والإيمان من أوسع أبوابه، دخل ينهل من مذهب فقه الحنابلة تقليدًا وفقهًا، فأول عمل قام به، غيَّر اسمه من سردار إلى أحمد، ثم غير مهنته من صباغ أحذية إلى بائع سمبوسة، والدته التي علمته لف السمبوسة منذ أن كان طفلًا صغيرًا، كانت تتقاول مع بعض محلات بيع السمبوسة في منطقتهم، فوجدتها تجارة نافعة لدعم بعض متطلبات المصاريف النثرية في المنزل ..

علم أهل مدينة الزبير بدخول سردار الإسلام، ففرحوا كثيرًا؛ خصوصًا أن شخصيته كانت محببة لهم، فتسابقوا لمد يد العون والمساعدة له، فراجت بضاعته، وتوسع نشاطه، ورزقه الله من حيث لا يحتسب.

***

سوق الجت (الخُضَّرة)

آمن سردار برسالة محمد - عليه أفضل الصلاة والتسليم - فتعاطف معه أهل الزبير، فشاع صيت ذلك الهندوسي الوثني الذي كان يعبد البقر، دخل الإسلام وبدأ يأكل مع المسلمين من لحم ربه سابقاً، كنتُ أتمنى معرفة شعوره، وهو يأكل مثل هذا اللحم أول مرة في حياته، كيف استطعمه وكيف مضغه، ولكنها لغة الإيمان عندما تُغرد في شجرة العقول.

اقترح عليه (فراج الجويسر) الكائن دكانه في سوق الجت أن يقتطع جزءًا بسيطًا من دكانه المجاور لدكان (المجبل) من جهة الشرق ليفترش ركنًا صغيرًا مطلًّا على النافذ المؤدي لدكان أبي نافع (بائع الباجلاء) وسوق السمك القديم، اقترح عليه أن يبيع سمبوسة عند هذا الركن الشمالي من قهوة الشلهوب، فاشتهر محله بنوع سمبوسته اللذيذة.

سوق الجت (الخضرة) ينبت من أرض منطقة (عتيّة) شرقًا، من الشارع القادم من خاصرة منطقة الزهيرية الذي يمر بالقرب من مسجد الحنيف، ثم يرتقي بهضبته غربًا حتى ينتهي بجامع الزبير الواجهة الشرقية لمنطقة الكوت، أو ما يُسمى بالحزام الشرقي لمنطقة الكوت.

يعتبر هذا السوق ثاني أكبر سوق تجاري في مدينة الزبير بعد سوق الحزم المشهور، يبدأ نشاطه قبل تباشير الصباح بأصوات أصحاب الدكاكين، ثم يزدحم تدريجيًّا بنشاطه، فيرتقي إلى ذروة نشاطه مع وقت حلول الضحى،

فتختنق أزقته الضيقة وممراته المتفرعة، بالمتسوقين الوافدين من كل المناطق، والبائعين المتخاطفين بين الدكاكين، كأنهم سربٌ من طيور السنونو في موسم ربيع ممطر.

يُعتبر سوق الجت (الخُضّرة) المقر الرئيسي لبيع كافة أنواع الخضار والفواكه والتمور واللحوم وعلف الحيوانات، يتفرع من هذا السوق الرئيسي عدة أسواق صغيرة، أشهرها سوق المقصب، سوق المواد الغذائية (الطعام)، سوق الأعمال الخوصية المصنوعة من سعف النخيل، وتنانير الخبز المصنوعة من الطين (جمع تنور)، ودكان الوهيبي المميّز في بيع قوالب الثلج وشربت (عصير) الكاسترد، ثم سوق بائعي الحلاوة والأجبان والروب، ثم دكاكين بائعي الركي والبطيخ بأنواعه وحسب مواسمه، كما أن السوق لا يخلو من البائعين المتجولين من سوق إلى سوق بأصواتهم المتداخلة مع بعضها البعض، كأمثال بائع الكبة (الأسمر) وبائع الطاطلي (شاكر وإخوانه)، وبائعي اللوزينة وشعر البنات وبائع الشلغم والشونذر وبائع اللبلبي وبائع الفلافل وبائع الشربت بأنواعه وبائع الدوندرمة (الآيس كريم) بعرباتهم الخشبية ذات الثلاث عجلات.

تنتعش أسواق الزبير كثيرًا بصورة عامة، وسوق الخضرة بصورة خاصة من بعد ظهر يوم الجمعة من كل أسبوع؛ بسبب عودة الكويتيين والزبيريين الذين يعملون في الكويت، فينشط السوق نشاطًا غير طبيعي، فيرفع من عمل طاقته الإنتاجية إلى أضعاف الأيام العادية.

من أبرز المتسوقين في عطلة نهاية الأسبوع هم الذين يكدون الخط، الذين يعملون في تجارة الخط (بين الكويت والزبير)، فهؤلاء امتهنوا عمل نقل الركاب بين الزبير والكويت، وتاجروا في بيع السلع والبضائع بين هاتين المنطقتين، فهم يجلبون معهم من دولة الكويت، جميع الأجهزة الكهربائية والعطور والملابس والسجائر بأنواعها وبعض قطع الغيار للسيارات، والتي عادة ما تكون توصية مسبقة من قبل المشتري في الغالب مدفوعة الثمن، ثم في عودتهم لدولة الكويت يُتاجرون في جميع أنواع اللحوم وأنواع السمك ومنتجات التمور، وجميع أنواع الخضروات، وجميع المنتجات الغذائية، وخصوصًا الحبوب منها.

ذات مساء – وبينما كان سردار محشورًا في ركنه الضيق ومنشغلًا في تلبية طلبات بعض زبائنه المزدحمين حوله في زاويته – جاءت فتاة تلبس عباءة على طرف هامتها، كاشفة وجهها الحنطي، يطل من تحت عباءتها فريق هائج من خصلات شعرها المصبوغ بالحناء، عمرها دون العشرين ربيعًا ..

وقفت أمامه وقفة عسكرية، نابزة صدرها بشدة، تُلوح بمقدمة خصلات شعرها ذات اليمين وذات الشمال والبؤبؤان مغروزان في مركز مقلتيها كأنهما زورقان في وسط مياه الشط الأخضر ..

قالت بصوت مسموع في وسط المزدحمين حوله:

يلَّا .. ليش عطلتني .. انطيني (أعطني) بمية فلس سمبوسة ..

فرفع سردار رأسه ليأخذ المائة فلسًا منها، فتفاجأ بخاتون ..

- من؟! خاتون، شلونك؟

- من؟! سردار!!

- لا أنا ألهين مسلم، اسمي أهمد، ليتني أسمع أهمد من صوتك الجميل يا خاتون ..

- زين سويت وِلَكْ أحمد، هَسه اسمك لايق على شكلك الحلو هوايا (كثير) ..

طلب منها أن يراها في وقت آخر، فوافقت على طلبه، بعد أن قدمت له أطباقًا من منوعات التمنع والرفض والأعذار..

ثم قالت له: وين تريد تشوفني؟ بيا (في أي) مكان تريد؟

فبادرها دون تأنٍ ودون تفكير: في التكية ..

- هَسأ وِلَكْ ما لقيت غير هاي المزبلة مچان (مكان) نلتقي بيه؟!

- في الصباح تكون التكية زحمة فيها ناس كثير من الفقراء والزوار ومن المحسنين.

***

خاتون في التكية

التكية في الصباح تعج بالفقراء والمساكين الذين يأتون من خارجها للارتزاق، مما يجود فيه أهل الكرم والخير، يقصدها المحتاجون من كل مكان، في باحة هذا المبنى تسيل الصدقات والزكوات والتبرعات والنذور، فتصب سيولتها في أيدي مستحقيها من المعدمين المحرومين من ترف العيش .. إنهم خير من يستحق مثل هذه المعونة والمساعدة، فيهم المريض والمنقطع فيه السبيل والمعتوه والمفقود، والذي ليس له من يكفله، تجد بعضهم يفترش كرتونًا على وجه الأرض عند الجامع الكبير، أو عند مدخل التكية الخارجي، تأتيها كثير من النساء ليتصدقن على فقرائها؛ فالنساء أقرب للصدقة من الرجال، فقلوبهن أرق وأرحم من قلوب الرجال في فعل الخيرات، وعقولهن أقرب للشرك والبدع من الرجال؛ لذلك فإن الشيطانَ سريع بجرهن لوساوس دهاليزه الكثيرة ..

دخلت خاتون التكية مع الداخلين والداخلات لحرم التسول وباحة التشرد، مسرعة في خطاها؛ كي لا يراها أحدٌ من معارفها، تبحث عن سردار في طابور هذه الغرف المتراصة فيما بينها بشدة، لم ترَ له أثرًا في مهجعه في الغرفة رقم 3، فسألت شابًّا معتكفًا في صومعة جريدته، لا يشعر بمن حوله من دبيب البشر، عن سردار ..

فرفع رأسه من معتكفه ناظرًا إليها ببرود، تغشاه الدهشة والاستغراب، ثم أعاد نظره بهدوء إلى داخل صومعته، دون أن يرد عليها بكلمة واحدة، لم

تفهم خاتون من حركته المجنونة هذه شيئًا، غير أنها ظنته مخبولا (مجنونًا)، أو ربما تمزقت طبلة أُذنه، فلا يستطيع سماع سؤالها، أو أنه أخرسٌ جُز لسانه من منبته، فلا يستطيع الكلام ولا يفهم لغة الإشارة، فقالت في نفسها، الحمد لله على الصحة والعافية (آني شلون الله بلاني بهيچ أوادم)، استغربتْ كثيرًا من الدكتور سردار، كيف يتمكن من العيش مع هؤلاء البشر، وناهيك عن كيفية التعامل معهم، كيف يعيش في مثل هذه المصحة الاجتماعية، فسكانها ليسوا فقراء فقط، بل أغلبهم يُعانون من عاهات اجتماعية مستديمة، لا يمكن علاجها وتطبيبها، فالسكن معهم نوعٌ من أنواع الجنون المؤجل حدوثه قريبًا، خصوصًا ذلك السكران الجالس عند مدخل الباب، الذي راودها عن نفسها بوقاحةٍ دون حياء، تغزل فيها دون رادعٍ ..

وفي ذروة لومها لسردار على توريطها في مثل هذا المكان السيء سمعت صوته يُناديها:

هلا خاتون، حياك الله في فندق التكية، خمس نجوم إلّا ربع، إقامة مجانية، نم ليلةً تكسب ليلتين مجانيتين، الأفضلية لذوي العاهات المستديمة من إفرازات عُقد المجتمع المتحضر، إنها التكية يا خاتون هانم، إنه الحرم الآمن من كل المخاوف، توقعي غير المتوقع في حرمها ..

أستغرب منك يا دكتور سردار؛ كيف تتحمل هيچ زِلِمْ (مثل هذه الرجال)، خصوصًا ذلك السكران الجالس عند مدخل الباب، وهذا الأطرش المعتوه المعتكف بين سطور جريدته (قالت) ..

فضحك سردار من وصفها لبعض رموز التكية، **وقال:**

قريبًا سنكون في بيت مستقل إن شاء الله، أنا وسالم، أو أنا وأنتِ يا خاتون ..

- من سالم هذا يا سردار؟

- سالم أخي وحبيبي وصديقي وأهلي ..

- من يكون؟

- ابن هذه المدينة الفاضلة أبًا عن جد، من أبناء نجد ..

- ماذا يفعل مثل هذا النجدي في التكية؟

- قصة طويلة سأحكيها لك قريبًا إن شاء الله ..

استفسرت عنه وعن أهله، وسألته عن سبب مجيئه إلى التكية، فأخبرها بالتفصيل قصة حياته، فعطفت عليه وأحبته كثيرًا، وسألها عن اسمها الكامل، وعن تفاصيل شجرة عائلتها، وأين تُقيم، وأخبرها بقصة ذهابه لمنطقة محلة العرب، وجلوسه لعدة ساعات في مقهى بوسط سوق (سُوادي) في قلب محلة العرب، فضحكت كثيرًا على تصرفه، وعرفت مقدار حبه لها، فتواعدا على اللقاء في الأيام المقبلة ..

وتكررت لقاءاتهما ووثق قلبيهما صك هذا الحب العظيم.

***

زواج سردار من خاتون

تمكن سردار من إقناع سالم في العودة لمواصلة الدراسة في الجامعة، طالما بقيت له هذه السنة الأخيرة .. وعده بدعمه ماديًّا بدلًا من عمله ككاتب حسابات ذمم في بعض الدكاكين؛ لأنه تعلم نظام إمساك الدفاتر من مدرسة النجاة الأهلية، فقد كانت من ضمن مقرراتهم الدراسية ..

سردار أقنع سالمًا بأن يذهب معه لصديقه حكمت؛ كي يكلم والده بخصوص إعادته للجامعة، وخصوصًا أن والده ذو منصب وجاه وصاحب سلطة قوية لها تأثيرها على إدارة الجامعة، بخصوص إعادته دون النظر لفترة هذا الانقطاع عن الجامعة ..

فبفضل نفوذ وسلطة والد صديقه العزيز حكمت، تمكن سالم من جديد من الجلوس مرة أخرى على كرسيه الأكاديمي في كلية الهندسة، في جامعة البصرة الواقعة في منطقة التنومة عبر شط العرب، يومها فرح سردار كثيرًا وشعر وقتها كأنه قد حقق نجاحًا كبيرًا، كأن هذا الانتصار كان له، وكأنها عودته للجامعة ..

ذهب سردار معه عدة مرات للجامعة، بعد أن اجتازا نهر شط العرب بالطبقة (العبارة)، عرَّف سالم سردار على جميع زملائه وزميلاته في الجامعة بصفته دكتورًا، وقال لهم بلهجة الفخر والحماس:

هذا أخي دكتور سردار من زوجة أبي الثانية الهندية (سأحكي لكم اليوم سرًّا من أسراري الخاصة، لم أكن قد أطلعتكم عليه سابقًا) .. كان والدي يعمل في تجارة شحن السفن بين موانئ الهند وموانئ منطقة الخليج العربي، في كثير من الأحيان يمكث شهورًا طويلة في الهند بانتظار رحلة جديدة في اتجاه الخليج، وكان جسد والدي لا يتحمل تخزين المياه الفائضة عن الحاجة، ولا يحب إتيان منكرات الحرام مخافة من عقاب الله؛ لذا اضطر للزواج من هندية، وكان هذا الأسمر الجميل الماثل أمام حضرتكم نتيجة شغب مراهقة أبي هناك، فضحك يومها سردار كثيرًا على ممازحته له بمثل هذه الصورة الشقية الشيقة ..

فعلق أحد زملائه من أهل بغداد عليه، **فقال:**

سالم، صدقني ياب، بيه هوايا (كثير) شَبه منك، سبحان الخالق، ياب أبوك دال دربونة (طريق) سيوله زين، بسم الله ما شاء الله عليه، خوب ذكرت الله عليه، خافن بيوم من الأيام يصير بيه شي مو زين وتقولن ماجد طقه عين غاتي، خافن بيوم تجف أمطاره، ويطق أبوك تصحر فتحتاجون إلى صلاة استسقاء أو قراية كلاص ماي (ماء)، فضحك الجميع على ممالحة الحديث من هذا الزميل البغدادي ..

في أثناء طريق عودتهما من الجامعة فاتح سردار سالمًا بموضوع رغبته في الزواج من خاتون، وطلب رأيه ومشورته بالموضوع؛ نظرًا لمعرفته بأعراف وتقاليد العرب في مثل هذه الأمور ..

فضحك سالم، وقال له: هل أنت جاد أم تمزح معي؟

- جادٌ يا سالم جاد ..

- يا دكتور سردار ..

من أين ستأتي بالمال لتدفعه مهرًا للزواج بها، أو أنك تظن ستأخذها بالمجان على ذمة وثيقة (حبني وأحبك) كما في الأفلام الهندية والمصرية، هل تظن هي ترغب في السكن معنا في هذه التكية؟ ولنفترض أنها وافقت على السكن معنا في غرفة من هذه الغُرف، فهل تظن بأن أهلها سوف يوافقون على رأيها للسكن والعيش في مثل هذه الظروف التعيسة؟

ثم قل لي بالله عليك يا دكتور، أين ذهب حبك لماريا الهندوسية؟

اسمعني يا سردار، من عادات العرب ومن تمام وجوب الشريعة عند المسلمين، بأن الرجل يدفع المهر للزوجة، ويتكفل بمعيشتها، ويتحمل مصاريف الإنفاق عليها، ليس كما تعرفه عندكم في الهند، بأن والد الزوجة يقوم بالمشاركة في مصاريف المهر وتكاليف الزواج ..

يا سردار صدقني، لا أريد أن أسبب لك الإحباط والإحراج وضيّقة الصدر، ولكنها هي الحقيقة التي ربما هي خافية عنك، وسأقولها لك بكل صراحة: هل نسيت من أنت؟ هل نسيتَ بأنك هندي، صحيح إنك مسلم ومثل هذا مفخرة لك ولنا جميعًا، ولكننا نحن العرب نقف عند مسألة الأحساب والأنساب، فالعرب لا يعرفون غير أنك هندي ابن هندي، بل هندي ابن تاسع عشر هندوسي، ربما سوف تُرد من قبل أهلها وعشيرتها،

فالعرب لديهم مقاييس في ميزان الأنساب، حتى فيما بينهم هم يُحافظون على هذا المنسوب بدرجاته الاجتماعية، بصرف النظر عن قناعاتي أو قناعتك أو قناعات الآخرين، رغم أن والدها قد زوج أختها الكبرى بكاكا (كردي) وهذه بشارة طيبة لك يا هندي إن كنت حقيقة عازمًا على الزواج منها، وإنها لتصب في إيجابيات مشروعك..

يا سردار، دعني أتجرد أكثر من ثياب المجاملة معك، **وأقول لك:**

إن العرب بصورةٍ عامةٍ ينظرون للهندي نظرة خاصة غير نظرتك أنت لنفسك وللهنود جميعًا، هل تعلم بأن العرب فيما بينهم ينعتون الرجل الذي لا يفهم القول ولا العمل بأنه هندي؟

اسمعني، لو في يوم من الأيام وصلتك رسالة من أبيك يطلبك فيها، ويقول لك: إن الأمور قد هدأت الآن، هل سترجع وتترك خاتون عند أهلها كوديعة اجتماعية، أو عهدة مستحقة الدفع، ولكنها غير قابلة للصرف إلا للمستفيد الأول، أو سوف تتركها هنا وقف ورثي لأهل التكية!!

اسمعني، فكر جيدًا في هذه المسألة؛ لأنها مصيرية لك، ولا أريد أن أسمع رأيك في مثل هذه اللحظة المستعجلة، ومتى ما قررت بعد دراسة متأنية، فستجدني رهن إشارتك في الذهاب معك لأهلها وعشيرتها، ونخطبها لك أو نخطبك لها؛ لأن الأمر سيان عندما تقع مصيبة الحب، ولكن .. فكر جيدًا من الآن، بدون انتقامات دموية، وبدون بقر بطون لو

سمحت؛ فأرواح الناس غالية يا دكتور سردار، وليست أجسادًا خالية من الأرواح تقع تحت رحمة مشارط الأطباء في قاعات التشريح ..

وبعد مرور ثلاثة أيام من هذه المحاضرة الأخوية الساخنة، جلس سالم وسردار في الليل يتسامران تحت شجرة السدرة في باحة التكية، يحفهما بقايا ضوء يتلصص عليهما بهدوءٍ من بعيد، يدخنان سجائر سومر، فقال سردار محدثًا سالمًا بخشوع - بعد أن نفث حلقات كثيرة من دخانه في الهواء خرجت من فمه وأنفه:

لقد استوعبتُ جيدًا ما أسمعتني من مصارحة قبل ثلاثة أيام، وكن على ثقة تامة بأني وضعتُ كل الحسابات التي ذكرتها في نص خطابك لي، فرجحتْ كفة الموافقة والقبول والتقدم لخطبتها على سواها في ميزان العقل، فهل تذهب معي يا سالم لزيارة أهلها وعزوتها؛ من أجل التقدم لهم بشأنها؟

- بكل فخر وسرور، سأذهب معك يا ابن الهندية ..

بل نحن نحتاج لرجل ثالثٍ يذهب معنا لتدعيم موقفك الاجتماعي، فما عليك غير تحديد الموعد معها لزيارة منزلهم، وعليك سؤالها عن عنوان منزلهم، فأنا لا أعرف الطريق إلى منطقة محلة العرب، حاول أن تعرف وصف منزلهم جيدًا ..

- لا تخف يا سالم، إني أعرف منزلهم مثل معرفتي بهذه التكية، لقد ذهبت إليهم عدة مرات ..

فاستغرب سالم من رده، ثم قال: أجل كل شيء منتهٍ عندك، والباقي أشكال الرسميات فقط ..

فعجل في الأمر قبل أن تثور الأمور، وقبل أن يعلو صحو السماء ركام السحب وكثرة الغيوم ..

اسمعني يا دكتور سردار ..

عليك من الآن استئجار منزل مستقل لك، والخروج من هذه التكية قبل التقدم لها، قبل الذهاب لخطبتها، كما أرجو منك إخفاء موضوع ذكر سيرة هذه التكية، كما أرجو منك عدم نبش سيرتك الدموية.

***

سردار في منطقة الكوت

استعدادًا لمشروع خطبته لخاتون، وبناءً على توصية سالم له، بحث سردار عن منزل يستأجره، من شروطه أن يكون قريبًا من سوق الخضرة وأن لا يبعد كثيرًا عن التكية؛ لذا فإنه لم يبحث كثيرًا عن مواصفات مثل هذا المنزل، فبمجرد خروجه من التكية وانحداره في سكتها نحو جهة الغرب، تستقبله منطقة الكوت بسكيكها ومنازلها المتلاصقة الجدران، فمنازل الرحيم والهادي والصفوق والعتيبي وسكة المجموعي، التي فيها مقبب، والتي تنحدر بك نحو براحة النقيب، وحينما تتجه نحو الشمال في هذه الأزقة الضيقة، فإنك ستجد سوق الصفافير (التنكچية)، وكلما توغلت نحو الغرب فيها، ستجد نفسك في منطقة المراغة، التي هي جزء من منطقة الكوت، وهنالك منازل المعيصب والطوق والقضيب والرشود والمحطب والشارخ، ولقد سميت بالمراغة نظرًا لكثرة رغي الإبل فيها؛ لأنها كانت فيما مضى من زمان محطًّا للجمال القادمة لمدينة الزبير (موقف إبل)، ويقال بأن منطقة الكوت هي أول المناطق التي تأسست في الزبير، وأن عائلة المعيصب هم أول من استوطن مدينة الزبير، بالقرب من جامع الزبير بن العوام، ويؤكد أكثر من شخص بأنهم شاهدوا آثار قبور مندثرة في منطقة المراغة، ويتفرع الشارع المار بمحاذاة التكية والمتجه غربًا في نهايته إلى عدة أزقة ضيقة، منها ما هو شمالي وجنوبي وغربي، في نهاية هذا الشارع وجد سردار منزلًا صغيرًا، تم استئجاره بدينارين شهريًّا، تمكن سردار من

تأثيث منزله الصغير بمساعدة سالم له .. تم شراء كل ما يحتاج إليه من كماليات من سوق الزبير، بعض منها تم شرائه من السكراب (سوق الحراج) الملاصق لمنطقة الكوت.

❋❋❋

محلة العرب

في الجزء الشمالي الغربي من مدينة الزبير تقع منطقة ما تُسمى بـ (محلة العرب)، في بداية تكوين الحياة فيها سكنتها بعض العشائر القادمة من شمال البصرة وبعض من البدو القادمين من عمق الصحراء من جهة الغرب، كانت عبارة عن واحة عشائر مرتحلة غير مستوطنة، ثم طاب لبعضهم العيش والإقامة في أرضها، فاستوطنوا فيها، خصوصًا أنها قريبة جدًّا من قاعدة الشعيبة العسكرية ومن مدينة الزبير، اللتين يتوفر فيهما الأعمال بكثرة، فبنى هؤلاء العشائر والبدو الرُحل بيوتًا بسيطة جدًّا، معظمها من الصرائف (جمع صريفة) والشينكو، ومع مرور الأيام تكاثر الوافدون للسكن في هذه المنطقة، وتناسلوا بين جدران منازلها البسيطة وأزقتها الصغيرة، فأنجبوا صغارًا عشقوا هذا المكان، وأصبحوا فيما بعد أهل منطقة بصك المنشأ والتكوين، فانتموا إليها بكل فخر واعتزاز، بعدما رضعوا حبها وذاقوا من حلاوة طعمها ..

توسعت رقعة هذه المنازل المتلاصقة فيما بينها بشكل عشوائي، كيفما اتفق، دون تخطيط مسبق من قبل إدارة بلدية مدينة الزبير، ومع تطور وسائل البناء، تحولت سقوف منازلهم إلى خرسانات إسمنتية، وجدرانها أصبحت طابوقًا، أما أرضيتها فتحولت من التراب الذي يتحول إلى عاصفة هوجاء تلفظ سموم ذرات غبارها عليهم في معظم أيام السنة إلى الكاشي المنقوش (البلاط) ..

أخذت (منطقة العرب) في التوسع شيئًا فشيئًا على حساب أرض المنطقة الفارغة المحيطة بها من جهاتها الأربع، خصوصًا من جهة الغرب، لتزحف نحو جهة منطقة البايب، وسميت هذه المنطقة بمثل هذا الاسم نظرًا لمرور بايب نفط (أنبوب) منطقة البرجسية المتجه لمصافي تكرير النفط في العراق.

دخلتها الطاقة الكهربائية في وقت متأخر جدًّا من عمرها الزمني، متأخر عن باقي مناطق مدينة الزبير؛ لأنها خارج مخطط المدينة، لم يتم تخطيطها من قبل البلدية، دخلتها الطاقة الكهربائية قبل دخول حنفيات أنابيب مياه مشروع المصلحة ..

خاتون تعيش في هذه المنطقة، والدها مشهور بلقب (الزاير)، والذي اسمه (مهدي فدعوس)، وكلمة الزاير في مصطلح المذهب الجعفري، عادة ما تطلق على كل من يزور كربلاء والنجف، وأن يكون في مرحلة متقدمة من العمر، ومثلها مثل مصطلح كلمة (الحجي) عند أهل السنة في بعض البلاد الإسلامية، التي لها نكهة قدسيتها الخاصة ..

الزاير مهدي متقاعد من خدمة الجيش العراقي برتبة (رئيس عرفاء)، عجز في سيرة حياته العسكرية عن أن يضع نجمة تلمع على كتفه يزين بها كتف بدلته العسكرية، رغم أنه قضى شطر حياته في حروب شمال العراق، حرب الأكراد أيام فتنتهم مع الحكومات العراقية المتعاقبة، أيام إصرارهم على الاستقلال ونيل الحكم الذاتي في شمال العراق في منطقة كردستان ..

في آخر حياته العسكرية نقلوه إلى قاعدة الشعيبة كمكافأة له على خدمته في الجيش العراقي ..

تنحدر أصول عشيرته الشيعية من أطراف محافظة العمارة، المتاخمة لمنطقة الحدود العراقية الإيرانية، زوجته اسمها (فاطمة) من نساء عشيرته القريبة منه نسبًا، أنجبت له خمس بنات، الكبرى منهن اسمها (الزهراء)، وخاتون هي الوسطى، والصغيرة اسمها (فاطمة)، أسماها تيمنًا باسم أمه وأمها؛ لذا كان كثيرًا ما يفتخر بين أصحابه وأبناء عشيرته فيقول لهم بفخرٍ واعتزاز:

أنا سلطان من سلاطين الدولة (الفاطمية) المنقرضة ..

يعيش في منزل شعبي بسيط التكاليف والبناء، جدرانه مبنية من الطابوق، أما سقفه فمن الصبة الإسمنتية، مكون من باحة صغيرة تنفذ إلى أقصى المنزل، لتجد غرفتي نوم وغرفة خُطار (ضيوف) قرب الدهليز (المدخل)، ودورة مياه واحدة، مكونة من شقين، حَمام إسمنتي الجدار والأرض، وكشمة (مرحاض) جداره ممسوح بالجص، تقع قرب باب مدخل المنزل، وتفتح تهويتها على الشارع ..

زوّج ابنته الكبرى (الزهراء) برجل من منطقة الشمال (كردي)، تعرّف عليه أثناء أسره من قبل الجيش العراقي في أيام حرب الشمال، عرف شجاعته وبسالته ورجولته وشدته في القتال، فأحبه وزوجه ابنته ..

المهدي عشق مدينة الزبير، وأحب أهلها، وأحب هواءها من أول يوم نقلوه لقاعدة الشعيبة، لم يشعر بغربة في أرضها وتحت ظل سمائها ..

يعشق معاملة أهل المدينة، ويقول عنهم: هؤلاء أحفاد الرسول – صلى الله عليه وسلم – هم أبناء نجد لا يعرفون الغش في المعاملة، ولا الغدر في الرجولة، ولا الخيانة في الأمانة، **كان يقول:**

لولا خوفي من أبناء عشيرتي لاعتنقت المذهب النجدي ..

تعامل مع كثيرٍ من رجالهم فأحبهم وأخلص في تعامله معهم، عرف كثيرًا من أسماء عوائلهم وَوثقَ في معاملتهم فَوثّق علاقته بهم، **كان يقول:**

النجدي لا يحلف إلّا بالله، وإن حلف لا يحلف كذبًا أبدًا ..

يقف المهدي عند باب منزله ليستقبل كلًّا من سردار وسالم وحسين، الذي تم اختياره من قبل سالم ليكون عضوًا ثالثًا معهم في مشروع هذه اللجنة الخيرية؛ نظرًا لثقافته الواسعة ولباقته في الحديث وصحبته الحميمة لهما ..

كان المهدي وبعض من أفراد عشيرته في انتظارهم حسب الاتفاق المبرم مع سردار قبل عدة أيام، الموعد بعد صلاة العصر مباشرة ..

قدم المهدي لهم أفراد عشيرته، أثناء تناولهم المرطبات، عرفهم على طلياس زوج ابنته الكبيرة الزهراء، القادم من مدينة كركوك لقضاء إجازته السنوية في ربوع مدينة البصرة، والظاهر أن الزاير المهدي سيُصاهر المنظومة العالمية الجديدة، فبعد أن زوَّج الأولى بالكاكا (الكردي) من الشمال، فسوف يقوم بتزويّج الثانية بالرفيق (الهندي) ..

بدأ المهدي الحديث في المجلس عن الأمور العامة، من حركة البضائع في الأسواق، ثم تناولوا في حديثهم - على حياء - مقتطفات من المواضيع السياسية، التي تصب في مصلحة توجه الدولة وميولها من باب الحيطة، كل هذه الحكايات كانت عبارة عن مقدمة لترطيب الأجواء قبل الحديث عن الموضوع المهم الذين جاءوا من أجله؛ لأنه يحتاج إلى مرونة أعصاب في التعامل معه ..

قص سالم شريط موضوع مجيئهم بشجاعة، وأعرب لهم عن سبب مجيئهم لخطبة سردار، فأثنى سالم بداية على المهدي وعلى حسن سيرته التي يتمتع فيها في مجتمعه، ثم أمطر السامعين من الحضور مدحًا بسيرة خاتون، وعدد بعضًا من مزايا وصفات عشيرته الكبيرة، التي تمتد في الجهة الغربية من العراق، **ثم قال:**

يشرفنا نحن أصدقاء سردار، أن نتقدم نيابة عنه طالبين يد ابنتكم خاتون هانم للدكتور سردار، زواج على سنة الله ورسوله، نحن نعرف سردار جيدًا، ونظنُ فيه خيرًا كثيرًا، إنه نعم الرجل يا زاير مهدي، نحن نقول عنه في العامية (حطه على يدك اليمين) ..

فرد عليه المهدي بقوله والفرحة تغمر نفق فمه بسبب دخول هذا الزبيري النجدي لمنزله: يشرفني حضوركم جميعًا لمنزلنا المتواضع، وابنتي خاتون سبق لها أن حكت لنا كل شيء عن دكتور سردار، وعن صداقتك له يا سالم، فأنت خير مثال لشباب الزبير ..

لا يُوجد لدينا ما يُمانع من تزويجها دكتور سردار، علينا الذهاب في الغد للمحكمة الكبرى في البصرة لعقد القران عند مأذون المذهب الجعفري ..

عندها خَيمَ صمتٌ طويل ابتلع أصوات ومسامع من في المجلس، لم يستشعر أحدٌ بوحشة طول فترة زمنه غير سالم والمهدي، اللذين كانا يُدركان تمامًا أهمية نوع عقد القران في المفهوم العقدي، كان هنالك سؤال مُتورم بينهما يدور في داخل الفم، عجز عن الخروج بسهولة، مكث بعض دقائق قبل أن تنكسر قشرة بيضته، ملخصه يدور حول على أي مذهب سيكون عقد القران ..

احتار سالم في حل مثل هذه المعضلة المتورمة في المجلس، فسردار حديث عهد في الإسلام، لا يفقه أشياءً عن فلسفات مذاهبه، ولا عن انحرافات فكرها ومعتقداتها؛ لذا ظن بأن سردار لأول مرة سمع عن شيء اسمه المذهب الجعفري، دخل قلبه حصن الإسلام في حضرة مذهب أهل السنة والجماعة في جامع الزبير بن العوام، لم ينبش له أحد من دعاته، مثل مشكلة الفرق الإسلامية، ولا المذاهب السنية كذلك، لم يأخذ أحد بيده لمثل هذا الوادي السحيق المظلم في جسد الأمة الإسلامية، ليشرح له ثقافة فلسفة المذاهب وأصولها ومرجعيتها وكتبها المتعددة، ناهيك عن معرفة أدلة صحتها وكثرة انحرافاتها، ورغي خزعبلاتها، إنها مشكلة لم تخطر على بال سالم ..

لقد أنب نفسه كثيرًا عليها، لماذا لم يفكر فيها مسبقًا، لماذا لم يستبق مثل هذه الأحداث العقائدية وإرهاصاتها التي يعرفها ..

احتار .. ماذا عساه أن يصنع في مثل هذا الموقف المحرج؟ وخصوصًا أن أي تصرف سوف يُحسب عليه؛ لأن كل الحاضرين في المجلس بما فيهم حسين من المذهب الشيعي، ما عدا سردار، الذي يجهل هذه الأمور؛ لأنه حديث عهد في الإسلام ..

بدأ عقله وفكره يستعجلان في ميدان البحث في استنباط رأي منقذ لمثل هذه الورطة العقائدية، ماذا يجب عليه أن يفعل لإنقاذ صديقه الذي يثق به؟ الذي قلده منصب الوصاية بالنيابة عنه، بالتصرف في أموره الشخصية؛ نظرًا لعدم درايته بأهل المنطقة، وعدم كفاءته لمثل هذه الأمور ..

استغرب المهدي السكوت الذي ران هدوءه في المجلس، ففرض نفسه كعملاق كبير خطف وجوه الحاضرين، فتشجع وسأل سالمًا مباشرة بصفته المتحدث الرسمي نيابة عن هذه اللجنة، عن سبب سكوته وانعقاد لسانه، رغم أن سردار كان ينتظر رأيه ..

فقال سالم: أبا الزهراء ..

يقولون في المثل العامي عندنا في الزبير (الكلمة اللي تستحي منها بدها)، يعني ابدأ فيها يا زاير ..

كما تعلم يا زاير، أن الدكتور سردار أخي وصديقي وحبيبي وبلا شكٍ يهمني أمره ومصلحته كثيرًا، لذا سوف نعمل عقدين من المهر بمشيئة الله، العقد الأول سيكون في المحكمة السنيَّة، وستكون نسخته الأصلية لسردار، أما العقد الثاني فسيكون في المحكمة الجعفرية، ونسخته ستكون لخاتون

بحول الله؛ لأن عقيدتكم كما تعلم جعفرية (شيعية) ونحن عقيدتنا على مذهب أهل السنة والجماعة (سنيّة)، وأظنكَ تُشاركني الرأي بأنه لا يُوجد فرق بينهما، غير قراطيس محاكم وأختام قُضاة معممون، يرتزقون من وراء تواقيعهم لقمة عيشهم، فكلنا يشهد بأن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وهذه هي بطاقة مرجعيتنا الإسلامية بدون تقنيات فلسفية فكرية معاصرة ..

فصرخ الحاضرون في المجلس بصوتٍ واحدٍ عالٍ: اللّهم صلِ على محمد وعلى آل محمد ..

في الصباح الباكر لليوم التالي، ذهبوا جميعًا بسيارتي أجرة إلى البصرة، كانتا على نفقة سردار ..

تقع المحكمة الكبرى في منطقة تُسمى (محلة باشا)، في مدخل البصرة مقابل قهوة (أبو علي)، المشهورة بتخصصها في أيام رمضان بلعبة (المحيبس) و(الصينية)، يفصل بينها وبين شارع الجمهورية نهر العشار المتفرع من شط العرب، مقابلها جسر يفترش ظهره ليمر فوقه كل من المشاة والسيارات..

دخلوا حوش (باحة) المحكمة، فسألهم عسكري أمن يقف عند باب مدخل المحكمة بسلاحه الكلاشنكوف عن هدفهم من المجيء للمحكمة، فأجابه المهدي بقوله: جينا (أتينا) لعقد قران ..

- عقد سنّة ولا شيعة؟

– عقد سنّة وشيعة .. قال المهدي.

– ياب شلون هيچ (كذا)، تضحكون علي ياب، والله لولا مو معاكم نسوان (نساء) لعملت بيكم العمايل ..

ياب لازم تحدد هوية مذهبك، يا سنّة .. يا شيعة ..

ياب ما بيه شي اسمه سنة وشيعة، ياب تردون تفتحون إلنا (لنا) غرفة بلوى جديدة، اسمها سنة وشيعة ..

تردون سنّة من هاذ الصوب، وأشار بيده لجهة اليمين، تردون شيعة من ذاك الصوب وأشار بيده لجهة اليسار .. ياب .. يلا ذلفوا عني (فارقوني) ..

فاستبشر سالم خيرًا بأنهم وضعوا محكمة السنة على جهة اليمين؛ لأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – كان يحب التيامن في كل أموره، كما أخبره والده عن ذلك ..

فدخلوا أولًا على كاتب القاضي السني، وأنهوا عقد صفقة زواجهم السني، ثم دخلوا على كاتب القاضي الشيعي، وأنهوا الصفقة الأخرى، ومن يومها أصبحت خاتون زوجة لسردار، على قرار منهج مذهبين من مذاهب الإسلام، **فقال سالم ممازحًا صديقه سردار أمام أنسابه:**

انتبه، تتهور وتفرط بخاتون ذات العقدين، من الآن وصاعدًا اهتم فيها؛ لأنه يتوجب عليك دفع مؤخرين مذكورين في عقدين في حالة الطلاق لا

قـدر الله، ولا تـنس كـذلك عليـك دفـع مهـرين مقـدمين نقـدًا، مهـر سـنّي بشهادتنا، ومهر شيعي بشهادة الزاير.

فضحك الجميع من هذا الموقف الظريف الذي تعرضوا له.

***

فندق شط العرب بالعشار

بفضل جهود سالم تم الانتهاء من كافة الترتيبات المتعلقة بحفل زواج سردار من خاتون، فالمنزل مكتمل التأثيث، ولم يتبقَ أمامهم غير حفلة يوم زفافه (يوم العرس)، فقرر سالم المنسق الرسمي لحفلة الزواج، أن يكون شهر عسلهما في فندق شط العرب بالعشار ولمدة أسبوع، هذا الفندق يقع في منطقة مطار البصرة، قريبًا من منطقة المعقل والنجيبية، تم بناؤه منذ أيام تأسيس المطار ..

ليس بالضرورة أن يكون شهرًا كاملًا مثل تسميته، أظن أن فترة الشهرية ليست مدة إلزامية في أعناق المتزوجين، وفي أعراف عقود المهر، ومن الذي سنَّ مثل هذه السُنة الشهرية بعدد أيامها، هي مجرد تسمية تناقلتها الأجيال وتعارفت عليها الناس، دون النظر لعدد أيامها، هم يقولون (شهر عسل)، ولكن في الحقيقة كلها أيام معدودة، ربما لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، ثم تدور الحياة برحى أيامها، ولا يلتزم بعددها الزوجان، وخصوصًا الرجال منهم .. على كل حال سوف نحجز لهما غرفة لمدة أسبوع واحد، وسنقول عن هذه الفترة (شهر العسل)، إذن سيكون شهر عسلهما في فندق شط العرب، سيكون مشروع شهر العسل حافلًا في برنامجه المنوع، سوف نكثف لهما النشاط فيه، في أول يوم سيكون جولة مع عروسته خاتون في مدينة الألعاب في المعقل، وفي اليوم الثاني ستكون سهرة عشاء في مطعم جزيرة السندباد، وفي مساء اليوم الثالث سيكون في سينما من سينمات

البصرة المشهورة؛ لمشاهدة آخر الأفلام المعروضة، شريطة أن لا يكون فيلمًا هنديًّا أو عربيًّا، وفي اليوم الرابع سيكون يومًا مفتوحًا للتسوق ولشراء بعض الهدايا لأهلها وذويها من سوقي الهنود وحنا الشيخ بالعشار، وفي مساء اليوم الخامس ستكون جولة نهرية في مشحوف (قارب صغير) في وسط شط العرب، وفي اليوم السادس ستكون جولة بين أشجار النخيل الكثيفة في منتزه الخورة في البصرة، وهكذا هي أيام شهر العسل سرعان ما تنقضي بسرعة البرق، فأيام السعادة ليست بحاجة لأن تجتهد في عد ساعاتها؛ لأن عجلة دوران الحياة فيها أسرع منك في عد أوقات أفراحها وأتراحها .. تعودت الحياة أن تترك لنا رصيد الهموم والآلام لِعدِ ساعاتها وأوقاتها البطيئة السير والحركة ..

في يوم الزفاف تم استئجار سيارتين من مصاريف ميزانية زواج سردار؛ الأولى كانت تاكسي، والثانية كانت كوستر (باص صغير)، لفترة من بعد صلاة العصر لغاية الساعة التاسعة مساءً؛ لتنقلا كلًّا من العروسين والمقربين لهما ..

قام سالم بشراء بعض الشرائط الملونة والبالونات الصغيرة والكبيرة، وبعضًا من الورود الزاهية؛ لتزيين هيكل سيارة التاكسي من الداخل والخارج ..

بعد صلاة العصر من يوم الخميس، ذهب كل من سالم وسردار وحسين بالتاكسي لمنطقة محلة العرب، وهناك وجدوا سيارة الكوستر (الباص) واقفة عند باب منزل المهدي في انتظارهم حسب اتفاقهم مع سائقه .. لبس

سردار في ليلة عرسه قاطًا (بدلة) لونه أبيض، مع ربطة عنق لونها سوداء، منقطة باللون الأبيض، الذي يتناسب مع لون القميص، تم استئجارهما من متجر لبيع الملابس الجاهزة في سوق (حنا الشيخ)، يقوم بتأجير ملابس المناسبات، أما حذاؤه فكان من نوع الدس، أي بدون قيطان (بدون خيوط) ولونه أسود ..

أما سالم فقد لبس دشداشة (ثوبًا) ناصع البياض، وجفية (غترة) بيضاء اللون وعقالًا؛ احتفالًا بزواج صاحبه سردار، أما حسين فلبس دشداشة جديدة لونها رصاصي، خيّطها خصيصًا لهذه المناسبة، وبدون غترة تُغطي رأسه ..

عند وصولهم لمنزل المهدي، وجدوه مع لفيف من أقاربه في انتظارهم عند باب المنزل في الشارع، فاستقبلوهم في غرفة الخُطار (الضيوف) الممتلئة بالأهل والأقارب والأصدقاء، قدموا لهم بداية بعضًا من المرطبات الباردة، ووزعوا أنواع الحلويات على الحاضرين في المجلس، والتي عادة ما تُوزع بمثل هذه المناسبة ..

صوت الهلاهيل (الزغاريد) والأغاني لم تنقطع منذ لحظة وصولهم للمنزل، وقتها شعر سالم بارتياح كبير؛ لأنه أدى واجب هذه المهمة بكل نجاح، فحمد الله كثيرًا على أن مكنه من رد جزء من جميل صاحبه عليه.

ركب كل من العروسين في المرتبة الخلفية من سيارة التاكسي في وسط حفاوة وتهاني الجميع عند مدخل الباب، لينطلق موكب العرس، فخرجت

أمها فاطمة فطشت (نثرت) فوق رأسيهما خليطًا من الحلويات والدراهم النقدية من سلة صغيرة كانت تحملها بين يديها، فتقافز أطفال الحي من بين صفوف المدعوين كالخفافيش، كانوا ينتظرون هذه اللحظة ليلتقطوا ما سقط من ثمار هذه السلة، ثم جاءت بطاسة (وعاء) ممتلئة بالماء فسكبتها عند الجهة اليمنى من باب المنزل خوفًا عليهما من الحسد والعين، نوع من أنواع الاعتقاد الموروث لدى الشيعة، الذي لا يرتقي إلى سند صحيح في عقيدتنا.

ركب المدعوون في سيارة الكوستر، بما فيهم سالم وحسين، ليسيروا خلف سيارة العروسين، وبصوت أبواق السيارات، معبرين عن فرحتم، فطافوا في الشوارع الرئيسية من مدينة الزبير، فمروا عند حضرة مقام التكية ثم انحدروا للبصرة والعشار؛ للطواف في شوارعها في وسط فرحة أغاني وأهازيج عشائرية جميلة، تغمر وجوه الجميع، مرددين في بعض الأحيان أغنية فاضل عواد (لا خبر .. لا چفيه .. لا حامض حلو .. لا شربت) ..

استقرت بهم نهاية أشواط هذا السعي الخالد عند مدخل فندق شط العرب، فترجل الجميع من السيارتين، فهنئوا وباركوا للعروسين وسألوا الله لهما التوفيق والنجاح في حياتهما الجديدة في عش الزوجية، ثم عادوا أدراجهم إلى مدينة الزبير ..

أما سالم وحسين فجلسا يشربان القهوة في لوبي الفندق الكبير، ويتناوبان الحديث عن ذكريات سيرة صاحبها بخيرٍ، لم يتمكن سالم من العودة حتى يستأذن من صاحبه سردار ..

بعد مرور ساعتين اتصل سالم على غرفة سردار، من خلال هاتف كاونتر الاستقبال؛ ليطمئن على وضعها وراحتها، والسؤال إن كانا يحتاجان لخدمة قبل أن يعود للزبير، فشكره كثيرًا، رغم أن سردار ظن بأن سالمًا قد عاد أدارجه للزبير مع الراجعين، **فقال له سالم:**

سردار، لا تفشلنا (لا تحرجنا) جدام (أمام) النسوان (النساء) خلك ريّال (رجال)، لا تستحي من حلالك، في أمان الله، وبالتوفيق، أنا مع حسين سنرجع للزبير الآن.

***

بهلول

في ذات ليلةٍ ربيعيةٍ جلس سالم مع حسين في منطقة شبه مظلمة من باحة التكية، يتسامران أطراف الحديث لآخر الليل، ويتناوبان على سرد صفحات من ذكريات صديقهم سردار، الذي يغط نومًا في حضن زوجته، وكلما تذكرا موقفًا من مواقفه الطريفة ضحكا كثيرًا ..

قال سالم:

لا زلتُ أذكر اندهاش وجه سردار عند زيارتي له بالسجن في الأشهر الأولى من قدومه، هذه الحادثة وقعت له قبل مجيئك للتكية يا حسين، لا زلتُ أذكر سيارة الأمن المسلحة التي جاءت في ليلةٍ حالكة الظلام وشتاؤها باردٌ جدًّا، وقفتْ بجانب باب التكية، فترجل منها اثنان من رجال الأمن يحملان مسدسيهما خلفهما تحت حزام البنطلون، كأبطال أفلام القصص البوليسية، وأيام شباب الكابوي، الذين عادة ما نشاهدهم في السينما والتلفاز، فاقتحما الغرفة رقم 3 بمعرفة مسبقة لخريطة الموقع دون سؤال، ثم اقتادا سردار دون غيره من معدة الغرفة الباردة ..

فسألتهم بعطف عن مشكلته، فرد علي أحدهما بخشونةٍ:

مالك شغل (الأمر لا يعنيك) ..

في صباح اليوم التالي ذهبت مبكرًا لمركز الشرطة للسؤال عنه، يقع مركز الشرطة في أقصى غرب مدينة الزبير، مجاورًا للمكتبة الأهلية من جهة الغرب، ومقابل المكتبة الوطنية، وكان بين هاتين المكتبتين صراعٌ طويل على استحواذ أكبر قدر ممكن من الزبائن، كل منهما يُروج لمنتجاته الفكرية والثقافية ويقتنص زبائنه المفضلين، فالمكتبة الوطنية مدعومة من قبل الحكومة، وأكثر روادها من طلاب المدراس والكليات، أما المكتبة الأهلية فيُميّزها خبرتها الطويلة في المنطقة، ودعمها اللا محدود من قبل أهالي الزبير ومدرسة النجاة الأهلية، وفيها الرجل الطيب ناصر العواد، الذي يرشد القارئ لما هو أفضل في رفوف المكتبة ..

يفصل بين مركز الشرطة وبين مقبرة الحسن البصري (المقبرة الرسمية الوحيدة لدفن الموتى)، شارع عريض، يتجه من الشمال إلى الجنوب، زُرعت فيه مجموعة من دكاكين الكراجات والورش لصيانة السيارات ..

دخلت لقسم الشرطة، ولم أجد خبرًا شافيًا عند مأمور المركز عن سردار، ونفى لي معرفته بمثل هذا الاسم، بعد أن تأكد من جميع أسماء المحجوزين في سجل المركز منذ الليلة الماضية، فخرجتُ من دائرة المأمور محملًا بألم همّي الذي ينهشُ في أحشاء صدري على مأساة صديقي سردار، خصوصًا في تلك الفترة من حياته حيث كانت جماعة الدعوة والتبليغ القادمين من الهند والباكستان مجتهدين في دعوته للإسلام، بلا شك إنها ستكون صدمة كبيرة جدًّا عليه وعلى مشروع هدايته للدين الإسلامي، لكني قلتُ وقتها: بكل تأكيد عليه أن يفهم بأن المؤمن إنسان مُبتلى، وعلى

قدر إيمان المرء يشتد البلاء، ويقسو عليه زمنه؛ لذا فعليه أن يفقه مثل هذا الدرس من الآن قبل الولوج لرحابة الإسلام ..

خرجتُ من المركز فتبعني شرطي برتبة عريف؛ لعله رق قلبه على حالي وحال صاحبي المفقود، **فقال لي:**

إن زوار الليل عادة ما يكونوا إما من الأمن الحزبي (سيد الأمن)، أو من الأمن العسكري الخاص بالشئون العسكرية، أو من الأمن العام (كل ما يخص أمن الدولة)، فعليك الذهاب أولًا للأمن العام فرع الزبير، اسألهم عنه فربما تجد من يدلك على أثره ..

ذهبتُ للأمن العام فرع مدينة الزبير؛ للاستفسار عنه، وكنتُ حينها مترددًا كثيرًا في دخول مثل هذه الدوائر العنكبوتية المزعجة، التي لم أفكر في يوم من الأيام بدخول أزقتها المرعبة ..

كلمتُ رجلًا من خلال شباك يقع خارج سور مبنى الأمن، ويطل على الشارع، بعد أن وقفتُ في طابور طويل، أنتظر دوري للوصول لمثل هذا الشباك، الذي مساحة فتحته نصف متر مربع، فسأل الرجل الذي يضع سيجارة روثمن في طرف فمه الأيمن، عن حاجتي من المجيء لهم، دون أن يفتح فمه؛ خوفًا من سقوط سيجارته، بينما تشاغل بسماع حكاية زميله الذي يجلس معه في الغرفة عن بطولاته ومغامراته في الليلة الماضية، كنتُ أسمع صوته ولا يمكن لي رؤية وجهه ..

فأخبرته بأني أسأل عن رجل اسمه سردار، اقتاده رجلان ليلة البارحة من غرفته رقم 3 في التكية، فرد علي من بين أسنانه، بقوله:

ما نُعرف رجل بمثل هذا الاسم ..

وأنت من تكون؟ وشنهي علاقتك بيه؟

- أنا اسمي سالم، وسردار صديقي، ويسكن معنا في التكية ..

- يلا امشي بسرعة من هنايه لأقوّم عليك قضية ترميك بسجن ما تشوف بيه شمس طول عمرك، يلا ولك أمشي عابت هيچ أشكولات (أشكال)، خوب ما ناقصنا غير مسودنين (مجانين) ودراويش وسكارى تكية .. عابت (نوع من أنواع المسبة في اللهجة العراقية) ..

فرجعتُ للتكية وكآبة الحزن تغشى ملامحي، وتغزو جذور نشاط همتي في السعي في هذه المهمة الشاقة، بدأت أفكر بهدوء، وأقلب صفحات الأمور، في طريقة للوصول لسردار المفقود، كيف السبيل إلى اكتشاف مكانه؟ فخطر على بالي أن أذهب للجامعة، وهناك أعرف صديقًا عزيزًا، اسمه ماجد من أهل بغداد، أعرف بأنه على صلة قوية برئيس الاتحاد الوطني لطلبة جامعة البصرة؛ عَلَّهُ يذهب معنا للبحث عنه ..

وبفضل الله اقتنع، فذهبنا بسيارته الخاصة المسكوفش الروسية الصنع، نحن الثلاثة، إلى مقر الأمن العام في البصرة، في الطريق حكيت لهما قصة سردار كاملة، أفضيت لهما أكبر سر له في حياته، وعرَّفتهما بسيرته الخاصة فتعاطفا معه كثيرًا ..

دخلنا نحن الثلاثة مقر الأمن العام، فرحب رجاله بنا ترحيبًا خاصًّا، يليق بمثل هذا الرئيس، فتقاطر بعض أفراد الأمن للسلام على رئيس الاتحاد الوطني وتحيته، وبعد السؤال والتحري عن اسمه وجدناه مسجونًا بتهمه أنه عميل هندي وجاسوس بريطاني، أبلغ عنه أحد المخبرين المزروعين في المنطقة بعد متابعة له في التكية .. وبفضل جهود رئيس الاتحاد، تم الإفراج عنه، وعاد معي للتكية، بعد أن تم توقيعه على إقرار وتعهد كتابي، بضرورة عمل إقامة رسمية في شعبة الجوازات، ثم أقفل المحضر الخاص به بشهادتنا نحن الثلاثة ..

وبينما كان سالم يُريد مواصلة سرد بعض من ذكريات سردار، سمع صرخة حسين بأعلى صوته، يقول:

من هناك .. من هناك .. كضوه (أمسكوه) ..

وبمثل لحظة البرق قفز الاثنان معًا ليخترقا عمق الباحة من جهة مدخلها بسرعة، ويخرجا من داخل ظلامها رجلًا ضخمًا منفوش شعر رأسه ..

من!! من!! .. بهلول ..

ظهرت عليه ملامح الإرهاق، استمر يلهث بصوت مسموع كالكلب المسعور، ثم بدأت دقات قلبه تهدأ رويدًا رويدًا، سمعاه يهذي بكلمات كثيرة متقطعة ومتداخلة مع بعضها البعض، لا تعرف منها المبتدأ من الخبر.

– كنتُ أظنكما من الجن الذين تبعوني من سوق المقصب، فخفت من ظلكما المتراقص..

وماذا كنت تفعل بسوق المقصب بمثل هذا الوقت يا بهلول؟ (سأل سالم).

- أخذتُ لأصدقائي بعض الفضائل من اللحم والعظام؛ لأنهم منذ يومين متتابعين لم يأكلوا لحمًا، فهم في الليلة الماضية لم يكفوا نباحهم، لم يجدوا شيئًا ليأكلوه، ففضلات الأكل شحت هذه الأيام عند الناس ..

فضحكا عليه من شدة خوفه منهما، وضحكا على براءة لهجته الركيكة، ثم دلفَ إلى غرفته رقم 5، بعد أن شكرهما وودعهما ..

قال سالم:

بهلول رجل مسكين، ضيّع عمره في تربية الكلاب والقطط، فهو صديق وفي لهذه الحيوانات الضالة، فهو مؤسس جمعية الرفق بالحيوانات في التكية، يبحث عنها في كل مكان ليستدرجها للتكية ليطعمها ويسقيها، في أكثر من مرة ثار نزاع بينه وبين بعض سكان التكية؛ بسبب سياسة الرفق بحيواناته الضالة؛ نظرًا لأنه يقتطع من اللحم الذي يُقدم في التكية قبل أن ينتهي سكانها من الأكل، فأهل التكية طلبوا منه أكثر من مرة بأن يأخذ ما يشاء بعد انتهائهم من الوليمة .. ليست حيواناته أفضل منهم .. هم أحق بالرفق من الحيوانات الضالة ..

فرد حسين بقوله:

أظنه يختلق المشكلات، ولا أعلم لماذا.

***

فندق الأمين

بعد زواج سردار وانتقاله لمسكنه الخاص أصبحت حياة سالم مملة وكئيبة في داخل التكية، كان سردار يملأ عليه ساعات ليله الطويلة في أحاديثه الكثيرة، كانا يتحدثان عن كل شيء في حياتهما، عن صغيرها وكبيرها، في بعض الأوقات يتكلمان باللغة الإنكليزية التي يتحدثان بها بطلاقةٍ، مما ولد نوعًا من الكراهية والانزعاج لمن حولهما من المقيمين معهما، ممن يحاول متابعة حديثهما، إنها خصوصياتهما المشتركة المتدفقة من ينابيعهما العميقة ..

بينهما أواصر أكثر من قاسم مشترك يجمعهما، وأهم هذه القواسم المشتركة التي تربطهما (الثقافة العالمية)، فثقافة المعرفة هي القاسم الأعظم التي تجمع أطراف الشعوب مع بعضها البعض، وتُقرب شتات الأمم المتناثرة في بقاع الأرض، توحد المنهج، وترسم الفكر، وتُقوّم اعوجاج عقل الإنسان المختل، هي أعظم أداة للتواصل بين الناس﴿ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﴾، فلا يتم التعارف والتواصل بين الناس إلا بواسطة ثقافة المعرفة، فهي جواز سفر التعارف ..

عاش سالم أكثر من قصة حبٍ وعشقٍ وغرام في حياته، تقلب في ربوع أحضانها، واكتوى بحرارة نارها، سواءً أكانت مثل هذه القصص في حرم بلدته الصغيرة، أو في الحرم الجامعي الكبير ..

تعرّف على أكثر من فتاة، وعاش معهن حبًّا ممطرًا، حفظته ذاكرته لنا في سجلاتها، لكنها جميعها لم ترتقِ في يوم من الأيام لمنسوب مشروع المصاهرة ومعاقرة القلوب بالوسائل الشرعية الرسمية ..

كان مشروع الزواج في حساباته الخاصة تجتاحه رياح التعقيد في دهاليزه الاجتماعية تارة، والتأجيل لأجل غير مسمى تارة أخرى؛ لذا لم يكن أثر مثل تضاريس هذا المشروع فوق سطور أجندة معاكساته اليومية، ولم تكن في هامش سيرة حياته الجامعية، فكل الفتيات اللاتي تعرف عليهن، عندما يكتشفن بأنه ورقة يانصيب خاسرة غير صالحة لمشروع الزواج، يتركنه سريعًا دون تبريرات لقلوبهن، ويهجرن حضنه، بحثًا عن حضن دافئ غيره، ممن يكون منسوب فحولته مرتفع ..

لذا كانت سيرة مراهقة شبابه أسرابًا مهاجرة من حضن فتاة إلى حضن فتاة أخرى، لم تستقر سيول أمطار حبه المتدفقة بوطن واحد في يوم من الأيام، فأعاصير سُحب شبابه اجتاحت أكثر من وطن وأنبتت ثمارها في أكثر من أرض ..

جلس سالم ساهمًا في صومعة وحدته، يُقلب صفحات ذكريات سيرة مراهقته في هذه الأوطان المحتلة، فحضر ماثلًا أمام عينيه سيرة وطن الطالبة أنعام، فتاة جميلة من منطقة الجزائر في العشار، شقراء ممشوقة الجسم، تدرس في كلية الحقوق، صاحبة الأنوثة المتدفقة من نظرة عينيها،

تَذكر كيف هي ملّكته نفسها؛ إمعانًا منها في إغرائه على تأمين مشروع للمستقبل، مما دفعه مثل هذا التصرف غير المسئول منها في استعجال موسم حصاده لثمارها اليانعة قبل سقوطها على وجه الأرض ..

تذكر سيرة أرض سميرة الخصبة بعشقها له .. تلك الفتاة السمراء القادمة من قلب محافظة الناصرية، تدرس في كلية الصيدلة، وتعيش في السكن الداخلي المخصص للطالبات الوافدات من خارج مدينة البصرة، الذي يقع في منطقة التنومة، القريبة من الحرم الجامعي، تذكر كيف استمتع معها في سنة حب كاملة بكل محاصيل مواسمها، وعندما تضخم ورم يأسها من مشروع احتواء فحولته، هاجرت من عش خرائبه، لتسكن في عش الزوجية من زميلها (ليث)، الذي يدرس معها بنفس الكلية ..

تذكر بعضًا من أسماء الفتيات الكثيرات اللاتي ختمن جوازات عبورهن في أرض وطنه، وتحت سقف سمائه، وعشن في ربوع بساتينه تحت ظل أشجار رجولته، وبينما هو يتصفح هذه السيرة المفعمة برائحة زهور الحب سمع صوت بهلول ينادي عليه (هذه المرة الثانية التي يقطع فيها بهلول علينا سماع صوت أمطار الذكريات) .. قاتلك الله يا بهلول لقد قطعت علينا انهمار سقوط مياه الشلال ..

- ماذا تريد يا بهلول؟

- عند باب التكية رَجال يريدك.

فنهض سالم من بين حصار ركام كتبه ومذكراته الدراسية التي كان يحتضنها في مساحته الضيقة من الغرفة رقم 3، كان الوقت بعد صلاة العشاء مباشرة.

خرج سالم لمقابلة هذا الرجل الذي يطلبه، لمحه واقفًا عند الجهة الشرقية من باب التكية، عمره لا يزيد عن منتصف الخمسينيات، يرتدي ثوبًا أبيض وشماغًا أحمر وعقالًا، يضع تحت إبطه الأيسر بشتًا (عباءةً)، لونه بني فاتح، يحملُ بيده اليسرى سبحة فضية اللون، يتلاعب في خرزاتها بين أصابعه، كأنه في سياحةٍ بعدِ خرزاتها ..

سلم سالم عليه وصافحه ورحب به، فرد عليه السلام وصافحه بحرارةٍ وحفاوة، بقي الرجلُ ممسكًا يده لعدة ثوانٍ، أظن بأن سالمًا قد عد هذه الثواني باستغراب ..

ثم قال بصوتٍ هادئٍ تغشاه الخبرة والحنان:

يا سالم، لقد سمعتُ عن قصتك مع والدك ..

– أجل، لا يوجد في الزبير قصص غير قصة حكايتي مع أبي يتداول سيرتها الناس!!

– لا تستعجل يا سالم، دعني أكمل لو سمحت ..

سمعتُ عن طردك من المنزل كعقوبة نزلت بحقك ..

– لست أول شاب يختلف مع أبيه بخصوص أمر ما فيطرده من المنزل، وأظنُ لن أكون الأخير في هذه المدينة الأفلاطونية الفاضلة ..

– قلت لك يا سالم، لا تستعجل، دعني أكمل حديثي لو سمحت ..

– يا سالم ..

كان على والدك أن يجد لك حلولًا أخرى غير عقوبة الطرد من المنزل، لكن بسبب شدة انفعاله وسرعة غضبه في وقتها اختار لك هذا العقاب القاسي لأجل مصلحتك، غفر الله لكما أنتما الاثنين ..

- يا سالم ..

والدك عزيز علي وذو فضل كبير لن أنساه ما بقيت في هذه الحياة، وقصتي معه حكايتها طويلة وتاريخها قديم، منذ أن قررنا السفر كمجموعة من الزبيريين للعمل في دبي وأبي ظبي، أيام حكم الشيخ شخبوط رحمه الله، وكان وقتها بيننا عدد من المعلمين، يوم سكنا في عزبة قريبة جدًّا من السيف، لن أسرد لك القصة الآن، ربما في قادم الأيام سأخبرك عن مواقف والدك حفظه الله معي يا بني.

- يا سالم ..

منذ ذلك اليوم جعلتُ أباك بمقام أخي الكبير، فلا أحركُ ساكنةً ولا أسكّنُ متحركةً في هذه الحياة إلّا بمشورتهِ وسماع رأيه، لذا لن أرضَ من ابن أخي الكبير أن يسكن في مثل هذا المكان، فالتكية مأوى وملجأ للمشردين الضائعين، وليس لأمثالك يا بني ..

أعرفك، إنك رجل كريم ابن رجل كريم، وأعرفُ جيدًا أخلاق أهل الكرم والأصول، إنهم لا يقبلونَ ذل العطاء والمساعدة من أحد مهما كانت بسيطة، ولا يرضونَ أن يكونوا عالةً على أحدٍ من الناس، مهما كانت منزلتهم، رغم أننا نقول دائمًا في المثل الشعبي (أن الناس بالناس والكل

بالله)، والناس ليس بينها فضل ومعروف غير الأجر والثواب من عند رب العالمين، وأظنك يا بني لن تحرمني من الحصول على ثلاثة أجور، أجر من رب العالمين لما أقوم به من واجب، وأجر ثانٍ من أخي الكبير، وأجر ثالث من ابن أخي الكريم ..

– يا بني، أعرف أن المستقبل أمامك، ينتظرك في محطة الغد بمشيئة الله، غدًا ستكون مهندسًا كبيرًا بحول الله وعونه، فلذا قررتُ دعمك ماديًّا ومساعدتك معنويًّا، يكفيني أني تأخرتُ عليك في القيام بمثل هذا الواجب؛ نظرًا لتأخري في سماع خلافك مع أبيك ..

– بس يا عم ..

– دعني أكمل يا سالم ..

– لن أرضَ عليك الاستمرار في البقاء هنا، لن أرضَ أن ينهش سمعتك القيل والقال في لغو كلام أفواه الناس، بخصوص سكنك مع هؤلاء المشردين والتائهين.

– يا بني، إنها ليست مساعدة مجانية، إنها ستكون دينًا في ذمتك ليوم الدين، فإن توفاك الله قبلي، فأنت حلٌّ من هذا الدين الذي في ذمتك، فإن توفيتُ قبلك قم بسداده لورثتي، ودِيني هذا غير مشروط بزمن محدد، قم بسداده بعد أن يتم تخرجك وتوظفك، ومتى ما شعرت بأنك قادرٌ على الوفاء بدينك يا سالم ..

– يا بني، بالأمس استأجرتُ لك غرفة خاصة في فندق الأمين لتسكن فيها، وخصصتُ لك مبلغًا من المال تقبضه أسبوعيًّا من مدير الفندق (حجي ناصر)، أرجوك أن لا تظن بأني أتفضل عليك بمثل هذا العمل، فوالدك صاحب الفضل والمنة علينا بعد الله – سبحانه وتعالى – **وآخر كلمة أقولها لك يا سالم:**

من الغد بمشيئة الله ستجمع أشياءك التي تحتاجها وتنقلها لغرفتك الخاصة في الفندق، والآن تفضل يا بني قل ما تريد قوله، ولكن ضع بحسبانك، لن تُخيّب ظني بك وتعتذر عن طلبي هذا، فالعذر مرفوض جملةً وتفصيلًا ..

عفوًا سالم، لم أخبرك من أنا!!

فالماثل أمامك العبد الفقير لله (سهيل بن سليمان)، مقيم بين مدينة الزبير ودولة الكويت، شهر هنا وشهر آخر هناك، فإن أردتني في خدمة ستجدني في قهوة (عيسى الحشاش) في سوق الجت، أجلس فيها في الفترة الصباحية مع نُدماء الشاي والحامض لسماع أخبار السوق والتجار، وأجلس في قهوة (الملا) في فترة المساء لسماع أخبار الساسة والمثقفين، فلا تتردد بالمجيء مطلقًا إذا دعتك أية حاجة ..

– يا عم سهيل (أبا سليمان) ..

لم يكن بيني وبين والدي – حفظه الله – من أمر يُذكر، غير أن الشيطان نزغ بيننا بشرٍّ (لعنه الله)، زين لي التمادي في بعض شهوات المنكرات التي

كان لا يُطيقها والدي، فكانت تُغضبه جدًّا حفظه الله، في جميع تصرفاتي أشعر بأني المخطئ، وبأني المذنب أمام رجل يُريد تربية ابنه تربيةً نجديةً صافيةً ..

لم أفكر في يوم من الأيام أن أضع والدي في دائرة اللوم والعتب، ولم أفكر أن أستوقفه في قاعة المحاكمات الأسرية البشعة ..

قطع سالم مواصلة حديثه فجأة؛ نظرًا لسماعه صوت حركة أنفاس خلف باب التكية، ظن هنالك من يحاول أن يسترق السمع لهما، فتحرك خطوتين للخلف؛ ليكتشف من خلف الباب، **فصاح بأعلى صوته:**

من؟ .. بهلول مرة أخرى!!

انقض عليه وجمع ثوبه القذر من صدره بشده، محاولًا رفعه من على وجه الأرض، **وقال له:**

ما قصتك يا بهلول، عوّدتَ آذانك على استراق السمع من أفواه الآخرين، إنها عادة سيئة نمت وترعرعت في أخلاقك، إنك تستمع لحديث الناس دون شعورهم بوجودك ..

ولك بطل من هذي السوالف اللي مو زينه وإلا سأقتلك وأسيّل دمك بيوم من الأيام ..

- يا سالم، چنت خايف عليك من هاذ الرَجَّال، چنت خايف يعمل بيك شي مو زين، ما چنت أتسمّع بقدر ما چنت ناوي حمايتك منه، حمايتي

لمواطن من مواطني التكية دفعتني للوقوف خلف الباب للتصنت لكما؛ مشان أكون على أتم الاستعداد لمساعدتك وقت الحاجة والضرورة، چنت واقف خايف عليك من غدر هاذ الرَجَّال الغريب ..

فضحكا الاثنان على سذاجة رده وبراءة تبريره ..

– اطمئن يا بهلول، هذا سهيل، من أهلي وخاصتي، جاء يسأل عن حالي وأحوالي، والآن أظنك فهمت فاذهب إلى غرفتك غير مطرود ..

فاستأذن بهلول منهما، وسار ببطء شديد مطأطئ الرأس لغرفته.

التفتَ سالم للعم سهيل، وقال له:

سيكون خيرًا إن شاء الله يا عم، يوم غد يوم جمعة، فرصة مناسبة لنقل حاجياتي من التكية للفندق، اطمئن يا عم سهيل، سأكون عند حسن ظنك بي، ولن أخيّبه، لكن عليك أن لا تنسَ شرط اتفاقنا، إنه دينٌ في ذمتي عاجلًا أو آجلًا، سأقوم بسداده ..

فودعه سهيل بحرارة، حاول سالم تقبيل رأسه، لكن الحاج سهيل رفض، ولم يُمكنه من تحقيق هذه الأمنية، فقال: أستغفر الله .. أستغفر الله ..

عاد سالم إلى غرفته بعد أن ودع سهيلًا .. بدأ يُلملمُ كُتبه وثيابه؛ استعدادًا لانتقاله غدًا لمسكنه الجديد، فحدث نفسه بشجون الحمد والشكر والثناء لله، أن جاءت هذه الفرصة المناسبة في وقتها، بعد أن كره السكن في التكية بعد فراق سردار لها، لم يعد يحتمل فراقه، رغم أنه كان يراه في عصر

كل يوم، ويحكي له عن حياته مع زوجته خاتون، يحكي له كيف أصبحت خياطة فساتين نسائية ماهرة، يُحدثه عنها كيف انتعش سوقها وراجت سمعتها؛ بسبب جمال ذوقها في ابتكار الموديلات الجديدة الشائعة في مجلات أزياء النساء، أخبره عن حمل زوجته خاتون، وعن مشكلات حملها الكثيرة التي لا يفقه منها شيئًا ..

قرر سالم أن لا يخبر أحدًا في التكية بخصوص انتقاله للفندق، كعادة أهل الزبير في كتمان مثل هذه الأسرار، عادة قديمة لا زالت باقية من موروثات العادات النجدية المهاجرة معهم في داخل صرة ثيابهم، هم أيضًا أصّلوا المحافظة على مثل هذه الصفة بنص شرعي، مستشهدين بالحديث المروي عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بقوله:

"استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان"، صححه الألباني في جامعه، والقصد منه أن كل ذي نعمة محسود ..

في التكية رجل واحد يستحق إخباره عن انتقاله للفندق، إنه حسين، صديقهما الوفي، الذي يشكل الرأس الثالث في مثلث صداقة التكية ..

ذهب سالم لغرفة حسين؛ ليتحدث معه عن عزمه على الانتقال لفندق الأمين في شارع الإبراهيم، لم يسرد له تفاصيل هذه النقلة المفاجئة، ولم يُوضح له أسباب مثل هذا القرار المستعجل، ولكن ذكاء صديقه ونباهته جعلته في مأزقٍ، عندما سأله عن من سيدفع له مثل هذه التكاليف الباهظة، فرد عليه سالم باقتضاب شديد، إنه إرث حصل عليه مؤخرًا؛ كي لا يدع له مجالًا في التمادي بأسئلة أخرى ..

في صباح يوم الجمعة نهض سالم مبكرًا .. دخل غرفة حسين ليطلب منه مساعدته في نقل متاعه فلم يجده، فعتب على نفسه كثيرًا؛ لأنه لم يطلب من حسين مثل هذه الحاجة عندما أخبره في الليلة الماضية ..

حمل سالم جزءًا يسيرًا من حاجياته، وذهب بها سيرًا على الأقدام إلى فندق الأمين، الذي ليس بعيدًا عن التكية، عليه أن يقطع ما يُقارب الكيلو متر سيرًا على الأقدام، بعد أن يجتاز أولًا بقايا آثار سوق البشوت القديم المسقوف، ثم يدخل من فم سوق الحزم، ليترك دكاكين بيع الأقمشة على يده اليسرى، مثل دكاكين:

الرماح والخليوي والدايل، ويترك القصيرية المفتوحة لبيع الخبز البارد على جهته اليمنى، فيواصل سيره متجهًا نحو الشمال، مارًّا بدكان الملاَّ إبراهيم الخليوي الذي يتجمع عند دكانه مجموعة من النساء مع أطفالهن الرُضع ليقرأ عليهن شيئًا من الرقية المشروعة من الكتاب والسنة النبوية المطهرة، أو يقرأ لهن في قوارير ماء أو في أوعية زيت الزيتون ..

ثم يواصل سيره ما بين رصيف سبيل الماء ورصيف دكان العطار الدليجان، وعائلة الدليجان من أشهر العطارين في الزبير، فقد توارثوا هذه المهنة أبًا عن جدٍ، وكانوا يتعاطون الطب الشعبي، ويُجيدون خلط الأعشاب، ووصف استعمالاتها كأدوية، فيقومون بتوليفة خلطات خاصة من بعض الأعشاب، تنفع لعلاج بعض الأمراض، وأشهر ما يُباع لديهم حبات سكسناتري (693)، المهدئة لجميع الآلام، والتي مفعول تأثيرها

مثل مفعول حبات الأسبرين والبنادول، ويتوفر لديهم الحقنة الشرجية، والمسهل، وخصوصًا شراب الخروع، الذي كانت الوالدة تدس لنا منه ملعقة في كوب حليب الصباح دون علمنا ..

وبعد دكان الدليجان يأتي دكان الونيسي لبيع سرائر الحديد، ثم يمر بمحاذاة دكان الخياط الرجالي المشهور (رحيم)، وقُرب فتحة بابه الغربي يفترش كاظم ڤترينته الزجاجية لبيع السمبوسة مقابل قهوة (كاطع)، الذي اعتاد تشغيل جهاز مسجله بصوتٍ عالٍ .. في فترة الصباح يكون برنامجه قرآن كريم بصوت عبد الباسط عبد الصمد، وفي فترة المساء يكون مختارات من أغاني السيدة أم كلثوم أو عبد الحليم، ثم يأتي مخبز (أبو حديد)، ثم تصل لسوق المسامير وأدوات البناء، ومقابله تقع (علوة النصار)، محل لبيع القصب الجاف والبواري (مفردها بارية)، ومن شارع العلوة يتفرع سوق بيع الطعام والمواد الغذائية، وأشهر البائعين فيه دكان المجيم، ودكان السويدان، ثم يأتي شارع الإبراهيم حيث موقع الفندق ..

سالم يعرف موقع الفندق منذ طفولته كمعرفته لمنزله، عرفه منذ أن فقه خارطة الأماكن، وتعرف على أسمائها، لكنه لم يدخل إلى جوفه في يوم من الأيام، كان بالنسبة له سرًّا غامضًا ولغزًا مجهولًا، كان يجهل معالم تفاصيل ملابس جسده الداخلية، يعرف ملامح هيئته الخارجية المطلية باللون الأزرق الفاتح، والذي تطل شبابيكه الخشبية على شوارعه الثلاثة ..

الفندق يعتبر معلمًا من معالم الزبير التُراثية، يقع الفندق فوق دكاكين قيصرية السريّع، وسميت بهذا الاسم نسبة للعائلة المالكة .. يقع الفندق

على ثلاثة شوارع، فشارع الإبراهيم الذي يحده من جهة الجنوب، وشارع البراحة الذي يحده من جهة الشرق، ثم شارع ضيق جدًّا (سكة) يحده من جهة الشمال ..

تحت هذا الفندق هنالك مجموعة من الدكاكين في القيصرية، ثلاثة محلات لكوي الملابس تفتح شرقًا، ومحل لتصليح التلفزيونات والراديوات لصاحبه زيَور، كردي الأصل، ومحل لتصليح البايسكلات (الدراجات الهوائية) لصاحبه حسن، ومصنع صغير للأكياس الورقية، ثم دكان الحلاق طه، ومقابل الفندق من جهة الجنوب قهوة (حسن موحي)، ومن جهة الغرب منها يقع دكان ناصر المبيض(أبوحسن)، المشهور بطب تجبير كسور العظام وتمزق ورضوض العضلات، ثم يأتي بعده دكان عبدالجبار الدايل، المشهور بصناعة النعال (الصندل الرجالي) المداس الجلدي، منها النوع النجدي والنوع الزبيري والنوع الحساوي، اشتهر دكان الدايل بكونه مركزًا لتوزيع الرسائل بين الأهل والأصدقاء، وغدا محطة بريد لكثير من المسافرين الذين يحملون الرسائل معهم للزبير من السعودية والكويت وبالعكس، وكم من مرة تعرض الدايل للمساءلة من قبل جهات الأمن، بخصوص هذه الرسائل والحوالات المالية ..

ترتقي للفندق عن طريق درج داخل القيصرية، يؤدي بك للرسبشن (الاستقبال) الصغير مباشرة، فالفندق لا يحتوي على صالة استراحة وجلوس ويفتقر للوبي، يتكون من خمس عشرة غرفة، كل غرفة تستوعب من أربعة إلى خمسة سرائر، جرت العادة أن إدارة الفندق تُؤجر الليلة

بالسرير الواحد لا الغرفة كاملة، به ثلاث دورات مياه مشتركة بين نُزلاء الفندق، ليس في الفندق خدمة مطعم أو طلبات شاي، فقهوة (حسن موحي) الموجودة في أسفل الفندق تُقدم مثل هذه الخدمة لنزلاء الفندق، لا يُوجد في الغُرف توصيلة هاتف، ومن أراد الاتصال عليه أن يطلب ذلك من إدارة الفندق في الرسبشن ..

لو خرجت من الفندق واتجهتَ بمحاذاة دكاكين كي الملابس باتجاه الشمال، بعد عبورك لشارع الفندق الشمالي (السكة الضيقة)، لوجدتَ لوندري الزبير المشهور (أول مغسلة أتوماتيكية في مدينة الزبير)، ثم واصلت سيرك، لرأيت مكتبة أحمد الباحسين ، في زاوية الشارع المؤدي لمقهى بلاسم (بلا اسم) المشهورة، هذه المكتبة مشهورة جدًّا بتجليد الكتب المدرسية للصفوف الابتدائية الأولى؛ خوفًا عليها من التلف والتمزق من قبل عبث وإهمال الأطفال، ومشهورة كذلك بتأجير الروايات والقصص والمجلات المستعملة بعشرة فلوس لليوم ولليومين، على الدوام، تنبعث منها رائحة القرطاس المعتقة بأنفاس مادة (الأسفنيك)؛ للمحافظة على موجودات المكتبة من الأرضة (النمل الأبيض)، تقع مقابل هذه المكتبة المشهورة حديقة البراحة الصغيرة، بشكلها المثلث، الذي يتجه رأسه للجنوب وقاعدته للشمال مقابل تانكي الماء، يتجمع فيها شباب المنطقة وزوارها من المناطق الأخرى في كل مساء حتى منتصف الليل، في طرف من أطراف هذه الحديقة رجل اسمه علي (عليّوي) يبيع الكبدة المشوية على

نار الفحم، ورجلٌ آخر اسمه هادي (هويدي) يبيع الشاي المخدر على النار الهادئة ..

عندما تخطو نحو الشرق، قاطعًا حديقة البراحة الصغيرة، ستجد أمامك مشروع تانكي ماء الزبير (خزان الماء) الذي تم افتتاحه في عام 1934م، يُمثل هذا الخزان معلمًا بارزًا من معالم الزبير للقادم إلى مدينة الزبير، خلفه من جهة الغرب يقع مسجد الحصي الذي يؤمه الملأ (إبراهيم الخليوي)، وفي جهة الشمال منه يُوجد كراج يعقوب الشايجي، أما من جهة الجنوب الشرقي منه، فيوجد دكان العطار أبي راضي الدليجان ومغازة عبدالله الحمودي لتجهيز العرائس ومحل باتا المشهور ببيع الأحذية، وقبلهما نحو الغرب حوش يوسف الهميلي لتأجير كراسي الحفلات والعروس، والتي تتميّز بلونها الأخضر ..

وقبل أن تصل لقلب سوق الباطن، وتقاطعه مع سوق البنات، ستشاهد على ضفة الشارع الشمالية عيادة الدكتور نوري الدول، المشهور في علاجه لكافة الأمراض، ومقابلها عيادة الدكتور إسماعيل ثم دكان نومان المشهور.

صعد سالم درجات الفندق المرتفعة الضيقة، فوجد رجلًا اسمه حجي (ناصر) يجلس في الرسبشن، عرَّفه سالم على نفسه، فأعطاه مفتاح غرفته المحجوزة رقم 8، التي سيستقر فيها، ثم سلمه مبلغًا من المال وقدره عشرة دنانير مصروف الأسبوع الأول، ووقعه على سند قبض باستلام المبلغ من الفندق ..

دخل سالم غرفته ذات الشباك المطل على حديقة البراحة، فتنفس الصعداء، وشعر بأجواء الحرية، وتذكر الفرق بينها وبين الغرفة رقم 3 ..

في غرفته سريران بينهما منضدة صغيرة الحجم، فوقها مصحف متوسط الحجم، أوراقه صفراء اللون، يطل من بين صفحاته طرف ريشة نعام، في الزاوية الداخلية من الغرفة مكتب خشبي لونه بني، وكرسي دوار حديد، مكسو بالجلد الأسود .. فوق الركن الأيمن من المكتب، مصباح قراءة لونه أحمر .. في الركن الثاني من المكتب منفضة سجائر فضية تئن من رائحة أنفاس التبغ المحروق ..

لوحةٌ كبيرةٌ معلقة على الجدار الذي خلف المكتب، لطفلٍ صغير تقطرُ عيناه دمعًا، يحملُ شمعةً مضيئة بيضاء اللون، جعلت سالم يهيم بتفكيره كثيرًا بهذا الطفل الذي يحمل شمعة في وسط ظلام اللوحة، كيف تمكن مثل هذا الفنان المبدع من إعادة النور لطريق الطفل الموحل بشدة ظلامه؟!

في الجدار الآخر المقابل للمكتب لوحة كبيرة من قماش مخملي، لونه أسود نُقشَ عليها آية قرآنية بالخط الكوفي وباللون الأخضر العريض:

﴿آ ب ب ٻ ٻ﴾

في الزاوية الثانية من الغرفة خلف الباب دولاب خشبي بني اللون لحفظ الملابس، مكون من بابين، وبداخله جرارتان دون أقفال ..

الفندق - بصورة عامة - لا يُوجد فيه صندوق أمانات، ولا يقبل استلام العهدة من النزلاء، وغير مسئول عن حدوث أية سرقات، كما يُشير الإعلان الورقي الملصق بإهمال خلف باب الغُرف من قبل إدارة الفندق ..

رمى نفسه سالم متهالكًا فوق سريره الحديدي، وقال:

آه .. من زمن طويل، لم أنم على سرير، نسيتُ كيف تنام الناس على الأسرة، جسدي اعتاد النوم على وجه الأرض (منها خلقناكم وفيها نُعيدكم)، كيف سأقضي هذه الليلة الأولى فوق هذا السرير الوثير، قل لي بربك يا سردار: كيف نمت أول ليلة فوق السرير بعد أن هجرت التكية؟ بل كيف نمت فوق سرير بونفرين (مزدوج)؟

سمع سالم طرق باب الغرفة، فتحه وإذ بحسين يحمل باقي متاعه، ويدخل الغرفة، فيجلس على الكرسي الدوار، يُحرك نفسه دورتين متتاليتين باتجاه عقارب الساعة، ثم يتوقف عن لعبة دوران الكرسي، يهنئ سالم ويبارك له على منزله الجديد.

***

مقهى عيسى الحشاش

في قلب سوق الجت (الخضرة) من جهة ضفته الشمالية يقع مقهى عيسى الحشاش، بإدارة صاحبها عيسى، كانت سابقًا تُسمى بمقهى الكردي، نسبة لصاحبها السابق، القادم من كردستان بمنطقة شمال العراق، تقع هذه المقهى ما بين دكان البقمي ودكان المحطب، مقابل دكاكين كل من الفايز والشايجي والمعيلي وملا جمعة، أما دكان الصانع فيقع شرق دكان البقمي، ثم دكان الزايد، المشهور ببيع بطيخ الكرمة، شرقه دكان صغير جدًّا، صاحبه عبدالصاحب (أبو كاظم) ليس من أهل الزبير، يبيع أنواع الحلوى ومشتقات الألبان من جبن وروب وقيمر (قشطة) ..

للمقهى مدخلان متقابلان؛ الأول: الذي يمكن اعتباره المدخل الرئيسي للمقهى، يفتح جنوبًا على سوق الخضرة، والآخر: يفتح شمالًا على منطقة خَرِبة، يرتقي منها متسلقًا الجدار من يُريد قضاء حاجته فوق أسقف الدكاكين.

مساحة المقهى لا تتجاوز العشرة أمتار طولًا، والثلاثة أمتار عرضًا، كأنها ممرٌ بين سوقين من أسواق سوق (الخضرة).

يجلسُ زبائنها متقابلين على تخوت (جمع تخت، كرسي طويل من خشب يستوعب ثلاثة أشخاص) مفروش فوقها حصران من الخوص أو من الجولان، أمام كل تخت طاولة صغيرة جدًّا بسبب ضيق الممر، يُوضع

فوقها إستكاين الشاي (بيالات) وقلاصات الماء (كاسات)، أغلب روادها المدمنين على الحضور فيها دون انقطاع، هم من كبار السن، وبعض منهم من شخصيات المجتمع الزبيري البارزين فيه ..

بعضهم ينتمي لفئة المزارعين القدامى، من الرعيل الأول الذي زرعوا في أرض الزبير، بعض منهم ممن تقاعد عن العمل، واكتفوا بما لديهم من مدخرات واستثمارات، ومنهم من يعتمد في معيشته على أبنائه الذين يعملون في الخارج، بعضٌ منهم يعمل كدلال (سمسار) في بيع وشراء العقارات من بيوت ودكاكين، وآخرين منهم من الأدباء والمثقفين ممن يحفظ متون الشعر ويقرضه، بعض منهم ممن يأتي للاستمتاع بحضور مثل هذا المجلس الأدبي الثقافي الاجتماعي ..

حريصون على بضعهم البعض، يتفقدون ممن يحضر معهم، ويسألون عنه في حالة غيابه وسفره، في بعض الأحيان، يرتفع لديهم رتم شهوة أحاديث الرجولة، فتتوسع دائرة أحاديثهم الأخوية، لتتسرب لحكايات غرف النوم، فتسمع ضحكة هنا وضحكة هناك على حياء، فبعضهم مثلًا يعتبر التمر خير علاج لمشكلة عجز الرجولة، ويقولون عنه بفخر إنه مسامير الركب، دون الاهتمام برفع نسبة السكر في الدم؛ مما يؤدي إلى انتكاسات صحية لبعضهم، وخصوصًا ممن يعاني منهم من مرض السكر ..

المقهى تعتبر مصدرًا من مصادر تمويل تلقي الأخبار المحلية وشيوعها بين الناس، من أخبار الزيجات والسفريات والوفيات والمواليد والأخبار الاجتماعية بصورة عامة ..

كثيرًا ما كانوا يتقافزون بنشاط وحيوية لمتابعة جنازة مسرعة مرت قرب المقهى؛ من أجل حملها على أكتافهم، والسير خلفها عدة خطوات قبل العودة للمقهى ..

ناهيك عن نقلهم للأخبار العالمية والصراعات الدولية التي تحدث في العالم، منقولة عن إذاعة راديو (أبو لندن) أو عن إذاعة راديو (مونتوكارلو) أو إذاعة صوت العرب المصرية، التي زرعها الرئيس جمال عبد الناصر، محاولًا فيها التأثير على هاتين المحطتين المعشوقتين عند العرب.

لذا تختلط الأخبار المحلية بالأخبار العالمية في مجلسهم، ولكنها بلهجة النكهة الزبيرية، التي سريعًا ما تذوب آثار أخبارها عند دخول أحد الزبائن الغرباء عليهم في المقهى، فيتبرع أحدهم بتنبيه الحضور، خصوصًا هؤلاء الذين يُعانون من ضعف في النظر بصوتٍ عالٍ مسموع؛ لكي يصل صوته لمن هم ضعيفي السمع كذلك، **بقوله:**

(في التمن شلب)، والتمن يعني فيها (الرز) أما (الشلب) فيعني الرز غير المقشور، ويعني هذا المثل، عليكم الانتباه في الكلام من هذا الغريب ..

في هذه اللحظة وقفت سيارة فلكس واجن أمام المقهى، لونها بنفسجي، ترجل منها اثنان، دخلا المقهى دون سلام، فاقتادا الحاج سهيل بن سليمان ومعه اثنان آخران، حاول سهيل بشجاعةٍ الاستفسار عن سبب اقتيادهم، فرد عليه أحدهما، بقوله: بالمركز راح تُعرف القضية ..

تجمهر حول السيارة لفيفٌ من أصحاب الدكاكين والمتسوقين والباعة؛ لمشاهدة ما يجري .. تم التشاور فيما بين الواقفين على سرعة مساعدتهم،

وعليهم أولًا اللحاق بهم لمركز الأمن؛ لمعرفة القضية من أجل مد يد العون لهم ..

كَثُرَ القيل والقال بخصوص احتجازهم، كَثُرتْ الروايات المنقولة عن سبب القبض عليهم في المقهى، فلم ينته اليوم إلّا وخبر القبض عليهم قد شاع وذاع في كل منزل من منازل مدينة الزبير، انتقل خبر القبض عليهم بسرعة رهيبة، أسرع من انتقال الأخبار عبر الإنترنت، فشبكة نقل مثل هذه المعلومات سريعة جدًّا، ومع انتشار خبرهم انتشرت كثرة الروايات وتعددت عن سبب القبض عليهم وتنوع رواتها، أشهر هذه الروايات اتهمت بعضًا منهم بتهريب السجائر الأجنبية من دولة الكويت، وبيعها في السوق السوداء، مثل سجائر الروثمن والمالبورو المشهورين، وفي رواية ثانية أقل من الأولى في صحة سندها، اتهمتهم في العمل بتجارة العملات الأجنبية غير المرخص فيها (بيع وشراء عملات)، مثل الدينار الكويتي والريال السعودي، وفي رواية ثالثة حكت لنا عن قوة جرأتهم في الحديث بالمقهى بصورة علنية عن مشكلة غلاء الأسعار في أسواقنا المحلية، ومشكلة تدهور سعر صرف الدينار العراقي مقابل الدينار الكويتي، وفي رواية رابعة، وهي أخطر هذه الشبهات، تدور حول اتهامهم بالانتماء إلى تجمعات سياسية، تؤيدها بعض الدول الخليجية؛ من أجل إعادة أمجاد إمارة مشيخة الزبير المفقودة، والمطالبة باستقلالها عن العراق ..

ومهما كثرت الروايات وتنوعت، إلّا أنها جميعًا لم ترتقِ إلى الحقيقة التي لا يعرفها إلّا القليل ..

في غرفة المباحث دارت رحى التحقيقات المنفردة على هؤلاء الثلاثة، في أوقات متفاوتة، بعد أن وضعوهم في سجن التوقيف لمدة يوم كامل، دون طرح أي سؤال ..

كان هدفهم الحاج سهيل بن سليمان، وقد أخذوا معه الاثنين من باب التمويه على الموجودين، أسئلة طويلة ومكررة من قبل ضباط التحقيق ..

ما اسمك؟ مهنتك؟ عمرك؟ جنسيتك؟ انتماؤك الحزبي؟ من أصحابك؟ من أقاربك؟ من تعرف من الناس؟ كم تملك؟ ما صلتك بفلان ابن علان من الناس؟

بعد يومين من التحقيقات، أفرجوا عن اثنين من المعتقلين منهم، وأبقوا الحجي سهيل بن سليمان في التوقيف وحيدًا ..

ينتظرون أول غفوة نوم له في ساعات الليل المتأخرة، أو في ساعات النهار؛ لطلبه مقيدًا للتحقيق معه من جديد ..

ما اسمك؟ ما عملك؟ ماذا تعمل في الكويت؟ لماذا تضع صورة الملك في مجلسك؟ ما رأيك بالرئيس؟ ماذا تأخذ معك للكويت؟ من هؤلاء الذين تأتي لهم برسائل من الكويت؟ ما علاقتك بهم؟ من الذي يرسلها لهم في الكويت؟

وبعد سماع إجاباته غير المقنعة لهم يُعاد للتوقيف مرة أخرى؛ لعدم اعترافه بالتهم الموجهة له، وظنهم بأنه يكذب عليهم ويخفي الحقائق؛ لذا هم لجأوا لممارسة بعض وسائل التعذيب؛ لنزع الاعترافات منه بالقوة، خصوصًا مسألة الرسائل الكثيرة التي يقوم بتوزيعها في عودته من دولة الكويت، وفي بعض الأحيان يقوم بتوزيع أموال معها، أو توزيع أموال بدون رسائل ..

في كل استجواب يعيد على مسامعهم نفس إجاباته السابقة دون تغيير، وهي:

اسمي سهيل بن سليمان، أعمل في تجارة الخط (أشتري بضائع من الزبير وأبيعها في أسواق الكويت، وأجلب بضائع من الكويت وأبيعها في أسواق الزبير بطرق رسمية نظامية عبر مفتشي جمارك سفوان)، أنا سعودي الجنسية؛ فلذا أضع صورة ملكنا حفظه الله في مجلس منزلي الخاص، ولم أضعها في مجلس عمومي، ليس لي رأي بسيادة الرئيس - حفظه الله - ومن أكون لتعرفوا رأيي في سيادته، الرسائل التي أقوم بتوزيعها رسائل الأهالي والأقارب، أحملها من أبنائهم الذي يعملون في دولة الكويت إلى أهاليهم المقيمين في مدينة الزبير، وفي كثير من الأحيان أحمل معها في نهاية كل شهر مصاريف أهاليهم، مقتطعة من رواتبهم .. في بعض الأحيان يُرسل معي بعض من تجار الكويت - جزاهم الله خيرًا - جزءًا يسيرًا من زكاتهم وصدقاتهم للفقراء والمستحقين في مدينة الزبير، فأقوم بتوزيعها على المستحقين حسب معرفتي الخاصة بهم، وأسماء هؤلاء الذين كنت أوزع عليهم كثيرة، ودونت لكم قائمة بأسمائهم؛ للتأكد من فقرهم وحاجتهم ..

وهكذا تنتهي حصص التحقيق في كل مرة، ثم يأتون به مرات ومرات من جديد على مدار ساعات اليوم دون فائدة .. تعرض للضرب والقهر أكثر من مرة.

***

الشعيَّبة

أول شيء فعله سالمٌ عندما إنتقل للسكن في الفندق مسارعته في التعرف على معالمه العمرانية ونوعية تركيبته السكانية، وأول هذه المعالم التي يجب التعرف عليها (معرفة جيرانه) وتوثيق صلة العلاقة معهم؛ لأنه يعرف قيمة الجار وكما يقولون في المثل الشعبي الدارج على لسان الكبير والصغير (الجار قبل الدار)، ومن أمن جاره عاش سعيدًا في داره، والرسول - صلى الله عليه وسلم - أوصى بسابع جار، وقال الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام: **"ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننته أنه سيورثه"** ..

أقرب جيران له، هم من يسكن في غرفة رقم 7، وغرفة رقم 9، فأرضُ وطنه تقع بين هذين الجدارين، عَرفَ من العم ناصر مدير الفندق بأن الغرفة رقم 9 فيها أربع سرائر، تُؤجر في اليوم وليس فيها زبون دائم السكن مثله، وليس بين نُزلائها أية علاقة غير مشاركة النوم، شأنها شأن سُكان التكية، فنزيل الفندق يُؤجر سريرًا للنوم، وغالبًا ما يكون نُزلاء مثل هذه الغرف ممن يأتون من خارج محافظة البصرة لقضاء بعض الأعمال في مدينة الزبير، ومعلومٌ أن وقت إخلاء الغُرف يكون في تمام الساعة الثانية عشر ظهرًا، نُزلاء هذه الغُرف المؤقتين لا يمكن مد معهم جسور علاقة الصداقة

والمعرفة؛ لأنهم عابرو سبيل، ولهذا فإن سالمًا لم يهتم بشأن أمر نُزلاء هذا الوطن، كان يكفيه إلقاء التحية عند مقابلتهم في أثناء الدخول والخروج، وكل يوم يُشاهد وجوهًا جديدةً في الفندق ..

ركز اهتمامه في التعرف على سكان الغرفة رقم 7، التي يقطنها ضابطان من القاعدة الجوية العسكرية في منطقة الشعيبة، الأول منهما اسمه صلاح، نقيب في سلاح الهندسة، ممن يصممون مباني الجسور والطرق لعبور الآليات العسكرية في الميادين ..

أما الآخر، فاسمه قيس، نقيب في مقر إدارة اللواء .. (ل 15 ف ف1)، وهذا مصطلح عسكري عرفه سالم فيما بعد منهما، ويعني:

اللواء الخامس عشر، الفرقة الأولى، فوج مشاة ..

كلاهما من أهل بغداد، وتنحدر أصولهما العُرقية من محافظة الرمادي في غرب العراق، الاثنان خريجا كلية الهندسة من الجامعة المستنصيرية فرع بغداد ..

تم نقلهما لمعسكر قاعدة الشعيبة الجوية من معسكر الوشاش في مدينة بغداد؛ نظرًا للضرورة العسكرية، وتنقلات كثيرة حدثت في الآونة الأخيرة؛ بسبب كثرة التحرشات الفارسية على قُرى الشريط الشرقي المتاخمة للحدود الشرقية للعراق، وهكذا الحياة العسكرية لا يمكن أن يستقر فيها أفرادها بمكان ثابت، حياتهم كلها تنقلات من معسكر إلى معسكر، ومن ميدان إلى ميدان آخر، وعلى القيادة الواعية للجيوش أن تعلم

بأن بقاء أفراد الجيش دون حركة تنقلات متتالية مفسدة لهم، وتسبب مشكلات داخل المعسكرات؛ لذا كان على القيادات لزامًا إشغالهم في حركة التنقلات الكثيرة والتدريبات الميدانية لساعات طويلة .. حدثه أحدهما عن مفهوم فلسفة التعامل مع الفرد العسكري في داخل الميدان العسكري، **فقال:**

في يوم من الأيام رأيتُ أفراد كتيبتي على خلاف حاد فيما بينهم، وصل بهم التوتر العصبي لدرجة التقاتل؛ بسبب خلافات طائفية موروثة، كانت كالألغام المزروعة تحت الأرض، لا يمكنك مشاهدتها واكتشافها، ولكنها مهيأة للانفجار في أي لحظة، فلما اكتشفتُ الأمر وعرفت من يقف وراءه، تيقنتُ بأن الفراغ الذي يعيشون فيه كان خلف تفاقم مثل هذه المشكلات الراكدة في مياه وحدة الوطن، فطلبتُ منهم على الفور حفر خندق كبير، بعمق مترين، وعرض خمسة أمتار، وبطول خمسين مترًا، فلم يتمكنوا من الانتهاء منه إلّا في وقت العصر، وفي صباح اليوم التالي أمرتهم بدفن هذا الخندق قبل أن يحل المساء ..

منطقة الشعيبة تقع شمال مدينة الزبير، وتبعد عنها بحدود العشرة كيلو مترات من مركز المدينة (الدروازة)، أرضها مرتفعة نسبيًّا، وهواؤها نقي، تكثر فيها مياه الآبار، كان أهل الزبير يعتمدون على بعض آبارها وآبار الدريهمية قبل مشروع مصلحة المياه التانكي (الخزان) كما أسلفنا سابقًا ..

بنى بعض أهالي الزبير الميسورين لهم قصورًا (استراحات) فيها،

وجعلوها متنفسًا لهم في موسمي الشتاء والربيع بالذات، أما متنفسهم الصيفي فيقع بمنطقة الجنوبات (مناطق بساتين النخيل في البصرة)، مثل أبي الخصيب ومهيجران والفياضي والسراجي، إلى آخره من هذه الأسماء ..

من أبرز معالم منطقة الشعيبة، مطار الشعيبة العسكري، الذي أسسه الإنكليز بعد انتصارهم على الأتراك في معركة حامية كثر فيها الضحايا، دارت رحاها في هذه المنطقة في عام 1915م بقيادة (سليمان عسكر)، انتصر فيها الإنكليز؛ نظرًا لكثرة عددهم، ونوعية عتادهم .. كانت بواخر الأسطول البريطاني تقذف بحمولتها في ميناء أم قصر بالعتاد والرجال من المستعمرة الهندية، كان جيشهم خليطًا من الإنكليز ومن مرتزقة مستعمراتهم الكثيرة، وخصوصًا المستعمرة الهندية في ذلك الوقت ..

من أبرز المشاركين الذين خاضوا هذه الحرب (راجو) والد سردار، كان برتبة رئيس عرفاء، وهي أعلى رتبة يتقلدها مرتزق في نظام العسكرية البريطانية.

تعرف راجو على مدينة الزبير، وعرف أهلها، وأنشأ علاقة صداقة متينة مع بعض العوائل الزبيرية، وخصوصًا المقيمين منهم في البصرة ..

في أيام الحرب العالمية الثانية اتخذها الإنكليز مستشفى لجرحاهم، ثم جعلوها مستودعات لمعدات الحرب، عمل في مشاريعها الكبيرة كثير من الخلق، فكانت مصدر رزق للعاطلين عن العمل في المنطقة، والوافدين من

أجل العمل فيها ..

أما شعيبة حاضر أبناء الجمهوريات، فهي قاعدة جوية كبيرة، فيها من المخازن الكثيرة الممتلئة بكميات كبيرة من الذخيرة والأسلحة، هي مقر اللواء الخامس عشر، الفرقة الأولى، فوج المشاة ..

فوج المشاة مكون من مجموعة من الكتائب، تتصدرها كتيبة قيادة مقر اللواء، ثم كتيبة مدفعية، ثم كتيبة هاون، فكتيبة وحدة الميدان الطبية، وكتيبة سرب الطائرات، وكتيبة لواء المغاوير ..

ولو عَلمَ أهل الزبير بحجم الذخيرة المخبأة تحت باطن أرض الشعيبة لما جلسوا ساعة واحدة فيها ..

في منطقة الشعيبة محطة قطار ليست بعيدة عن القاعدة الجوية، يقف فيها القطار المنطلق من محطة المارقيل في العشار إلى محطة بغداد وبالعكس، هما رحلتان بين بغداد والبصرة، في الصباح والمساء، هذه المحطة ليست بعيدة عن مقبرة الشهداء التي وقعت فيها مجزرة المعركة الآنفة الذكر بين الإنكليز والأتراك ..

تعرّف سالم على كل من صلاح وقيس، اللذين يُقيمان معه بنفس الفندق ويسكنان في الغرفة رقم 7 .. قابلهما في قهوة (حسن موحي)، الواقعة أسفل الفندق، جلس معهما يشرب الشاي مرات ومرات، عرَّفهما على رقم غرفته،

وعن نبذة مختصرة من سيرة حياته، فعرّفاه عن أدق التفاصيل في سيرة حياتهما، هكذا حياة العراقي، يفتح لك قلبه في سرد أدق التفاصيل عن سيرته، عكس حياة الزبيري النجدي، الذي تستحلب منه قطرات سيرته وخصوصياته استحلابًا، يُحدثك عن شئونه الخاصة بالقطارة، وبقياسات قطعة المليمتر ..

ركب معهما في سيارتهما العسكرية عدة مرات، ذهب معهما للبصرة كثيرًا ولعدة أماكن، شاهدَ بعض من أصدقائه من شباب البراحة سعة انفتاحه غير المبرر على هذين الرجلين الغريبين، فانتقدوه همسًا بينهم، ولم يرغبوا في مجالسته .. شعر بنبرة جفائهم نحوه، وتطاير شرار بعض كلماتهم في حضوره، فاعتزلهم وترك مجلسهم؛ كرامة لمحبة أصحاب فندقه الميامين ..

ذهب معهما للمعسكر أكثر من مرة، فوجده عبارة عن وحدات (متجحفلة)، أي أكثر من معسكر للضرورة الأمنية، تعلم كثيرًا من المصطلحات العسكرية، بدأ يفهم شيئًا جديدًا اسمه الفكر العسكري وفلسفته ..

في حفلة عيد ميلاد قيس جاءت له دعوة خاصة في المعسكر، أصحاب قيس أقاموا له حفلًا بسيطًا في المعسكر، يليق بمحبتهم له، ركب مع قيس في سيارته العسكرية، عند وصوله للمعسكر توقفت السيارة عند سارية علم الجمهورية، وعند المدخل الرئيسي للمعسكر، سأل أحد حراس الشرف الذين يرتدون ملابس خاصة في النهار، أما في الليل فبملابسهم

الخاكية الاعتيادية:

من معاك سيدي لتسجيل اسمه في سجل الزوار؟

فرد عليه قيس:

اكتب الزميل سالم يا زمال (يا حمار)!!

- حاضر سيدي.

دخلا المعسكر، فتوقفا عند باب النادي؛ ليأخذ سيارتهما فردٌ من أفراد الجنود الواقفين عند الباب؛ ليضعها في الموقف المخصص للسيارات، ثم دلفا لنادي الضباط، لفيف من صف الضباط، رحبوا بسالم بعد أن قدمه قيس لهم، كان يرتدي البنطلون الأسود والقميص الأصفر، جلس سالم هادئًا بين الرتب العسكرية المذهبة، بعض من هؤلاء الضباط من هو بعمره وآخرون أكبر منه بكثير ..

هنأوا جميعهم قيسًا بعيد ميلاده، وسألوه أن يقتطع الكيكة المنقوش اسمه فوقها، طلب من سالم مساعدته في ذلك ..

أثناء تقطيع الكيكة، **قال سالم هامسًا لقيس:**

ولك كأنك ورطتني مع هذه النجوم ..

فضحك قيس كثيرًا بصوت مرتفع، **وقال:**

ياب، سمعوا هزبيري شيقول .. ههه .. ههه ..

يقول: ورطتني مع هاي النجوم ..

فرد عليه صلاح بقوله:

مو النجوم ضاعت ويا هلقمر الجاي ..

فضحك الجميع بما فيهم سالم، الذي احمر وجهه من الخجل ..

بعد منتصف الليل وبعد هذه الحفلة الساهرة التي كانت في نادي المعسكر، عاد سالم للفندق وحيدًا بسيارة عسكرية، يقودها فرد من جنود المعسكر، وعند مروره من كاونتر الاستقبال، طلب منه العم ناصر (مدير الفندق) أن يتوقف قليلًا ليتحدث معه، وظن سالم أنها بعض النصائح التربوية التي يريد إراقة ماء دلوها في إذنه ..

قال له: هل سمعت بحبس حجي سهيل بن سليمان؟

- لا .. لا .. لم أسمع ..

- صار له أسبوعان محبوس، أخذوهم من القهوة، هم ثلاثة، أفرجوا عن اثنين منهم بعد كم يوم من القبض عليهم، وسهيل لا زال محبوسًا، ومحد عارف شنهي القضية وشنهي تهمته؟

سكت سالم وغادر المكان لغرفته دون أن ينطق بكلمة، رأسه ثقيل يكاد أن ينفجر مما هو فيه، لقد أثقل المعيار دون حساب، خصوصًا أنها دعوة مجانية مجنونة ..

دخل غرفته فرمى نفسه على السرير دون شعور، لم يتمكن من الاستيقاظ إلا مع سماع صوت أذان الظهر، القادم من ميكرفون مسجد الحصي ..

تَذكرَ قضية سهيل، فلام نفسه كثيرًا على هذا التكاسل، واستغرب كيف أن النوم سرقَ معظم وقته، ذهب ليستحم، فوجد دورات المياه المشتركة بين نُزلاء الفندق مشغولة، وشاهد من هو جالس عند بابها واضعًا منشفته على رأسه ينتظر دوره، طرق الباب أكثر من مرة لاستعجال من بالداخل، لم تُجدِ كثرة طرقاته، ولم يرد عليه أحدٌ، هكذا هم اعتادوا، من يدخل مثل هذه الدورات المشتركة، عليه تجاهل مثل هذه الطرقات المزعجة، حتى ينتهي من إتمام مهمته كاملة، فلعنَ سالم وقتها كلَ ما هو مُشتَرَكٍ ولعنَ جميع الاشتراكيات والماركسيات والقوميات، لعن كل دُعاتها ومنظريها ولعن جميع تنظيمات الأحزاب ..

أخذ ثيابه ومنشفته وذهب لدورة مياه مسجد الحصي القريب من الفندق، استحم هناك بماءٍ باردٍ، ثم أدى صلاة الظهر مع جماعة المسجد، وسأل الله أن يوفقه بمساعدة هذا الرجل الطيب العم سهيل بن سليمان ..

اتصل سالم من هاتف الفندق على صديقه قيس، الذي كان مناوبًا ليلة البارحة في المعسكر، **فقالوا له:** ذهب في مهمة رسمية للبصرة صباح هذا اليوم، وسوف يعود في المساء للمعسكر، طلب منهم التحدث إلى صلاح، فقالوا له إنه نائم؛ لأن نوبته في المساء ..

اتصل مرة أخرى على كتيبة قيادة مقر اللواء الخامس عشر في الشعيبة، وطلب منهم إيقاظ صلاح لأمر مهم جدًّا خاص في عائلته، قال لهم إنه من صديقه سالم الذي ينتظر مكالمته بسرعة في فندق الأمين ..

بعد نصف ساعة من اتصاله يرن جرس الهاتف في فندق الأمين، ليسمع سالم صوت صلاح يتحدث إليه في الطرف الآخر ..

هاه ولك .. شبيك؟ خرعتني ..

- شنو صاير بهلي ..

- ماكو إلّا الخير إن شاء الله، والقضية مو يم أهلك، كل القضية أنا محتاج لك، وشلون أقعدك من النوم ..

- ولك طيّحت قلبي، الله يطيّح قلبك في مصيرك الأعور ..

- مو مشكلة .. يطيح بالأعور ولا يطيح بالثخين .. أو بأي مكان بخارطة جسمك، المهم أنا محتاجك حيل حيل ألحين.. شلون تبي تساعدني؟

- تأمر أمر ولك يا سَلوم .. قل لي شبيك وهسَ أجيك ..

شرح له المشكلة، ثم أخبره صلاح بأنه سيتكلم مع قيادة مقر اللواء بهذا الخصوص ..

ومع أذان العصر يصل النقيب صلاح بالزي العسكري للفندق، ليأخذ سالم معه في السيارة العسكرية التي كان يجلس في مقعدها الأمامي العقيد ركن لؤي قائد كتيبة سرب الطائرات؛ ليذهبوا لمقر الأمن، وهناك يشاهد سالم أثر التعذيب الذي تعرض له سهيل خلال فترة احتجازه، ويرى مراسم الحفاوة والاستقبال من قبل أفراد جهاز الأمن للعقيد ركن لؤي ..

خرج سهيل من التوقيف، بعد أن وقعَ على تعهدٍ بعدم نقل أية رسائل مستقبلًا بين الكويت والزبير، مع مراعاة عدم توزيع أموال على الفقراء والمحتاجين، إلا بموافقة رسمية من قبل جهة الأمن.

***

سفوان

في أثناء عودة سالم من الجامعة مرهقًا بعد مشوار رحلة طويلة من منطقة التنومة إلى مدينة الزبير، مجموعة من التنقلات في المواصلات من سيارة إلى سيارة أخرى، تخللتها رحلة عبور شط العرب بالطبقة (العبّارة)، حتى وصل لموقف سيارات الأجرة في مدينة الزبير القريب من مسجد الدروازة، الموقف الذي يقع في ساحة كبيرة مقابل مدرسة الزبير الابتدائية للبنين من جهة الشرق، وجد صديقه حسين جالسًا في انتظاره بالفندق، يتحدث مع العم ناصر عن مواضيع عامة لقتل وقت الانتظار، رحب سالم بحضوره، وأخذ بيده لغرفته الخاصة ..

تحدثا في الغرفة عن كل شيء، بما فيها سيرة صديقهم سردار، ثم قطع حسين الحديث، **بقوله:**

أحتاج مساعدتك يا سالم .. أريد الذهاب للكويت ..

ليتك تتحدث لشخصٍ من ربعكم يكلم رجل اسمه (أبو محسن)، يتوسط لي عند مدلول، فَمدلول لا يقبل الشخص الذي لا يعرفه ولا يتم تعريفه وتزكيته من قبل الثقات، مدلول له علاقة طيبة مع أبي محسن، يجلسان دائمًا في مقهى الزواريع جنب بعض ..

قبل يومين ذهبت لمدلول مشان (من أجل) يأخذني معه للكويت، فأنكر قيامه بمثل هذه الأعمال، فتركته ولم أدخل معه في نقاش ..

مدلول كان شاويًا، ثم رزقه الله في تجارة الأبقار (يبيع ويشتري) خصوصًا بين الكويت والزبير، كل يوم يجلس في قهوة الزواريع (المزارعين) القريبة من سوق السكراب (الحراج)، فهو قصير القامة؛ فطوله متر ونصف، ووزنه لا يتجاوز الستين كيلو غرامًا، يلبس دائمًا الشماغ الأسود والعقال، ويضع تحت إبطه بشته الأسود، الرجل من عشائر القرنة، ومن المهاجرين لمنطقة الزبير منذ ما يقارب العشرين سنة، يوم اجتاح فيضان عظيم مزارعهم وزرابي حيوانتهم (جمع زريبة) ..

يا سالم ..

أنتَ تعرف سبب مجيئي للزبير، أريد الذهاب للكويت تهريبًا (بطريقة غير شرعية)، جمعت ما يكفيني من مبلغ خلال فترة وجودي بالزبير؛ لدفعه لرجل سمسار مثل مدلول ..

في الكويت الحياة جميلة، وفيها فرص كثيرة متاحة للعمل، يمكن هناك أحصل على عمل في الصحف المحلية لتحقيق أحلامي ككاتب صحفي، ومنها سأحصل على إقامة رسمية، معي جواز صالح للسفر لمدة خمس سنوات، لم أتمكن من الحصول على فيزا لدخول الكويت رغم كثرة محاولاتي في السفارة الكويتية، الحصول على الفيزا صعبة جدًّا، وتحتاج إلى معرفة شخصية، وداعيك (حضرتي) لا يعرف أحدًا ذا منصب مهم في الكويت ..

- يا حسين ..

لنفترض أنك دخلت الكويت، وين راح تنام؟ وين راح تأكل؟ وشلون راح تدبر حياتك، طبعًا أهل الكويت ما عندهم تكية مثلنا تندعس فيها وتأكل المقسوم لك ..

– لا تخف يا سالم، عندي أرقام تليفونات بعض من أهلي وأصدقائي، هم سيستقبلونني ويهتمون بأمري، حتى أتمكن ...

– على بركة الله طالما أنك مقتنع بما تراه .. ليس لنا غير العم سهيل بن سليمان، سأذهب إليه غدًا في المقهى، وأتحدث معه بخصوصك، وكان الله في العون ..

في صباح اليوم التالي ذهب لمقهى عيسى الحشاش قبل أن يذهب للجامعة، فلم يجد العم سهيل، ولم يجد ندماؤه الذين كانوا يتحلقون حوله في المقهى، فسأل صاحب المقهى عيسى عنهم، **فقال له:**

من ذلك اليوم المشئوم الذي قبضوا فيه عليهم لم يأتوا هنا، أصبح أكثر زبائن المقهى من الغرباء الذين لا نعرف أسماءهم وأنسابهم، كل منهم يدعي أنه من أهل مدينة الزبير، حتى أن بعضهم يُقلد لهجة الزبيريين بكلمات لا تنتمي لأصول اللهجة الزبيرية النجدية ..

فسأل أصحاب الدكاكين عن موقع منزله، فأنكروا معرفته، فغادر السوق متوجهًا للفندق فلحق به رجلٌ وسار خلفه حتى اقترب منه، وقال له:

يا وليدي .. يا ولد الحجي ..

الربع كلهم يعرفون مكان منزله مثل معرفة منازلهم، ولكنهم لم يجرأوا على إخبارك لخوفهم عليك وعليه من القارص (الأمن)، اعذرهم في مثل هذا؛ لأنهم سمعوا سوالف كثيرة عن توقيفه لا تسر الصديق ..

منزل الحجي سهيل في محلة الشمال، خلف مسجد الباطن، في السكة السد التي تقع مقابل باب المسجد الشمالي، رابع منزل على يدك اليمين، لون الباب أزرق محروق، فوق الباب مطري (لمبة إضاءة ليليّة، لها حماية عن المطر) ..

فقرر سالم الذهاب في هذه اللحظة؛ لأن خير البر عاجله ..

فطرق باب المنزل حسب ما وصفه الرجل، خرج حجي سهيل ليفتح الباب ليجد سالمًا واقفًا عند الجهة الجنوبية من الباب؛ كي لا ينكشف له حرم المنزل عند فتح الباب، رغم وجود بَردة (ستارة)، فرحب به كثيرًا وأدخله في الديوان (المجلس الخاص بالرجال)، وطلب ممن في داخل المنزل إعداد شيء خفيف لهذا الضيف الغالي ..

بعد أن سأله عن حاله وعن أخباره ودراسته، **قال حجي سهيل لسالم:**

يا بني لم يعد لنا في هذا المكان من مقام، أصبحنا نخاف على أرواحنا وأهلنا وأموالنا من كل حركة، ومن كل تصرف لا إرادي غير مقصود، من بعض هؤلاء الذين ليس في قلوبهم رحمة، ولا يخافون الله فينا ..

يا بني لقد عزمت الرحيل والعودة لديرة ابن سعود، سأسكن في الدمام إن شاء الله، قريبًا سأبيع المنزل، وأقوم بتصفية كل ما أمتلك، وأسافر دون عودة للزبير مرة أخرى ..

- لكن يا عم ..

- فقاطعه حجي سهيل بقوله:

الموضوع منتهي يا سالم، وكنت ناوي أزورك في الفندق، وأخبرك وأسلم عليك قبل أن أذهب، وسوف أستمر بدفع مصاريفك، وسوف أعطيك عنواني في الدمام لو كانت لك حاجة، أو جئت لزيارة ..

- يا بني ..

الوضع غير آمن وغير مستقر، ديرة ابن سعود أكثر أمان واستقرار، والعودة لأرض الوطن ضرورية، إلى متى نحن نُعاني من لوعة الغربة والهجرة عن بلادنا الغالية، كفانا ضياع في مثل هذا العمر ..

- يا عم سهيل أنا جئتُ لك في خدمة لو سمحت ..

- تفضل يا سالم، علني أقوم فيها ..

- لدي صديق عزيز، أعرفه وأثق فيه، له رغبة في السفر للكويت، وأريدك أن تتحدث مع شخص اسمه (مدلول) ..

- ومن يكون مدلول هذا؟ أرجو أن لا يكون مديرًا للجوازات!!

- لا .. إنه يقوم بالتنسيق لمن يريد أن يذهب تهريبًا للكويت ..

- أنت تعلم ماذا جرى لي أخيرًا، مجرد توزيع رسائل بين الأهالي، توزيع فلوس على فقراء مستحقين المساعدة، أظنك لا تعلم ماذا فعلوا بي، لا أستطيع أن أتكلم لأني وقعتُ على تعهد لديهم بعدم الكلام عن أي شيءٍ

حدث لي في المركز، عندما ستزورني في ديرة ابن سعود سأخبرك عن كل شيء يا سالم، أرجوك أن تعذرني عن هذه المهمة يا بني لأنك تعلم بأني ربما مُتابع ومراقب من قبلهم، وربما زيارتك هذه مرصودة لديهم، والله يُعينني على اختلاق السبب إن كانت كذلك ..

- كما تُريد يا عم، وآسف على إزعاجك، ثم ودع سالم العم سهيل، وتمنى له التوفيق والنجاح، وخصوصًا أن اختبارات نهاية السنة شارفت على الأبواب ..

رجع سالم للفندق، ولا يعلم ماذا سيقول لصاحبه حسين بخصوص اعتذار حجي سهيل، جلس فوق الكرسي في غرفته يتأمل اللوحة المعلقة أمامه: ﴿ٱ ب ب ٻ ٻ﴾ ..

لا يعلم ماذا سيفعل .. من سيُكلم غيره ..

مشكلة مدلول بحاجة لشخصية ثقة ومعروفة مثل حجي سهيل، بحاجة لمثل مميزات هذه الشخصية النادرة ..

اعتكف في ذلك اليوم في غرفته، بين مذاكرته استعدادًا للاختبارات النهائية التي قرب موعدها، وبين التفكير بصاحبه حسين ومساعدته، كيف يعتذر له عن مثل هذه الخدمة، لكن لا يزال الفتح الرباني ماثل أمام عينيه بخصوبته، كما كانت البشارة بفتحها على نبيه محمد - عليه أفضل الصلاة والتسليم - ستأتي البشارة لكل البشر، إنه يقين الإيمان بالله - عزوجل، إنه يقين التوحيد بنور الأمل، فلا يزال الرجاء بالله موجوًدا ..

قفز إلى فكره رجل اسمه (محمود)، يمتلك مزرعة في سفوان، ابنه سعود يدرس معه في الجامعة في كلية الصيدلة وكان زميلًا له، تعرف عليه في الثانوية ثم فرقتهما الكليات في الجامعة، هم من منطقة ديم خزام، أكثر من مرة ذهب معه لمزرعة والده، والده يعرفه جيدًا، ولابد من أبي سعود أن يعرف مدلولًا؛ لأن الاثنين من ندماء مقهى الزواريع ..

وفي أثناء تكاثف قطرات هذا المد الرباني على ذاكرة سالم، سمع طرقًا على باب غرفته فنهض ليرى من الطارق على بابه ..

فتح الباب وإذ بحجي سهيل بن سليمان يدخل غرفته بشحمه ودمه، رحب به وطلب له شايًا من المقهى، **وقال له سالم:**

نوَّر الفندق ونورتْ الغرفة بحضورك يا عم سهيل، ما هذه الفرصة الطيبة المباركة؟

- الفندق منوِّر بوجودك فيه يا سالم ..

- يا بني لا أريد أن أزعجك، خصوصًا من خلال نظرتي للطاولة أراك منشغلًا بالمذاكرة، جئت لأقول لك: إني بالأمس كلمت مدلولًا بخصوص صاحبك حسين، ووعدني خيرًا، عليه أن يذهب إليه ويقول له، أنا حسين ويسلم عليك بو سليمان ..

عليه أن يُجهز خمسين دينارًا كويتيًّا، سوف يقبضها منه مقدمًا هنا في مدينة الزبير، سيستلم من مدلول إيصالًا بالقيمة المذكورة عبارة عن قيمة بقر بيعت له، سوف يستلم منه الوصل في سفوان ..

قفز سالم من مكانه فقبل رأس حجي سهيل، **وقال له:**

يا عم لا أعرف كيف أرد لك مثل هذا الجميل؟

يا بني ..

لقد رددت مثل هذا وأكثر، لا زلتُ أذكر يوم فزعتك في مركز الأمن، لا أنسَ لك نخوتك عندما جاء معك العقيد لؤي وأخرجني من التوقيف، على فكرة عندي له هدية بسيطة، ساعة ويست أند (أم الصليب) الساعة السويسرية المشهورة، أريد توصيلها له، سأحضرها هنا في الغد وقم بتوصيلها له ..

بارك الله فيك يا عم سهيل، سيفرح حسين كثيرًا ..

عَلمَ حسين بموافقة مدلول من سالم، فحفظ لغة الشفرة التي بلّغها له عن ظهر غيب، واستعد لهذه الرحلة المباركة التي كان ينتظرها طويلًا، فذهب لدكان الشبيب الواقع في سوق الحزم لاستبدال نقوده العراقية بدنانير كويتية، دفع منها لمدلول خمسين دينارًا حسب المتفق عليه ..

رجع للتكية لجمع ثيابه وحاجياته بحقيبةٍ كبيرة؛ من أجل حفظها عند سالم في الفندق ريثما يستقر في الكويت، ثم يرسلها له بمعرفته الخاصة، وضع في داخل الحقيبة دفاتر أشعاره ومذكراته، وجهز له بقشة (صرة ثياب) صغيرة لمشوار سفره؛ لأن مدلولًا طلب منه أن يحمل معه أشياءً خفيفة لمدة يومين في الطريق، وأن يكون الموعد غدًا في قهوة الزواريع (المزارعين) بعد صلاة الفجر مباشرة ..

حمل حقيبته ليذهب للفندق لتخزينها في غرفة سالم، فشاهده بهلول خارجًا من التكية، فسأله إلى أين يذهب بالحقيبة، **فقال له:**

إنها حقيبة سالم طلبها مني وأريد إيصالها له، هل ترغب في حملها معي، إنها ثقيلة كلها كُتب دراسية، فهز بهلول رأسه بالنفي، وقال:

عندي چلاب جوعانة ما أكلت منذ ليلة البارحة، سأذهب للمقصب قبل الليل ..

دخل الفندق حاملًا حقيبته، ودلف لغرفة سالم، فجلس على طرف سريره، وتركه جالسًا على كرسيه ينظر في كتابه المفتوح، جلس معه آخر ليلة تجمعهما قبل سفره، سيبحر كل منهما في سفينة أيامه الخاصة، بعيدًا عن ميناء صاحبه، ربما سيلتقيان وسيجمعهما مدُ القدر من جديد في شاطئ المستقبل ..

تحدث كل منهما عن مشاريعه المستقبلية باستفاضة وحرية، كل منهما حدث الآخر عن أمنياته في قادم الأيام، ثم وقف حسين وقفة التلميذ لأستاذه ليستأذن من سالم في الرحيل، فسلم عليه وودعه بحرارة، **وقال له:**

خذ هذه الورقة كتبتُ فيها عنوانين، الأول عنوان معارفي في الكويت، فلو وصلتُ لهناك سأخبرك بمكالمة هاتفية أو رسالة خطية لإرسال الحقيبة، أما العنوان الآخر فعنوان أهلي في الناصرية، قُم بإرسالها لهم بعد أن تأخذ منها دفتر أشعاري من أجل طباعته، فحضنه سالم إليه، وجرت بينهما سيول الدموع، **فقال له سالم:**

إن شاء الله سأرسلها لك على عنوانك في الكويت، وستطبع أشعارك بكتابٍ في الكويت .. قل آمين .. فقال حسين: آمين .. آمين ..

في ليلة سفره كان حسين يتقلب بين النوم والاستيقاظ، هي الليلة الأخيرة التي ينام فيها بهذه التكية المباركة، لم يذق فيها طعم المنام، حاول كثيرًا ردم سيل شريان تفكيره المتدفق بطموح المستقبل، هاجت عليه عواصفُ أفكار كثيرة، تتوالد وتنمو في أرض مخيلته، تساؤلات كثيرة حركت حساباته الحالية والمستقبلية ..

ماذا سوف يواجهه في مثل هذه الرحلة المجهولة المصير؟

ماذا سيحدث له في مثل هذا الظلام؟ كيف سيعبر الحدود؟

ما هي الطريقة التي سوف يستخدمها مدلول لتهريبهم؟ خصوصًا أنه يعرف الكثيرين ممن حاولوا العبور فلم ينجحوا، فقبضت عليهم دوريات حراس الحدود الكويتية المنتشرة على طول الحدود ..

شغلت عقله هذه الأفكار بلهيبها، لم ينقذه من صراخ عويلها غير صوت أذان الفجر، الذي يُنادي بأن الصلاةَ خيرٌ من النوم، فقام ليتوضأ في جامع الزبير، ولأول مرة يصلي مع جماعته، واضعًا كلتا يديه فوق صدره دون شعور منه، رغم عدم قناعته بمثل هذه المعتقدات السلفية ..

دخل الجامع ووقف جنبًا إلى جنب مع الذين يكتفون أيديهم في صلاتهم؛ من أجل أن يسأل الله سبحانه وتعالى بركة هؤلاء الناس الطيبين المصلين الصالحين المصلحين ..

لأول مرة يستشعر حضور عظمة الخالق، وعظمة مقدرته، وضعف المخلوق، وبضرورة اللجوء إلى خالقه، رفع أكف الضراعة بخشوعٍ سائلًا المولى – عز وجل – أن يوفقه في هذه الرحلة الغامضة ..

انتهى من صلاته فحمل بقشته وودع التكية وشجرتها دون عودة، ثم استقبل جامع الزبير، فودعه، ورفع رأسه لمئذنته المرتفعة؛ ليُلقي عليها النظرة الأخيرة .. ودع جميع الأزقة والشوارع التي سار فيها، متجهًا لقهوة الزواريع، هناك وجد مدلولًا بانتظاره، **فقال له:**

لقد تأخرت علينا كثيرًا ..

سار معه عدة خطوات حيث تقف سيارة لوري (سيارة حمولة كبيرة) تنتظرهما عند قهوة أبي عزور الحميد، طلب مدلول من حسين الصعود لحوض السيارة، فصعد للحوض، فوجد خمسةً من الرجال الغرباء جالسين في حوضها، سلم عليهم، ثم جلس في زاوية منه .. ردوا عليه السلام بصوت خافت ..

طَلَ عليهم مدلول برأسهِ، **وقال لهم:**

تمسكوا سنتحرك الآن، سنذهب لمزرعتنا في سفوان، لو استوقفتنا مسلحة (دورية) قولوا بأنكم كروية مزرعة (عمال بالأجر اليومي في المزارع)، ولا تخافوا فإن حقوقكم محفوظة بالإيصالات التي معكم، الطريق للمزرعة مدته الساعة تقريبًا، في بعض الأحيان، سنخرج عن طريق جادة الإسفلت، منحرفين نحو طرقٍ برية؛ تحاشيًا لنقاط السيطرة (نقاط

التفتيش) المنتشرة بكثرة، عندها سيكون الطريق ترابي ووعر، فيه من الحفر والحصى والطسات (الحفر والمطبات) الكثيرة، وسينالكم شيئًا من الغبار؛ لذا عليكم التمسك جيدًا، والحرص الشديد على غطاء رءوسكم وأنوفكم عند خروجنا من الإسفلت، والآن أقول لكم موعدنا في سفوان بمشيئة الله ..

يُعتبر سفوان ناحية تابعةً لقضاء مدينة الزبير، يقع في جنوبها ويبعد عنها حوالي 40 كم، فيها من عيون الماء الكثيرة؛ لذا انتشرت في أرضها على مر الزمن المزارع الكثيرة، مثل مزرعة الجعفر ومزرعة الجندل ومزرعة العياف ومزرعة العرفج ..

تحده الكويت من الجنوب والفاو من الشرق، وتحده مدينة الزبير من الشمال، ويقع سفوان إلى جهة الشمال الشرقي من المملكة العربية السعودية، تربته رملية سهلة صالحة للزراعة، وليس فيه تضاريس جغرافية واضحة للعيان، ما عدا جبل سنام الصخري البارز للعيان من مسافة بعيدة بارتفاعه عن مستوى سطح الأرض.

يُعتبر سفوان منفذ الحدود للجمهورية العراقية جهة الجنوب، ويجاوره مركز حدود العبدلي الذي يُعتبر منفذ الحدود الشمالية لدولة الكويت، بينهما أرض جرداء تفصل بين حدود الدولتين، لا يزيد طولها عن النصف كيلو متر، أما عُرضها فالله وحده أعلم ..

قبل ثورة جيش الجمهورية في العراق كان منفذ الكويت في مركز المطلاع، لكن بعد كثرة تحرشات أبناء الجمهوريات الكلامية وتهديداتهم المتكررة نقل الكويتيون مركزهم لمنطقة العبدلي ..

بعد ساعة ونصف من السير فوق الإسفلت تارة وفوق الطرق المتعرجة في وسط صحراء الزبير تارة أخرى سمعوا طقطقات ماكينة ماء القليب التابع لمزرعة مدلول، وأثناء اقترابهم لعمق المزرعة سمعوا صوت هدير اندلاق الماء في بركة المزرعة عبر الأنابيب الموصلة لغطاس المكينة داخل القليب(البئر) ..

توقفت الشاحنة في قلب المزرعة، نادى عليهم مدلول، فنزلوا من الشاحنة؛ لينفضوا ما علق عليهم من غبار هذه الرحلة، كل منهم يحمل بقشته أو حقيبته الصغيرة المعلقة على كتفه ..

أخذهم مدلول للكُبر (غرفة بالمزرعة بناء جدرانها من لبِن وطين وسقفها من خشبٍ)؛ ليضعوا أشياءهم وأمتعتهم في داخله، اجتمع مدلول بهم جميعًا في البرستي (مكان لجمع محصول المزرعة)، **وقال لهم:**

بعد الغدى أريد منكم أن تناموا زين، في الليل سندخل الحدود الكويتية سيرًا على الأقدام مع قطيع البقر، راح نمشي بحدود الثلاث ساعات دون توقف على هدي ضوء القمر ونجومه، وما أريد منكم تعميرة جقارة، سندخل مزرعة كويتية صاحبها العم بو جاسم جزاه الله خيرًا، رجل طيب، بعته هذي البقر التي ترعى بالمزرعة، في الليلة الثانية سيأتي

رجل اسمه بداح، رجل ثقة تركبون معه في الوانيت ليأخذكم لطرف الجهراء، سيسير بكم في طريق بري بعيدًا عن أعين دوريات الشرطة الكويتية ..

استغرب حسين من نوعية مثل هذه التجارة المدرة للمكاسب الكبيرة، كيف سيقودون له القطيع في الصحراء بدون أجرة، بل إن مدلولًا سمّسر تهريبهم وباع أسماءهم في هذه السوق السوداء لرجل اسمه بداح، مدلول سيبتلع عليهم أجرة جهدهم في قيادة قطيع البقر تحت جنح الظلام من منطقة سفوان لمزرعة الكويتي في منطقة العبدلي ..

فسكت برهة بعد أن استغرب من جشع هذا العالم، **ثم قال:**

ليس للمضطر حيلة غير ركوب البحر، وهذه المرة سنركب البر، سيقود قطيع البقر، سيكون راعيًا من رعاة البقر، سيكون كاوبويًا لعصره ولزمانه، فحدث نفسه بحضور قلمه؛ لتسطير مثل هذه الحادثة، قبل أن يندمل ألم جرحها، فتجف ثورة فكرتها، وتهرب قطيع كلماتها، فالخاطرة آنية الحدث وابنة اللحظة، إن لم تقبر جسدها بين السطور، فإنها ستفرُ منك مثل فرار الفأر من قط جائع ..

في المساء وقبل غروب الشمس دفعوا بالقطيع باتجاه سقوط الشمس في بحر الغروب، مبتعدين كثيرًا عن رؤية طريق الإسفلت، فتمددَ الظلام مُتَثاءبًا من قبته، ناثرًا سواد ظلمته في طريق تمدده، فصرخ عليهم مدلول بضرورة سرعة محاصرة القطيع من جميع جهاته، وعدم ترك مساحة لها

للتفلت في أثناء سيرها، فاتسعت مساحة البؤبؤ في عين حسين لمشاهدة أكبر قدر من ظلال الصورة المتحركة في داخل لوحة الظلام؛ لمشاهدة صورة واضحة لمسرح عمليات تحرك القطيع ورعاته ..

استغرب حسين كيف أصبح يرى في شدة هذا الظلام، يرى كل الأشياء في وسط هذه اللوحة السوداء التي تموج في عمق بحر الصحراء، شاهد قصة نمو صراع الظل مع ضوء القمر، لايمكن لك أن تخون ظلك، وأن تفقد ظلك يعني أنك ستفقد روحك في تلك الليلة ..

لأول مرة في حياته يُشاهد وضوح ضوء القمر الساطع في قبة السماء، متباهٍ بنوره بين شُعاع النجمات، ولأول مرةٍ في حياته يُشاهد بعثرة النجوم بألوانها الفضية المتلألئة على صفحة وجه سماء الصيف الصافية، التي لم تتعرض لاغتصاب السحب الكاذبة في تلك الليلة، فارتجل وقتها شعرًا، **قال فيه:**

قمرٌ منيرٌ

ونجومٌ تتلألأ

وسماءٌ صافيةٌ

وأقدامٌ تلهث خلف القطيع

رباه .. رباه ..

مدلولٌ يقودنا

لا فرق بيننا وبين القطيع

قادنا برغبتنا

وسمّسر هروبنا

وباعنا ببعضِ دنانير

إنه لرجلٍ فضيعْ

.....

مع الأسف قطع مدلول علينا هذا النحت الشعري في معتكف خلوة حسين مع نفسه بصوته:

يا حسين .. شوف البقر شرد (هرب) من عندك، اركض لمه (اجمعه) للقطيع مرة أخرى ..

فانتبه حسين لتفلت بعض القطيع، فأسرع لجمع الخارج منه ..

وعند منتصف الليل وصلوا المزرعة، ودخل القطيع الجاخور (الحظيرة)، بدأ مدلول بِعَد القطيع فوجده ناقصًا، فَعَده مرة أخرى فتأكد من وجود النقص فيه، طلب من الجميع العودة من حيث أتوا للبحث عن بقرتين ناقصتين، وفي مكان غير بعيد وجدوا البقرتين الناقصتين فعادوا أدراجهم للمزرعة ..

قال لهم مدلول: لم يبقَ على الفجر إلّا القليل، فعليكم بالنوم والراحة الآن، كل منكم يبحثُ عن مكان مناسب لينام فيه، فأرخى حسين بقشته المعلقة خلف ظهره من مزرعة سفوان، فتوسدها عند بركة الماء ولم يستيقظ إلّا مع صوت أذان الفجر الذي يصدع به أحد صبْيان المزرعة..

كان أطول يوم مر في حياة حُسين، قضى معظم فترات وقته غاطسًا في البركة الكبيرة يتحرش بضفادعها وصغارهن، أما الباقون فتناثروا في ربوع المزرعة وسط الخضرة بين سواقي المياه ومشاعيب البطيخ والرقي والطماط، مستمتعين بشرب السجائر الأجنبية التي اشتروها من صبْيان المزرعة.

الوقتُ يمرُ بطيئًا والانتظار طبعه كريه وقاتلٌ بكل أنواعه وألوانه، كثير من الناس يعتبر الانتظار نوعًا من أنواع التعذيب البطيء، لكن ليس بيد أمثال هؤلاء حل غير الانتظار ..

الشمسُ تزحفُ ببطءٍ عن كبد السماء، وكأنها عمود خيمة ثابت بقوة أوتاده المشدودة جيدًا بالأرض، لا تتحرك من مكانها ..

ورويدًا رويدًا بدأت تزحفُ في اتجاه الغرب على حياءٍ كأنها عروسٌ في أول زيارةٍ لمنزل أهلها، لا تُريد رؤية أهلها حياءً منهم، كانت تظن بأنها قضت الليل مع رجل غريب عنها ..

قال لهم مجيد (رئيس الصبيان):

إن بداحًا غالبًا ما يأتي في أوقات المساء، يتناول وجبة العشاء معنا، ثم يعود أدراجه للكويت، سيارته نوعها بيك أب (وانيت) لونه أزرق، ماركته نيسان، ولا أعرف سنة موديلها ..

حسين ورفاقه حفظوا جدول مجيئه ومواصفات سيارته، وأوقات تحركاته؛ لذا سارعوا من بعد صلاة العصر مباشرة بارتقاء قمة صيّهد رملي مرتفع (تل صغير)؛ لمشاهدة السيارات القادمة من جهة الجنوب، انتظارًا لمثل هذا البيك أب، وكلما شاهدوا زوبعة غبار قادمة من بعيد ظنوه بداحًا، لكن سرعان ما تخيب ظنونهم عندما يهدأ طيش الغبار المحلق بالسيارة، فتنكشف معالم نوعيتها ..

كذلك قال لهم مجيد:

في بعض الأحيان لا يأتي في الوقت المحدد، وأحيان أخرى يتغيب عن المجيء لمدة أسبوعين أو ثلاثة أسابيع؛ خوفًا من مراقبة الدوريات الكويتية والعراقية له ..

بداحٌ شابٌ في متوسط عقده الثاني، عوّد صبيان (عمال) المزرعة على شراء كل طلباتهم الكثيرة من الكويت، يسجلها لهم بورقة في كل زيارة، يثقون به، فيدفعون له قيمة مشترياتهم مقدمًا دون ضمان ..

سقطت الشمسُ في بحر شاطئها الغربي لليوم الثاني، ولم يأتِ بداح، فظن حسين ورفاقه بأنهم سيبيّتون ليلة أخرى في هذا المكان الذي أسماه

حسين في مذكراته بمرحلة (العلقة)، وقد كان سابقًا قد أطلق على السكن في التكية بمرحلة (النطفة) ..

صلوا المغرب والعشاء جمعًا وقصرًا؛ لأنهم على نية سفر، وأيُّ سفرٍ هذا الذي هم على نيته، هم عليهم الإطالة في الصلاة بدلًا من القصر فيها؛ لأنهم بحاجةٍ لأن يكونوا قريبين من الله - سبحانه وتعالى - والعبد أقرب ما يكون لله عند سجوده، وهل هنالك أعظم من السجود في الصلاة ..

انتشرت رائحة الفرقاعة (حمس البصل مع الطماط) في أرجاء المكان مندفعة إلى تجاويف خياشيم كل من في المزرعة ..

بعد صلاة العشاء مباشرة سمعوا صوت هدير سيارة تقترب من المزرعة، وعند دخولها لقلب المزرعة وضحت ملامحها، سيارة مسلحة عراقية، توقفت بعيدًا عن المجلس بالقرب من البركة، ذهب إليهم مدلول، صافحهم ثم دس يده اليمنى في جيبه وأخرج لهم شيئًا لم يتمكن حُسين ومن معه من رؤيته لضعف الإضاءة قرب السيارة، ثم غادرت المسلحة المكان بكل هدوء ..

في تمام الساعة الثامنة والنصف، وبينما كان الجميع يستمتع بصوت عزف نقيق الضفادع في كل مكان، سمعوا صوت سيارة تدخل المزرعة بهدوء دون ضجيج وصخب في مكينتها، ليست كالسابقة، ورويدًا رويدًا صوتها يقترب من المجلس، ظهر لهم البيك أب الأزرق اللون، ففرح من

في المزرعة بقدومه واستبشروا خيرًا بمجيئه، ونهضوا جميعهم ليحلقوا حول سيارته لتحيته، وكأنه أمير القوم ..

نزل من سيارته يحملُ بيده اليمنى مجموعة من الجرائد الكويتية الصادرة في صباح اليوم، رماها في وسط الجلسة وكأنه ممتنٌ عليهم بها، ثم اتخذ مجلسه في صدر المكان يتقمص شخصية الأمير، بين أصابعه مسبحة صفراء اللون أظنها كهرب، يتلاعب في خرزها ذات اليمين وذات الشمال، يضع في طرف فمه الأيمن سيجارة، لا يرفعها منه أثناء حديثه إلّا نادرًا، يتحدث بفلسفة الرجولة مع من هم أكبر منه سنًّا وعقلًا وأفهم منه في شئون الحياة ..

رمى مفتاح سيارته لأحد صبيان المزرعة آمرًا إياه:

نزّل أغراضكم من صدر البيك أب (المرتبة الأمامية)، وأهم شي تنزل كلوصين روثمن لمجيّد؛ لأني أشم ريحة طبخته شاقة خشمي ..

بعد تناولهم وجبة العشاء مطمطة (رز بالطماط)، والتمتع باستكانة جاي زنقيل (شاي ثقيل)، وفي تمام الساعة الحادية عشرة، قرر بداح بداية انطلاق الرحلة، فطلب من المسافرين معه الركوب في حوض (البيك أب) بعد أن قبض من مدلول أجرة ركوبهم في الحوض ..

ودعَ مدلول الجميع، وتمنى لهم رحلة موفقة، تحرك البيك أب على صوت أنغام شريط كاسيت لم يفهموا مما يقول شيئًا، صوتٌ نشاز وعزفٌ منفرد على الربابة (آلة موسيقية) مشهورة في مجتمع البادية ..

***

الجهراء

سار بهم بداح في طريق ترابي بدون إضاءة مصابيح، مهتديًا فيه على إنارة ضوء القمر والنجوم المتلألئة، يهبط بهم البيك أب ويرتفع حسب وعورة الطريق، بسرعةٍ لا تقل عن 80 كم في الساعة، وبعد مسافة سير في عمق الصحراء لمدة ثلاث ساعات، كانوا على مشارف مدينة الجهراء، الراقدة في سباتها العميق، وصلوا مع بزوغ الفجر الذي بدأ شعاعه المشرق يتعقب مصابيح أعمدة الكهرباء، لتعلن عن وقت سباتها من جديد ..

ويشتق اسم مدينة الجهراء من انجهار المياه عند حفر آبار المنطقة ..

وقف بداح بهم في أقرب شارع إسفلت من مدينة الجهراء، وطلب منهم سرعة التحرك والنزول من الحوض، والانتشار متفرقين في شوارع المنطقة الداخلية، كأنه قائدٌ عسكري يطلب من أفراد قواته الانتشار؛ خوفًا من قصف العدو، فأسرع حسين بفتح بقشته وارتدى ثوبًا أبيضاً جديدًا وغترة بيضاء، ثم رمى ما تبقى من البقشة، ثم دلف لأقرب بقالة عاملها هندي، تكلم معه بلغة هندية مكسرة تعلمها من سردار، نسف الغترة (تعلم التنسيفة من الزبيرين)، أخرج بعض النقود الكويتية الورقية، وطلب منه استبدالها بنقود معدنية، بعد أن ابتاع منه شيئًا ليأكله ويشربه، ثم سأله عن أقرب هاتف عملة عمومي، يمكنه الاتصال منه، فتعاون معه البائع وأرشده لأقرب هاتف عملة ..

عند خروجه من باب البقالة شاهد اثنين ممن جاءوا معه في سيارة البيك أب جالسين في المرتبة الخلفية لسيارة الدورية (النجدة) مقبوضًا عليهما، فعاد أدراجه سريعًا لداخل البقالة ليأكل ما ابتاعه، مختبئًا في داخلها، ومُسليًا وقته في الحديث مع الهندي، ظن أن رجال الشرطة يبحثون عن الباقين، ممن كانوا معهم في حوض البيك أب (الوانيت)، بالتأكيد عرفوا عددهم من اعتراف المقبوض عليهما ..

خرج من البقالة بعد أن تأكد من زوال الخطر .. عبر شارعين، كما وصف له الهندي مكان الهاتف العمومي، ليجده في طرف الشارع الثالث في زاوية مدرسة لثانوية البنات ..

رفع سماعته وقلبه يلهث بالدعاء بأن لا يكون خطه مُعطلًا، قرب سماعته لأذنه ليستمع صوت حرارة الهاتف، أخرج من جيبه دفترًا صغيرًا أحمر اللون، مكتوبًا على جلدته فهرس هاتف، دوَّنَ فيه أربعة أسماء من معارفه وأصحابه المقيمّين في دولة الكويت ..

اتصل على أول صديق له، اسمه راضي، يعمل في مطعم صغير لبيع الكباب في طرف سوق الحريم بالمباركية، أول نافذ بعد تجاوز سوق الغربلي المشهور، بالقرب منه قهوة صغيرة يجلس فيها بعض العراقيين، رن جرس الهاتف ثلاث رنات .. في الطرف الآخر، رفع السماعة رجل:

آلو .. آلو ..

سأل حسين:

- هذا مطعم بابل للكباب العراقي؟

- إيه نعم ياب ..

- ممكن أحچي ويا راضي عيني؟ ..

- راضي فنّش من شهر ياب ..

- شنو يعني فنش عيني؟

- أووووه .. شكلك طازج بالقرطاس، ماتُعرُف فنش .. يعني طلع من الشُغل ياب، يعني بطل ..

- ما تُعرُف وين راح راضي عيني؟

- صدقني ما بعرف ياب ..

شكره حسين ثم أغلق السماعة ببطء ..

فتح دفتره الصغير مرة أخرى، واختار صديقه صباح ليتصل به .. يعمل سائقًا في منزل عائلة كويتية، تسكن في منطقة الشِعب، اتصل على غرفته الخاصة في ركن حوش الفلة، رن الهاتف عدة مرات، لم يرد عليه أحدٌ، حاول عدة مرات، لا مُجيب لكثرة اتصالاته ..

أعاد النظر لدفتره لمراجعة بقية أسماء معارفه في الكويت، فكر في الاتصال على ابن خالته فوزية، اسمه ثامر، يعمل بائع تذاكر في سينما الأندلس منذ أكثر من خمس سنوات، لكنه تردد، وقال محدثًا نفسهِ: إن الوقت غير مناسب الآن؛ لأن السينما لا تفتح أبوابها في الصباح، سأتصل عليه مساءً ..

قرر الاتصال على شخصٍ آخر في قائمته، ابن عمه كَرِيم، الذي يعمل فراشًا في البلدية، أرسل له رقم هاتفه، وقال له، إنه رقم الهاتف الخاص في غرفة الفراشين، رن جرس الهاتف عدة مرات، لم يسمع من يجيب رناته ..

جلس عند الهاتف يعاود الاتصال على كل من صباح وكريم، يتناوب الاتصال عليهما دون ملل وكلل، من الضروري أن يجد أحدهما قبل حلول الليل ..

بدأت درجة حرارة الشمس بالارتفاع، واشتد صراخ لهيبها، حدثوه عن قسوة حرارتها برسائلهم، وأخبروه عن سموم جو الكويت، وعن كثرة طوزه (غباره)، ألقى نظرة سريعة للبحث عن مكان يستظل فيه من شدة الحرارة، فرأى شجرة كبيرة ليست بعيدة عن الهاتف العمومي، جلس مستظلًّا بها، مكنه هذا الموقع من رؤية جامع كبير في الركن المقابل، شاهد أحد البنغاليين الملتحين يخرج من بابه الصغير، ويفتح أبواب الجامع على مصراعيه لاستقبال المصلين، ثم شاهده يذهب ليفتح أبواب دورات المياه المجاورة للجامع ..

أسرع حسين ليدخل دورة المياه التي كان بحاجةٍ لها، استحم وتوضأ فيها، ودلف للمسجد فصلى ركعتين، شاكرًا المولى - سبحانه وتعالى - على توفيقه ونجاحه، وراجيًا منه أن يجد مخرجًا له قبل حلول الليل ..

خرج من الجامع ليتابع اتصاله بأصدقائه ومعارفه، لم يرد عليه أحدٌ رغم كثرة اتصالاته ..

استغرب حسين من جموع الوافدين للجامع تترا، أذن المؤذن للصلاة، فدخل الجامع، فشاهد الناس تجلس وتقرأ القرآن، لم يكن يعلم بأنه يوم جمعة، لم يكن يعرف بأنه ستُقام في هذا الجامع صلاة الجمعة، عادة لا يهتم بطقوس يوم الجمعة، ولماذا يهتم بمثل هذا اليوم، إنه ليس موظفًا وينتظر عطلة نهاية الأسبوع؛ لأن أيامه كلها عُطل، وفي الأصل حسين لا يهتم بعدد الأيام، ولا بأسمائها، ليس لديه راتب يقبضه في نهاية الشهر، كي يعرف بداية الشهر من نهايته ..

دخل الجامع ليؤدي صلاة الجمعة مع جموع الداخلين، لأول مرة يؤدي صلاة الجمعة في جامع رغم مجاورته لجامع الزبير فترة طويلة؛ لأن معتقده الجعفري كان يمنعه من الصلاة بين صفوف جماعته ..

خرج من الجامع مسرعًا بعد انقضاء صلاة الجمعة ليتصل بأصحابه، فشاهد كثرة الباعة المتجولين الذين يفترشون الأرض خارج الجامع، يبيعون كل شيء، والمصلون يبتاعون منهم الأشياء التي يحتاجونها، شاهد عمالًا واقفين بملابسهم الشعبية، بعضهم من صعايدة مصر بجلابياتهم، وآخرون من الهنود والبنغال الذي يلبسون الأوزار، بعضٌ منهم يحملُ منجلًا، وآخر يحمل منشارًا وثالثٌ يحمل فأسًا ورابع يحملُ مسحاةً، يتكلمون مع كويتيين وأجانب، وقف يستمع لأطراف من الحديث الذي يدور بينهم، عرف أنهم يساومونهم على قيمة إنجاز عمل معين في مزارعهم أو في منازلهم ..

سمع أحد الكويتيين يطلب من الصعيدي الذي اسمه إسماعيل إحضار عامل له في جاخوره (حظيرة غنمه)؛ لأن عامله الجديد الذي استقدمه قبل شهر بفيزا على حسابه الخاص قد هرب بالأمس، فوعده الصعيدي بإحضاره له في الغد إن شاء الله، فتبع حسين الرجل واستوقفه:

- عم، سمعتك تبحث عن عامل لجاخورك، أنا عامل مستعد للعمل عندك ..

فذهب حسين معه للجاخور بعد أن اتفقا على المرتب، وعلى نقل إقامته بعد مرور ثلاثة شهور كتجربة للطرفين ..

***

القبعة والروب الجامعي

استلم سالم رسالةً من حسين يخبره فيها بإيجاز عن ما حدث له في رحلته، وكيف كان شاويا (راعيًا) للبقر في مزرعة مدلول، وكيف عمل صبيًّا (عاملًا) في جاخور (حظيرة) الغنم لمدة يومين ريثما وجد ابن خالته فوزية، فانتقل للسكن معه في عزبتهم بمنطقة شرق ..

أخبره بأنه وجد عملًا مؤقتًا في مواقف السيارات قرب سوق المباركية، براتب يسير قدره ثلاثين دينارًا، عمل محاسبًا عند بوابة الخروج من الموقف، يجلس في صندوق صغير جدًّا مساحته متر في متر، مهمته رفع حديدة الخروج للسيارات، بعد أن يقبض ثمن الوقوف من أصحابها، وحاليًا يبحث عن عمل في شارع الصحافة، فإما في جريدة يومية، أو في مجلة دورية، ولكن أين الواسطة لمثل هذا الطريق ..

طلب منه في رسالته إيصال الظرف المرفق داخل رسالته لصديقته شفيقة، التي تدرس في كلية الآداب قسم اللغة الإنكليزية، أكد عليه تسليمها الخطاب في الجامعة، طلب منه إرسال حقيبته المودعة عنده على عنوانه المذكور في أسفل رسالته هذه ..

دُهش سالم من جمال شفيقة عندما شاهدها في الزي الجامعي الموحد، وهي ترفع شعرها خلفها، لم يكن يظن سالم أن في هذه المدينة يُوجد مثل هذا الجمال الباهر، استغرب أكثر من تعرّف حسين عليها، فحيّره أمر تَعرّفه

عليها، كيف تعرّف عليها؟ من أين أتى بالوقت للتعرف عليها؟ استغرب من شفيقة كيف اختارت مثل هذا الرجل الغريب دون سواه ليكون موطنًا لحبها وثقة لقلبها، ليكون خليفةً على إمبراطورية قلبها ..

ألم تعلم بأنه يسكن في التكية؟

ألم تعلم ما هو نسبه، وما هي عقيدته؟

ألم تُفكر في يوم من الأيام بمستقبل مثل هذه العلاقة؟

بالتأكيد أن حُسيّنًا أخفى عنها مثل هذه الحقائق المرة بطعم حياته، سرعان ما هرب سالمٌ من حيرته محدثًا نفسه بقوله:

(إن عنز الديرة لا ترغب إلا بالتيس الغريب)، سمع هذا المثل يردد كثيرًا، واليوم شاهده حقيقة بأمَّ عينه ..

رغم أن شفيقة شغلت تفكيره بمليشاتها العاطفية مع حسين، لكن استعداده ليوم تخرجه كان شُغله الشاغل، فوقته اقترب، كلها أسبوع واحد ثم يلبس القبعة والروب الجامعي، ويسير أمام هيئة التدريس لاستلام شهادته الجامعية، ثم شغل تفكيره مستقبله العملي، الذي بدأ يُخطط له منذ هذه اللحظات ..

وكان قراره السفر للكويت، والعمل في شركة البابطين بمنطقة الشويخ، بناءً على وعد صديق له تعرف عليه في دراسة الثانوية، مقرب جدًّا من إدارة هذه الشركة، له تأثيره على التوظيف في الشركة، وسوف يسهل له أموره في العمل بها ..

جاء يوم التخرج، فحدث نفسه بضرورة حضور والده، وعليه إخبار أهله بمثل هذه المناسبة السعيدة، فذهب للعم سهيل ليتوسط بينه وبين والده ..

طرق عليه الباب ثلاث طرقات، ففتح له رجلٌ مسن، فسأله عن وجود العم سهيل في المنزل، **فقال له:**

إن أبا سليمان (سهيل) باع المنزل وسافر للدمام قبل أسبوعين ..

فلم يكن أمام سالم غير الذهاب لوالده في دكانه، والاعتذار منه؛ لعله يقبل اعتذاره دون الحاجة لوسطاء بينهما، وهل بين القلب والرئتين في الجسد الواحد حواجز ..

وقف عند مدخل دكان والده فشاهده منشغلًا بنسق (عزل) الطماط من القفص، فخر عند قدميه، قائلًا له:

يبه أبشرك، تخرجت من الجامعة، وصرت مهندسًا، باچر حفل التخرج، أتمنى حضورك معي ..

رفعه والده من على الأرض فحضنه، **وقال له:**

الحمد لله إنك لم تُخيّب ظني بك، ألف مبروك يا سالم ..

- يبه، تسمح لي أن أذهب للسلام على أمي؟

- سنذهب سويًّا، عليك جمع أغراضك من الفندق أولًا ..

استغرب سالم كثيرًا، كيف عرف والده عن سكنه في الفندق ..

ساعدَ سالم والده في جمع بضاعته المفروشة في واجهة الدكان، ووضعها في الداخل، ثم ذهبا سويًّا للمنزل ..

في الطريق قال له والده:

يا سالم، أريد أن أرى فرحة أمك بعودتك للبيت، وبتخرجك من الجامعة، كانت تدعو لك في كل صلاة، كانت تقتلني بصوت نحيبها في كل ليلة أثناء صلاة الوتر، وأخيرًا أصبحت مهندسًا بفضل الله، ثم بفضل بركات دعائها لك ..

يا سالم، كنتُ خائفًا بأن لا تدعوني لمثل هذه الفرصة، كنتُ خائفًا إنك ستفوت علي مثل هذه الفرحة، فرحة رؤيتك بين المتخرجين ..

نظر سالم لوجه أبيه فشاهد الدموع تتجمع في محجري عينيه، وترفض الاندلاق في مجرى الخدين، **فقال لنفسه:**

سبحانه من جمع في صفاته البطش والرحمة ..

دخلا المنزل سويًّا يتقدمه والده، نادى على زوجته بأعلى صوته ولأكثر من مرة، وكأنه يريد أن يستعجلها بخبر شيء مهم بسرعة، يا أم سالم .. يا أم سالم ..

عادة يُناديها باسمها (نوره)، وإن غضب منها ناداها بنويّر، وغالبًا ما يغضب عليها؛ لأنه سريع الغضب ..

خرجت من المطبخ ناثرة شعرها المصبوغ بلون الحناء، مندهشة من شدة فرحته التي تُغرد في ثنايا صوته ..

قالت: لبيه يابو سالم ..

– ابشري يا أم سالم، سويلم أصبح ريال، وتخرج من الجامعة، فسقطت مغشيًّا عليها من الفرحة، عندما رأت سالمًا مختبئًا خلف أبيه، أكل فراقه قلبها وعقلها، وأشعل في رأسها الشيب، كل يوم تتوسل إليه بأن يبحث عنه ويُعيده للمنزل، لكنه يطمئنها أنه يسمع أخباره الطيبة وهو بخير ..

بعد فترة أفاقت نوره من غيبوبتها المؤقتة، وخرت لله ساجدة، **وقالت:**

حمدًا لله، ما همني تخرجه وشهادته بقدر ما همني عودته لمنزلنا، ودخوله لغرفته التي فارقها ..

يا وليدي، تراني كل يوم أسنع فراشك، وأصفط ثيابك المكوية بيدي، وأعلق غترتك وشماغك ..

يا وليدي، ترى دارك (غرفتك) مقفولة من يوم غبت عننا، والقفل معلق بطريدة (قطعة قماش) بصدري، ما دش غرفتك غيري، كل يوم أدش فيها، وأشم ثيابك، وأشم دفاترك وكتبك، حتى طفاية جقايرك صرت أشمها، وكل يوم أقول بيرجع .. بيرجع بسم الله عليه ..

فاقتربت من سالم وحضنته، وقبلت كل بقعة في وجهه، تركها سالم حتى تُشبع وجهه قبلات، ثم استلم ركن رأسها الأيمن فقبله، واتجه للركن الأيسر فقبله قبلة أخرى، وشم رائحة الحناء، ثم رفع يديها لتقبيلهما، **ثم قال:**

الله .. الله .. يمه شنو هاذي الريحة الحلوة .. شنو طابخه لنا اليوم ..

قالت وهي تمسح دموعها بطرف ملفعها (غطاء الرأس):

يا بعد أمك أنت، غدانا اليوم مرق بامية مع تمن عنبر ..

كأني حاسة بقدومك اليوم، وأعرفك تحب مرق البامية يا بعد عمري.

جلس سالم مع والده في الطرمة (مكان بين الحوش والغرف) ينتظران موعد الغداء، **فقال سالم لوالده:**

يبه .. سأذهب بعد أسبوعين إن شاء الله للعمل في الكويت، حصلت على وظيفة في كراج شركة البابطين، ستكون هذي الوظيفة مؤقتة؛ لأنها غير ملائمة لطموحاتي وشهادتي الدراسية، سأذهب في الأسبوع القادم لبغداد؛ من أجل تصديق شهادتي والأوراق الرسمية، التي سوف أحتاج لها هناك من وزارة الخارجية العراقية، ثم من السفارتين السعودية والكويتية ..

غدًا ستحتفل الجامعة بالخريجين، سنذهب سويًّا مع سردار وزوجته خاتون ..

- من هذا سردار يا سالم؟

- إنه صديقي، جاء من الهند ..

- أرجو أن لا يكون هذا الهندي بائع السمبوسة عند قهوة الشلهوب!!

- نعم، إنه دكتور يا يبه .. ظروفه القاهرة جعلت منه بائعًا للسمبوسة ..

- ولماذا نأخذ زوجته معنا يا سالم؟

- هل الحفل فيه حضور نساء؟

- يبه .. في الجامعة طلاب وطالبات ويحضر جميع أهاليهم من رجال ونساء وأطفال ..

- أعفني يا سالم من هذا الحضور المختلط ..

- يبه .. ليس فيه اختلاط، سيكون هنالك مكان مخصص للنساء، أريدك أن تراني بالقبعة والروب الجامعي، وأنا أمشي في الطابور مع الخريجين والخريجات يا يبه ..

يبه .. هي لحظات العمر بالنسبة لي، لا تحرمني منها، سأذهب أنا معك، وأطلب من سردار يأخذ زوجته، ونلتقي هناك في الجامعة ..

في اليوم التالي ركب سالم مع والده في المرتبة الخلفية لسيارة التاكسي التي أفرغت ركابها في مواقف سيارات البصرة، ومنه ركبا سيارة أجرة أخرى، لتأخذهما لموقف العشار قرب سينما شط العرب الصيفية، ومنه توجها سيرًا على الأقدام إلى موقف الطبقة (العبَّارة) التي تقع في شارع كورنيش العشار، فعبرتْ بهما شط العرب لمنطقة التنومة، حيثُ موقع مقر الجامعة، ومن موقف العبارة ركبا سيارة سارت بضع دقائق بهم لتقف عند بوابة الجامعة الرئيسية، بعضهم تعود السير على الأقدام للجامعة من موقف العبارة ..

ترجلا من السيارة بعد هذا المشوار الطويل، ودخلا لحرم الجامعة، فالتفت والده إليه، **وقال له:**

يا سالم، أنت كل يوم تقطع مثل هذه المسافة لتصل للجامعة ذهابًا وعودة؟

نعم يبه، هل تعبتْ من كثرة التنقلات يا يبه؟

لكن يبه بعض الطلاب والطالبات الله سبحانه وتعالى مغنيهم عن من مثل هذه المشقة، تأخذهم سيارة خاصة من عند أبواب منازلهم لغاية بوابة

الجامعة، أشعر بأنهم لم يذوقوا يومًا حرارة القيظ، ولهيب شمسه، وشدة برد الشتاء، وزمهرير صقيعه، لم يروا يومًا ممطرًا يهطل عليهم، يحتار فيه الطالب والطالبة بين المحافظة على كتبه الدراسية، وبين المحافظة على ثيابه من بلل الماء ..

أظنهم يا يبه لم يستشعروا يومًا بتأخر سيارات الأجرة عن مواعيدها، أو لم يجدوا مقعدًا خاليًا في سيارات الأجرة المارة؛ لذا كان على أمثال هؤلاء الطلاب الاحتياط دائمًا لمثل هذه المفاجآت المتكررة التي تحدث في الحضور أو خلال الذهاب مبكرًا للجامعة ..

كان في ساحة الحرم الجامعي كل من سردار وزوجته خاتون في انتظارهما، سلما عليهما سلامًا حارًّا ثم ساروا جميعًا حيث قاعة الاحتفال التي كانت تعج بالمدعوين والمدعوات، فسارع سالم بلبس الروب الأسود والقبعة السوداء، واحتار وقتها بمثل هذا اللون الحزين، وسأل نفسه، لماذا يُصر الخريجون على ارتداء هذا اللون الأسود الكئيب، لماذا إلزامهم بمثل هذا البرتوكول العقيم، لماذا السواد في مثل هذه المناسبة، وكأنهم في يومٍ حزين؟

بدأ الخريجون بالتقاط صور فوتوغرافية تذكارية تجمعهم مع أهاليهم ومحبيهم، فعجل سالم بالتقاط صورة تجمعه مع والده (قبل أن يتذكر فتوى بتحريم التصوير) والتقط صورة أخرى تجمعه مع سردار وزوجته الحامل.

لمح سالم معالم الانزعاج على وجه والده من كثرة النساء غير المحتشمات بملابسهن الحمراء والزرقاء والخضراء والبيضاء، الناثرات شعورهن حول

أكتافهن دون حياء، ولاحظ انزعاجه من وجود خاتون زوجة سردار الكاشفة الشعر واقفةً معهم، أظنه حينها كان يُمني نفسه بأن لا يراه أحدٌ من معارفه من أهل الزبير في مثل هذا المشهد غير المحتشم ..

لكن والده تمكن من حبس أنفاسه المنزعجة، الثائرة على مثل هذه المظاهر المحرمة في دينه، والمرفوضة في نطاق أعراف مجتمعه، إنها تخدش المروءة والحياء معًا، فاستمر يسقي غضبه الذي يغلي في داخله بسماحة الصبر وروح التحمل على مثل هذا الطيش الشبابي ..

بدأت طوابير مسيرة الطلاب والطالبات من جميع الكليات جنبًا إلى جنب تأخذ طريقها باتجاه المنصة الرئيسية، لتقف بألوانها الزاهية أمام الحضور، وبدا الكل منتظرًا دوره لاستلام شهادة التخرج من رئيس الجامعة، وكلما جاء دور طالب أو طالبة نادوا على اسمه في المذياع، زغرد أهله ومعارفه وصفقوا له، وعندما جاء دور سالم لاستلام شهادته وقف والده يُعانق سقف القاعة بفخره واعتزازه بتخرج ولده سالم، صفق له طويلًا، واستمر بتصفيقه وحيدًا في القاعة دون شعور منه، ولم يتوقف عن التصفيق رغم اندهاش الحضور من استمراره.

في ساعات الوداع بين خريجي الكليات، بدأ الطلاب والطالبات يندبون حظهم على سرعة تخرجهم، الذي يعني افتراقهم، بعضهم يتمنى أنه لم يتخرج، بعضهم بكى وأبكى من حوله، دموعٌ ساخنة سالت بين الجنسين.

بعضهم قضى أربع سنوات، وآخرون قضوا الخمس والست سنوات في الجامعة، وكأنها أيامٌ معدودة ..

جاء بعض طلاب وطالبات كلية الهندسة لتوديع سالم، فالتفوا مُحلقين حوله، ووضعوه في موقف محرج لا يُحسد عليه أمام سيادة مقام والده، فلم يتمكن من تأدية أصول أعراف السلام بصورته اللائقة التي تُناسب مثل هذا الحدث، خصوصًا مع الجنس الآخر، فاكتفى بمصافحته للأيدي الناعمة، التي لامه عليها والده فيما بعد ..

فقالت غيداء بدلع:

خوب، سالم هسأ تروح يا للكويت يا للسعودية، وبعد يمكن ما راح نشوفك، خوب مثل باقي ربعك الزبيرين، يتخرجوا وينسونا، خوب اذكرنا لو تجي للزبير ومر علينا، اسأل لا تنسانا، كلش كلش طرش إلنا بالمناسبات كرت أفراح، خوب هاذ ما يكلف، ياب بأي مناسبة تريد، حتى لو تبارك إلنا برمضان همين قابلين بيه منك، لا تقول هذي أرمنية ما يعجبها أبارك لها برمضان، لا ياب نقبل منك كُل شِي ..

فاحتار سالم بماذا يرد عليها أمام هذه الفضيحة، فاحمرت وجنتاه، وابتلع لسانه، وتجمد في فمه، ولم يتفوه بكلمة واحدة، أما والده الذي قال بينه وبين نفسه بصوتٍ غير مسموع، لا حول ولا قوة إلا بالله، اقتربت الساعة وزاغت النساء ..

قبل خروجهم من ساحة الحرم الجامعي طلب منهما سردار قبول دعوته على عزيمة عشاء في أحد المطاعم بالعشار، بمناسبة تخرج أخيه وحبيبه سالم، إلا أن والد سالم اعتذر عن هذه الدعوة، بحجة نومه المبكر، وأنه لا يقوى على السهر في الليل ..

الرميثية

أنهى سالم توثيق جميع ما يلزمه من أوراق رسمية مهمة يحتاج إليها، واستعد للسفر للكويت، بادءًا أولى خطواته في بناء المستقبل، وتذكر صديقه حسين، الذي أطلق على هذه المرحلة في مذكراته بمرحلة النطفة ..

بعد أن ودع والدته وأخواته وأصدقاءه المقربين وجميع معارفه، ذهب لتوديع والده في دكانه، فجلس على تنكة (صفيحة) تمر فارغة مقلوبة فوقها خيشة (بالة) تمن فارغة، **قال والده له:**

يا سالم أنصحك بأن لا تسكن عند أحد من أقاربك، كن على علمٍ أن مدة الضيافة هي ثلاثة أيام، وبعدها عليك البحث عن سكن يأويك، خذ هذه المائة دينار عراقي، أنفق منها ما تحتاج، ريثما تعمل وتستلم مرتبًا، لا تكن ضيفًا ثقيلًا على الناس، وترمي بنفسك في اللا مبالاة، دون شعور، مهما كانت صلة قرابتك بهم، كن عزيزَ النفسِ، لو جئتَ للمائدة لا تكن أول من يجلس، ولا تكن أول من يبدأ بالأكل، كن آخر من يجلس وآخر من يبدأ بالأكل، قل بسم الله في البداية وأسمَّعها غيرك، لا تستحي في الجهر فيها، كن أول من يقوم من سفرة الأكل، وقل أكرمكم الله قبل قيامك منها، ولا تمل من قولها، قلها في كل وجبة طعام حتى لو كانت خبزة يابسة وماء ..

يا سالم، أعرفك لقد مررت بتجربةٍ قاسيةٍ، ونجحت في اختبارها، ولكن لابد من تذكيرك، فتحملني يا سالم على الجهر لك عن ما في صدري، فأنا أقرب إليك من نبضك الذي يرعد صوته في صدرك ..

فنهض سالمٌ من مكانه، فقبل رأس أبيه، وانحنى بجذعه لتقبيل يده وشكره على مساعدته، ودعمه غير المحدود طيلة مسيرة حياته، ووعده بأنه سيكون عند حسن ظنه.

ركب سالم سيارة لونها أزرق سمائي، لوحتها (كويت خصوصي) ملك السائق توفيق، ممن يكدون في خط زبير كويت، من موقف كراج العبيَّد المقابل للبريد، جنب قهوة الملا من جهة الجنوب ..

سالم ليس معه أمتعة كثيرة، غير حقيبة جلدية، لونها بني، من ذوات الحجم الوسط، كانت تحتفظ فيها والدته من زمن بعيد، وعلاقتين متوسطتين من الخوص، مملوءتين بالخضرة المتنوعة، أرسلها معه والده صوغة لأقاربه في الكويت .. دفع سالم رسومًا إضافية للعلاقتين، وبعد صلاة العصر مباشرة، بعد أن اكتمل عدد العبرية (المسافرين) في السيارة انطلقت الـ ستروين، من موقف سيارات الكويت، وقبيل المغرب ختموا جوازات سفرهم من منفذ حدود سفوان أولًا، بعد أن تخلف عنهم أحد المسافرين العراقيين؛ لأنه مطلوب أمنيًّا حسب ادعاء أمن إدارة الجوازات العراقية، ثم ختموا جوازات سفرهم من مركز حدود العبدلي، بعد أن أصرت إدارة جمارك الكويت على فتح العلاقتين المُخيَّطتين بخيشة؛ ظنًّا منهم أنها تحتوي قوارير مشروبات روحية، لكن ظنهم خاب، فقدموا له الاعتذار، بعد أن عاملوه بغلظةٍ، وختموا له جواز سفره، ودفتر مرور السيارة للسائق (كي تي).

في طريقهم مروا على عدد لا بأس به من مزارع سفوان والعبدلي، ثم ارتقوا لهضبة مركز نقطة المطلاع دون توقف فيها، ومن هضبة المطلاع هبطوا لسهل منطقة الجهراء التي حدثه عنها حسين في رسائله الكثيرة يوم كان فيها شاويًا، وتذكر قصيدته في وصف منطقة الجهراء، وعن طريق دوار العظام، توجهوا لقلب العاصمة، بعد مرورهم بمنطقة الشويخ الصناعية، ثم استقرت بهم السيارة عند محطتها الأخيرة .. دكان المحطب في شارع عبد العزيز حمد الصقر ..

عند دكان المحطب يلتقي المسافرون من الكويت إلى الزبير وبالعكس، ومن الكويت إلى السعودية وبالعكس، الحاج صالح المحطب رجل رزقه الله من ذخائر الطيبة، ومن كنوز فعل الخير للناس، كان دكانه بمثابة رابطة خير للناس، وكان عبارة عن بريد مركزي، ملتقى حيوي لتوزيع وتبادل الرسائل بين الزبير والكويت والسعودية، كان المسافرون ينقلون ما يرسله الأبناء من نقود لمساعدة أهاليهم على المعيشة في الزبير، قام جزاه الله خيرًا بكفالة عدد كبير من أهالي الزبير في استخراج دفتر المرور الجمركي، المسمى بالتبرتك (كي تي)، والذي يتطلب كفيلًا كويتيًّا، فلقد كفل أُناسًا لا يعرفهم، مجرد أن جاءته تزكية بأن هذه الأسماء من أهل الزبير ..

عند وصول سالم بعد صلاة المغرب، دخل مباشرة لدكان المحطب؛ للسلام على الحجي صالح، فقبل رأسه، ونقل له تحية والده الخاصة (بناء على توصية والده)، ثم استوقف سيارة أجرة، وساوم سائقها على كروة نقله لمنطقة الرميثية، وسالم يعرف جيدًا منزل خاله الواقع في القطعة رقم4، بل

يكاد يعرف أكثر مناطق الكويت، لم ينقطع عن زيارتها منذ أن كان صغيرًا، أغلب إجازاته الصيفية كان يقضيها في الكويت، هروبًا من شدة حرارة الجو في الزبير، خصوصًا في أيام الشرجي وأيام (طبخة الرطب)، كان يهرب للكويت للنوم في غرف الكنديشنات (المكيفات)، بدلًا من النوم فوق السطوح في الزبير، في منزلهم مكيف صحراوي واحد، موزع بطريقة نظام السنترال المركزي على ثلاث غرف، وبشق الأنفس يتمكن مثل هذا المكيف من توزيع برودته بين هذه الغرف الثلاث، بعد أن يستنفد رصيد قوة دفع هوائه المشبع بالرطوبة ..

بعد ربع ساعة وصلت سيارة الأجرة لمنزل خاله في منطقة الرميثية، وجد باب المنزل مفتوحًا، فلم يدخل؛ فأدبه وخلقه يأبى الدخول دون استئذان من أهل الدار، دق جرس الباب، فخرج له هندي خصلات شعره الناعمة النابتة من مقدمة شجرة رأسه تنضح زيتًا، سالم يعرفه جيدًا، إنه طباخ العائلة (شاشي)، إنه مرضعة المنزل والرجل المهم فيه، فصاح شاشي، سلام عليكم سالم، تفزل .. تفزل .. هياك الله همدًا لله على سلامتك ..

فقال سالم مُحدثًا نفسه: المأخوذ هذا الهندي كأنه صاحب منزل، وليس بصبي عندهم، ما شاء الله عليه، شكرًا شاشي ..

بصراحة كل العتب على الخال، الذي مكن مثل هذا الهندي من مسئولية إنشاء هذه السيطرة (مركز تفتيش) عند باب منزله، يلَّا يقولون: إن طاعك الزمن وإلا طعه، وغصبًا علينا سنطيع شاشي وأمثاله، أين أنت يا حجي لترى مثل هذا التمكين العلني للهنود دون فتاوى تبريرية بربرية ..

دخل لحرم المنزل، فسلم على زوجة خاله التي كانت جالسة في ركن الصالة (غرفة الجلوس الرئيسية) في مكانها المفضل، الذي يرصد كل حركة في المنزل، ثم جلس بمكانٍ ليس بعيدًا عنها، فهجمت عليه بقائمة من الأسئلة المُعدة مسبقًا لمثل هذه المناسبات .. متى الوصول ما شاء الله يا سالم، سمعنا إنك تبي تشتغل بالكويت، وين راح تشتغل إن شاء الله؟ ومن يئ (جاء) وياك؟ ويت (جئت) مع منو؟ ومريت على بيت عمتك لو بعد؟

أسئلة اختبار وليست أسئلة استقبال وحسن ضيافة، ثم نادت على الشغالة ماري بأن تحضر لهما الشاي، وفي هذا الوقت وصل بعض من أولاد خاله القريبين من عمره، فسلموا عليه وجلسوا يتحدثون معه، ويسألونه عن أخبار الزبير وعن تخرجه، وعن مشاريعه المستقبلية، فأخبرهم بأنه وجد وظيفة مؤقتة في شركة البابطين للسيارات، سيعمل في الكراج مهندسًا كهربائيًّا ..

بعد صلاة العشاء وصل خاله من زامه متعبًا كعادته، فأعراض الضغط والسكر يتلاعبان في معدل درجة ميول مزاجه، فرحب بقدوم ابن أخته نويّر، كما يحلو له تسميتها منذ أن كانت طفلة، هي أصغر منه عمرًا، وطلب من زوجته تجهيز فراش نوم لابن أخته، واختار غرفة الولد الصغير منهم؛ لأنها أكبر الغُرف مساحة في المنزل، فردت عليه زوجته شاهة معترضةً:

يه .. يه .. يه .. (كلمات تعجب في اللهجة الكويتية) شحقه نفرش له فوق يم البنات، مو چنه (كأنه) عيب، أنت ما تخاف على بناتك (الله أكبر يا خاله .. الهندي مَحّرم أما القريب مُحرّم) ..

بو جمال .. كاه الميّلس(المجلس) الخارجي شكبره شوفه، فارغ ووسيع، ولو يبي يردح فيه يكفيه ..

فرد عليها الخال متوسلًا ود رضاها:

يا بنت الحلال، كلها چم يوم والله يحفظه من كل شر، قزريها (تحملي) وخلينا نتجمل ويا أهله، وترى لو يوصل الخبر لأبوه حنا حاطينه بالميلس يم غُرف الصبيّان (جمع صِبي أي عامل) شيفكنا من لغَّوته، خلينا نحطه مع الصّبيَان (جمع صبَي يعني ولد) ..

- بس عساه ما هو مطول في قعدته عندنا؟

- لا .. ما أظن، كلها چم يوم على ما يلقى شغل ..

نام سالم أول ليلة له في الكويت في غرفة الطفل الصغير، الذي عمره لا يتجاوز السبع سنوات، وحرموه من النوم في غُرف من هم قريبين من عمره؛ كي لا يطيب له المُقام عندهم، كان وقت صيف ومناسبة عطلة مدارس، أطفالهم يسهرون بالليل كأنهم نواطير (حراس أسواق) حتى طلوع الفجر وبزوغ أشعة نور الشمس، ولا يستيقظون من النوم إلا مع أذان المغرب مع وقت مغيب الشمس، فليلهم نهار ونهارهم ليل، وصلاتهم جمعًا، يا سبحان الله، لم يكن يعرف سالم مثل هذا النظام في الزبير، فالزبير ليلها ليلٌ ونهارها نهار، الناس فيها تنهض مع انفجار نور الفجر مع زقزقة صغار عصافيرهم التي تطلب أكلًا، وبعد صلاة العشاء يبدأ مشروع نومهم

في بسط سلطانه عليهم، لا يتأخرون كثيرًا ومن يسهر منهم في الليل لا يبالغ في سهره حتى ساعات الذروة (وقت بزوغ الفجر) ..

حاول في أول ليلة النوم بهدوء، لكن شريكه في الغرفة الطفل المشاغب، سبب له إزعاجًا من كثرة دخوله المتكرر للغرفة وخروجه منها، وصوت التلفزيون المرتفع طول الليل حكاية أخرى، أما صوت ألعابه الإلكترونية الكثيرة فحدث ولا حرج، استغرب سالم من حجم ميزانية مصاريف البطاريات التي تعمل في مثل هذه الألعاب الإلكترونية، فاضطر سالم لعصب عينيه في غترته لحمايتهما من رؤية الإضاءة المنسكبة في المكان، ثم وضع طرف منديل ورقي (كلينكس) في داخل أذنيه ككاتم للصوت، فتمكن من النوم لسويعات قليلة جدًّا، إنه يعلم تمامًا عليه أن ينهض مبكرًا في الصباح، فلديه عمل كثير، يجب إنهاءه قبل حلول الظهر ..

استيقظ في الساعة السابعة صباحًا، فوجد الهدوء يُخيم في المنزل، وجد نفسه كأنه في مقبرة مهجورة من الزوار، بعد أن تركهم ليلة البارحة في هرج ومرج وأصوات مزعجة، دخل المطبخ بحثًا عن الشغالة ماري لتحضير له الريوق، فلم يجدها، فالكل في سبات حتى الصبيان ..

دخل الحمام وملأ الحوض بالماء الساخن، ثم غطس فيه لمدة عشر دقائق لتنشيط دورته الدموية من الكسل، الذي بدأ يدب في كل أطرافه، فاستحم وخرج من المنزل؛ ليذهب لشركة البابطين لمقابلة مدير شئون الموظفين، بناء على وصية زميله إبراهيم، عند خروجه من فيلا خاله، شاهد فتاة تخرج

من الفيلا المقابلة لمنزل خاله لتركب سيارة مازدا 929 سبور، لونها أحمر وكشناتها(مقاعدها) جلدية بلون أبيض، فحدث نفسه بأن يطلب منها إيصاله للشارع الرئيسي، ولكن خجله منها منعه من ذلك، ماذا لعله أن يقول لها وهيئته الكويتية، كأنها غير لائقة على الكويتيين في عُرف المجتمع، تُعتبر (عيب ومنقصة)، ريال (رجل) شكبره ما عنده سيارة ..

رغم أن هذه الفتاة الجميلة لم تسلم من شر نظره النهم إليها، أظنها استغربت كثيرًا من شدة تركيز نظره المصوب إليها، لابد أنها قالت في نفسها، ما هذه الوقاحة في هذا الصباح، أظن أنه بحاجةٍ لتلقينه درسًا في الأدب والحياءِ ليكفَ عن مثل هذه النظرات الجسورة ..

صرخت تعوي عجلات سيارتها فوق الإسفلت، دون اعتبار أو أي اهتمام له، وكأنها تُريد أن تشتمه بصوت هذه العجلات، فسار مشيًا على الأقدام للشارع الرئيسي، بعد أن استنشق رائحة دخان عجلاتها المحترقة على وجه الإسفلت الأسود، ومن هناك استقل سيارة أجرة توقفت عند مقر شركة البابطين ..

عند دخوله للشركة شاهد كثيرًا من شباب الزبير الذين يعرفهم يعملون، فالبابطين جزاهم الله خيرًا، وظفوا كثيرًا من رجالات الزبير في شركاتهم، ومن أهم هذه الشركات، شركة السيارات (وكالة نيسان)، فلهم الفضل والمنة بعد الله عليهم ..

قدم أوراقه لمدير شئون الموظفين، بعد أن ذكره بوصية إبراهيم، تم تعينه في الحال بقرار من المدير العام للشركة، بمرتب قدره 75 دينارًا كويتيًّا، على

أن يبدأ العمل بعد يومين؛ نظرًا لحاجتهم السريعة لخدمات مهندس كهربائي في الورشة، فاستبشر خيرًا بهذه الوظيفة، فلم ينته اليوم إلا وقد أتم استكمال إجراءات تعيينه، وتوقيعه على الأوراق الرسمية ..

فخرج من مكتب شئون الموظفين، فشاهد بعض الشباب الذين يعرفهم، جلس يتحدث معهم، وأخبرهم عن سرعة تعيينه، وأخبرهم عن مقدار مرتبه الشهري، فحملوا في صدورهم بعض الشيء على مدير شركة البابطين، الذي يدفع لهم مرتبات متدنية، لا تزيد عن الخمسين دينارًا، ومثل هذا الموظف الجديد، الذي دفعوا له 75 دينارًا ..

قرروا في الغد الدخول لمكتب الضويلع لرفع شكوى تظلمهم بهذا الخصوص إليه، وكان عثمان الضويلع مستشارًا وفيًّا ومخلصًا لشئون شركة البابطين وأصحابها، وكان بنفس الوقت محبًّا لعمل الخير، ومراعيًا لشئون الموظفين، دخلوا عليه وشرحوا له وجهة نظرهم، فقال لهم ليس بيده أمر، سوف ينقل شكواهم للمدير العام ..

نقل شكواهم للمدير العام، وطلب منه إحضارهم جميعًا، وأن لا يتخلف منهم أحد، فأحضرهم جميعًا، **فقال لهم:**

أظن أنه ليس معكم حقٌّ فيما قلتم من تظلم بخصوص مرتباتكم، لكني سأدفع لكل واحد منكم مائة دينارًا بدلا من مرتبه الذي يتقاضاه حاليًا، إن كان من بينكم من يحمل شهادة جامعية مثل سالم، فما بالكم بأنه يحمل شهادة هندسة كهربائية، نحن ساويناه مع من مثله ممن يحملون الشهادات

الجامعية، لماذا نظرتم له على وجه الخصوص، ولم تنظروا للمصريين والأردنيين والفلسطينيين، الذين يعملون معنا، ويتقاضون نفس مرتبه وأكثر منه ..

فسكتوا جميعًا، وخرجوا من مكتبه مغلوبين على أمرهم، بعضهم اقتنع بقوة حجته، وآخرون أوعزوا ظنهم لشدة قوة تأثيره عليهم وسحرهم بكلامه الجميل وحجته ..

بعد صلاة الظهر عاد سالم أدراجه لمنزل خاله، فطلب من صاحب التاكسي أن يقف في طرف الشارع القريب من منزل خاله، عند هذا المكان شاهد في صباح اليوم بقالة صغيرة مزروعة في كراج أحد الفلل، دخلها ليشتري سندويشة جبن بالزيتون، ويشرب غرشة (قارورة) كولا، تناولها أثناء حديثه مع الإيراني البائع في البقالة الذي يتكلم لهجة كويتية مسخرة (مكسرة)، سأله عن بعض البيوت في المنطقة ونوعية سكانها، وخاصة القريبة من بيت خاله ..

خرج من البقالة وذهب لمنزل خاله بعد أن ملأ معدته من الطعام، فمرت المازدا 929 من جواره لتقف تحت مظلة السيارات أمام منزلهم، وتنزل منها نفس الفتاة التي شاهدها صباح هذا اليوم، تلبس نظارة سوداء كبيرة الحجم، غطت معظم وجهها المصبوغ بالميك أب، وتلبس حجابًا بنفس لون قميصها، تُعلق حقيبتها السوداء الصغيرة على كتفها الأيسر،

وتحمل بيدها اليمنى مجموعة من الجرائد ..

فقال لنفسه، لا أظنها ستقرأ كل هذه الجرائد اليوم، بالتأكيد سوف تقرأ بعض العناوين منها، ثم سيكون طريق هذه الأوراق الثمينة إلى براميل البلدية ..

أسرع في خطواته؛ لعله يقترب أكثر؛ كي يُشبع نظره منها قبل أن تدلف لمنزلهم، ولكنها كانت أسرع منه في الدخول لمنزلهم، وكأنها شعرت بقصده من سرعة خطواته نحوها، فلم تُمكنه من تحقيق هدفه وغايته ..

لخال سالم ابنتان في سن المراهقة وثلاثة أبناء، أكبرهم جمال الذي يصغر سالم بأربع سنوات، أسماه والده بهذا الاسم تيمنًا باسم جمال عبد الناصر، كان خاله قوميًّا ناصريًّا منظمًا حتى الموت، تتصدر صورة جمال عبد الناصر بإطارها المذهب جدار ديوانيته العامرة ..

طلب جمال من ابن عمته سالم الذهاب معه لجمعية الرميثية التعاونية، التي ليست بعيدة عن منزلهم، فلبى سالم له رغبته، ووجدها فرصة له لمد جسور العلاقة المتينة معه؛ عله يعطف عليه، ويظفر بنقله لغرفته الخاصة، ويُحرره من اضطهاد بطولات أخيه الصغير الليلية المزعجة الزاحفة بأصوات ألعابه الإلكترونية الكثيرة ..

جمال يدرس هندسة نفط بجامعة أكسفورد في بريطانيا، مُبتعثًا من قبل شركة نفط الكويت، موجود حاليًا في الكويت لمدة أسبوعين؛ بسبب إجازة نهاية دراسة الفصل الدراسي الثاني له ..

في طريقهما للجمعية سأله سالم عن سبب تسمية الرميثية، **فقال له:**

لقد كانت في السابق قبل أن تُعمر وتنشأ عليها المنطقة السكنية برًّا خارج حدود حولي، كان ينبت في أرضها الرمث، ومن مراعي الرمث جاء اسم الرميثية ..

دخلا الجمعية، وهما يسيران جنبًا إلى جنب، كصديقين يتمازحان مع بعضهما البعض، سحب جمال عربة التسوق من طابور العربات المرصوصة عند مدخل الجمعية، فلمح جارتهم أنوار تقترب من طابور العربات، فسارع بإعطائها عربته، وسحب لهما عربة أخرى، فشكرته وقالت له: حمدًا لله على السلامة ..

- متى جئت يا جمال؟

- قبل أسبوع يا أنوار؟

- كيف وجدت الغربة في بريطانيا؟ بالتأكيد وجدتها صعبة عليك مثل من سبقوك، وأظنها كانت متعبة، وخصوصًا أنت في السنة الأولى منها ..

- لا .. لا .. لم تكن صعبة مثلما تتصورين، لقد تأقلمتُ معها سريعًا بفضل الربع الكثيرين هناك، لكن الشيء الذي فقدته كثيرًا ولم أستطع تحمل غيابه عن حياتي في بريطانيا مطبق الزبيدي (طبخة سمك كويتية مشهورة)، لقد فقدت طبخات شاشي ..

على فكرة يا أنوار، لقد نسيتُ أن أعرفك على سالم ابن عمتي نورة، وصل قبل يومين من الزبير، مهندس كهربائي من خريجي جامعة البصرة،

فيّه ريحة من خوالچ المقيمين في البصرة ..

فضحكت وضحك سالم معها الذي كان ساهمًا في النظر إليها ..

فقال سالم لها: تشرفتُ يا أنوار بمعرفتك ..

فردت بقولها: وتشرفتُ بمعرفتك يا باش مهندس على قولة المصريين ..

ثم تفرقوا داخل شُعب الجمعية الكثيرة المتوازية، فجمال يبحث عن بعض الحاجيات التي تنقصه في بريطانيا، مدونة في ورقة صغيرة، يحملها بيده، أما سالم فلم يكن له هدف محدد من مجيئه للجمعية غير مرافقة جمال، الذي طلب منه ذلك، فتسكع بين ممراتها، يُلقي نظرة على بضائعها المعروضة، فتذكر أنه بحاجة لموس حلاقة وعطر لما بعد الحلاقة (أولد سبايس)، الذي يعشقه بعد حلاقة الذقن ..

عند قسم العطور رأى أنوار تضع بعض أصناف معطرات الجو في عربتها، التي بدأت معدة العربة تمتلئ بما فيها، فتوقف عندها، **وقال لها:**

يا أنوار، لو وقفت الأسواق على تسوق الرجال لأغلق التُجار أبواب دكاكينهم، وجفت أرقام أرباحهم، ولكن الله رحمهم بأن بعث لهم النساء لإنعاش أسواقهم ولتتضخم ميزانياتهم ..

فضحكت من ممازحته الظريفة لها، وظنت بخفة دمه، وقالت له: قل ما شاء الله لا تطقنا عين يا .. يا .. يا ..

فقال: محسوبك سالم، على قولة الإخوة المصريين ..

فضحكت وضحك سالم معها، **وقال:**

لا تخافين يا أنوار، عيوني لونها خضراء، من ذوات الدم البارد، لا تعرف

شدة الحرارة، دائمًا تعيش في منطقة أجواء القطبين المتجمدين ..

فضحكت وودعته، وسارت بعربتها جهة كاشيرات المحاسبة ..

في طريق عودتها للمنزل، سأل سالم جَمالًا:

سمعتك تقول عن أنوار بأن خوالها من أهل البصرة، هل هي عراقية؟

يا سالم، هي كويتية عيميّة (عجمية)، أبوها كويتي أصله إيراني من الأهواز، وأمها عراقية من مدينة البصرة، تعرّف أبوها على أمها في جامعة البصرة، كانا يدرسان معًا في كلية الإدارة والاقتصاد، في تلك الأيام لم يكن في الكويت جامعة، فوالدها أحب أم أنوار وتزوجها، وخصوصًا عندما عرف بأنها على مذهبه الجعفري ..

فقال سالم: ردينا على موضوع مذاهب المسلمين، السني والجعفري والشيعي مرة أخرى، بعد أن فارقناها من أيام عقد مهر سردار على خاتون هانم ..

- ومن تكون هذي خاتون يا سالم؟

- هي حكاية أخرى فسأرويها لك في هذي الليلة إن شاء الله، شريطة أن تقوم بدعم مشروعي السكني يا جمال ..

- وعن أي مشروع تتحدث يا سالم؟ أرجو أن لا تكون قدمت على قسيمة أرض وحنا ما ندري، أو ناوي تشتري سكن جاهز في المناطق

الجديدة يا ولد العمة نورة؟

– أريد مساعدتك بنقلي لغرفتك، بدلًا من غرفة أخيك الصغير، أريدك أن تتحدث مع والدتك بهذا الخصوص، بشرط أنها لا تعلم بأني طلبتُ منك هذا، أخبرها بأنها رغبتك الخاصة يا جمال ..

– أبشر يا ولد العمة نورة، اعتبر نفسك بأنك منقول رسميًّا لمقر إقامتك الجديد، ومن الآن انقل حقيبتك وقشك ..

وفي الليل حكى سالم لجمال قصة سردار كاملة، فتعجب جمال من شدة قسوة قلب زوج عمته، كيف يطرده من المنزل، واستغرب من تحمل صبر عمته على فراق ضناها الوحيد، وسأله إن كان والده (الخال) يعلم بقصة خلافه مع أبيه أم لا ..

لكن سالمًا بذكائه الفطري تمكن من إدارة دفة الحديث لموضوع آخر، بدلًا من الخوض في تفاصيل لا تُقدم شيئًا ولا تُؤخر، مثل طرده وخلافه مع أبيه، فموضوع مثل هذا قد قامت قيامته، وانتهت ساعات حساباته ..

وَشَرَقَ سالمٌ بـه وَغَـرَبَ، ومـن حـديث إلى حـديث آخـر، تمكـن مـن استدراجه ونزع فتيلة حماسه من حيث لا يشعر، إلى أن حان موعد رحلة النـوم؛ لأن غـدًا سـيكون أول يـوم دوام لـه في الـشركة، وعليـه أن يـنهض مبكرًا؛ تلافيًا للتأخير في أول يوم عمل رسمي في حياته بعد تخرجه.

***

حديقة جمال عبد الناصر

سارت أيام العمل في حياة سالم كما يُريد، وكما خطط لها، فلم تُعكرها وحشة الغربة، رغم بعض المشكلات التي تتفتق له في مجاري شرايين الحياة بين فترة وأخرى، وهكذا الإنسان كلما ارتفع في أرض عزه وفي سماء مجده، تكاثفت حوله الغيوم والمحن ..

فأيام عمله لم تسلم من منغصات اللوم والعتب والحسد وتصيد الأخطاء للمتربصين له من زملائه، بداية واجهته بعض الصعوبات الفنية؛ بسب جهله لدوائر كهرباء السيارات؛ لأن تخصصه كهرباء مولدات طاقة كهربائية، كان بحاجة لبعض المفاهيم البسيطة، الخاصة بدوائر شبكات كهرباء السيارات، تمكن من معرفتها بالقراءة، وسؤال ممن حوله، ومن أبسط عمال الورشة الكهربائية، فقد تمكن خلال أيام قليلة من تدارك مثل هذا النقص، الذي كان يُعاني منه، واستطاع تقديم حلول لكثير من مشكلات كهرباء السيارات في الورشة ..

عودة جمال لبريطانيا سببت له أزمة في أوقاته، فقد تفتقت عن فراغ كبير في حياته، كان يقضي معظم فترة أوقاته معه، ومع أصدقائه في ديوانية الفريج .. علاقته بأنوار تطورت ونمت، وبدأت تأخذ أشكالًا أخرى من التعارف، فيها نوع من الجدية والمصداقية في العلاقة بينهما، بعد أن خَطت أنوار خطوات جريئة في توصيله لمقر الشركة التي يعمل فيها لأكثر من مرة،

كانت بداية جرأتها أول مرة عندما رأته واقفًا في الشارع الرئيسي، ينتظر تكسيًا أو بيك أب، كعادته؛ لإيصاله لمقر الشركة، فتوقفت وسألته عن وجهته التي ينوي الذهاب لها، فعرضت عليه توصيله عندما علمت بأن عمله ليس ببعيد عن مقر عملها ..

تعمدت التوسع في تقديم نفسها له، فعرف أنها خريجة كلية التجارة من جامعة عين شمس في مصر، تعمل في البنك الوطني فرع جمعية الخالدية، رئيسة قسم الحسابات الجارية .. بعد مرور عدة أسابيع تخللتها لقاءات متفرقة عرضت عليه دعوة عشاء في فندق الهيلتون، أقامها البنك لموظفيه، بمناسبة حصول فرعهم على درع أفضل فرع في ذلك العام، قبل الدعوة بسرور، وذهب معها في سيارتها الخاصة للفندق، بعد أسبوعين رد لها عزيمتها بدعوةٍ على حسابه الخاص، بمناسبة مرور ربع سنة على توظيفه، كان العشاء في نفس الفندق، وفيما بعد أصبح الفندق مرتعًا للقاءاتهما المتكررة، فاحتضن نمو حبهما، شهدت مقاعد لوبي فندق هيلتون الجلدية على سخونة اللقاءات ودفء جسد هذا الجنين ..

يومًا بعد يوم يُحيط سالمٌ نفسه بعلاقة صداقات قوية ومتينة بمن حوله، ويمد جسور التعارف مع كافة ربع الديوانية، وشعاره في ذلك أن الابتسامة أقصر طريق لتآلف القلوب وجرها لدائرة المحبة، وإن كان كثير من الناس من يعتقد بأن الحديث فنٌ من فنون الحياة على المرء إجادته، فإن سالمًا جعل من الإصغاء فنًّا كذلك، عليه أن يتحلى به في المجالس ..

كان سالم بشوشًا في وجهه، ودمثًا في خلقه، ووسيمًا في مظهره؛ مما فتحت له مثل هذه الصفات أبوابًا واسعة لطريق قلوب الناس، فتمكن بسبب سعة أفقه في الحياة، وكثرة ثقافاته وتنوع خبراته، من إجبار الآخرين على احترامه وتقديره في المجلس، وأينما حل؛ مما أدهش ابن خاله كلما عرّفه على شخص ما، سرعان ما يجده يستمتع بحديثه في اليوم التالي، ويسأل عنه ليُقيم معه علاقة صداقة، فلقد حظي سالم بمكانة مرموقة بين أعضاء الديوانية الذين كانت أعمارهم تتراوح ما بين العشرين والثلاثين ربيعًا، وما بين موظفي عمل في الوزارات وبين طلاب دراسة في الجامعات، كان شغلهم الشاغل وهمهم المتفقين عليه، أن يكون لمثل هذه الديوانية صيتًا وشهرة بين الديوانيات في الكويت؛ لذا كانوا حريصين على إقامة الندوات الاجتماعية واللقاءات الثقافية والفكرية والأدبية، ولديهم ليلة خاصة في ذلك، يسمونها بليلة الاثنينية، هي الليلة المقدسة لديهم، لا يمكن لأحد منهم أن يعتذر فيها، حتى ضيوفهم كانوا حريصين على حضورهم ومتابعتهم، يتفقدونهم هاتفيًا ويسألونهم عن سبب الغياب والتخلف في تلك الليلة ..

رئيس الديوانية مهندس كهربائي، اسمه فيصل، يعمل في وزارة الكهرباء، مدير قسم مولدات الطاقة الكهربائية، من خريجي جامعات الولايات المتحدة الأمريكية، صاحب ميول وطنية ومحب لوطنه، الموروث من حب عائلته لهذا الوطن المعطاء، مثقف وصاحب فكر مميّز، ومطلعٌ على فكر جميع الأيديولوجيات المندثرة والحاضرة في الساحة العالمية، صاحب كلمة مؤثرة .. إن تحدث أقنع محدثه، وأثر عليه ..

يتعاون معه شاب آخر اسمه مساعد، من خريجي الولايات المتحدة الأمريكية أيضًا، أقل منه عمرًا، يتصف بالذكاء الوقاد والعطاء غير المحدود، وشعاره في الحياة لا خير في يد يمنى بدون يسرى، ومساعد أكثر شخص يحتفي بسالم، ويرحب بحضوره، ويعطيه الفرصة للحديث أمام الحاضرين ..

اعتاد سالم في مطلع كل شهر ميلادي، أن يقتسم مرتبه الشهري إلى نصفين، قسم يبعثه لوالده مع المسافرين للزبير من دكان المحطب، والقسم الآخر يصرف منه فيما يحتاجه من ضروريات الحياة، لم يفكر في يوم من الأيام بفتح حساب مصرفي في أحد البنوك، رغم كثرة تحريض أنوار له على فعل ذلك ..

كتب له والده أكثر من مرة يطلب منه عدم إرسال نصف مرتبه، عليه أن يُقسم مرتبة إلى ثلاثة أثلاث، ثلث يرسله لهم وثلثٌ يجعله مصروفًا له، والثلث الثالث يدخره لمشروع زواجه في المستقبل، فكان دائمًا يرد على رسالة أبيه بينه وبين نفسه، بأن الرازق في السماء، ومنتظر الغيث في الأرض، وشتان بين عطاء الرازق وضيق أفق المرزوق ..

لم يسلم سالم من لسعات لسان زوجة خاله شاهة المؤذية، وكان دائمًا يعزي نفسه بقوله: إن اللسان الطويل دلالة على اليد القصيرة، وكما يقولون بإنك لتخطو نحو الشيخوخة البشعة يومًا مقابل كل دقيقة من أوقات الغضب، وأن ذوي النفوس الدنيئة يجدون لذة في التفتيش عن أخطاء المميّزين، لذا كان سالم يتظاهر بعدم سماع رغيها في الكلام مما كان يُغيظها أكثر، ويتظاهر بحبه لها مما كان يُشعرها بتفاهتها، لتتبع هفواته وسقطاته وعثراته ..

بتشجيع من ربع الديوانية قرر سالم شراء سيارة مستعملة، استعمال خفيف من أحدهم، على أن يقوم بسداد قيمتها بعد مرور سنتين من شرائها؛ مراعاة لأزمته المالية، مما سهل عليه الحركة والتنقل بين الأماكن التي يريد الذهاب لها، وبالأخص عمله ..

هاتف سالم حسينًا الذي لم يره منذ أن قدم الكويت غير مرة واحدة كانت خاطفة سريعة في مقر عمله، في مكتبه الصندوقي المركون في طرف بوابة خروج السيارات من المواقف .. إنه المسئول عن رفع حديدة العبور، واستلام قيمة أجور الموقف، لم يستمتع بالحديث معه كثيرًا بسبب تركيزه في عمله ..

طلب منه رؤيته والالتقاء معه في حديقة جمال عبد الناصر التي بعض روادها من أهالي الزبير، الواقعة بين منطقتي العديلية والروضة..

دخل حسين الحديقة لأول مرة، فوجد سالمًا في انتظاره، في المكان المتفق عليه، فتعانقا عناقًا حارًّا، وتبادلا أخبارهما الشخصية بحرية كعادتهما، أخبره سالم باستلامه رسالة قبل أسبوع من صاحبهما سردار، يخبره فيها بأن زوجته خاتون وضعت مولودًا جميلًا، أسمياه سالمًا ..

تخيّل يا حسين هذا الاسم، سالم بن سردار، ماذا سيفعل الحجي في مدينة الزبير لو علم أن اسم جده سالم الذي أسماني عليه تبركًا لذكراه، أصبح يتداوله الهنود والبنغلاديشين والباكستانيين، هل ستقبل عقليته النجدية مثل هذه التداولات ..

طبعًا بالتأكيد سيفرض عليه حصرًا، وسيطالبه بضرورة تغيير اسم مولوده من سالم إلى أي اسم آخر، كاسم(عالم أكبر) ليتلاءم مع طبيعة أسمائهم الهندية الباكستانية المركبة ..

سأله سالم بحزمٍ عن أخبار صديقته شفيقة وهل لايزال على اتصال بها؟

فأخبره حسين بأنها بخير، وتخرجت من الجامعة، والآن تُدرس مادة اللغة الإنكليزية في ثانوية البصرة للبنات، وتخصه بالسلام، وتسأل عن أخباره ..

قال سالم لحسين هيا تعال معي لترى سيارتي التي ابتعتها، ما رأيك في جولة بمنطقة السالمية لتناول العشاء هناك، فوافق حسين وذهبا لتناول العشاء في مطعم الطربوش، الواقع في شارع البلاجات، ثم طلب منه حسين قبول دعوته على فيلم هندي في سينما الأندلس، عرض عليه دخول السينما المجاني؛ نظرًا لأن ابن خالته المشرف على بيع تذاكر الدخول هذه الليلة، وبعد الفيلم سيأخذه لمكان إقامته، العزبة التي يسكن فيها مع بعض العراقيين بمنطقة شرق، فلبى سالم دعوته المجانية، وكلاهما تذكرا أيام التكية، وأيام سردار، وأيام بهلول، ثم قال سالم لحسين: إني أحب الماضي كجمادٍ منحوت داخل برواز، وكسطورٍ ممدة على صفحات الأوراق، تلفظ أنفاس تاريخها بين فترة وأخرى، إننا يا حسين نحب الماضي؛ لأنه ذهب ولا نُريد الالتصاق به، فقد انتهى عمره، وابتعد عن زمن منطقتنا، ولو عاد إلينا مرة أخرى لكرهناه، بل لجلدناه وقاتلناه، فحمدًا لله على الحاضر والمستقبل وعظم الله أجرك، وأحسن الله عزاءك في الماضي وذكرياته ..

***

كيفان

لم تتمكن زوجة خاله شاهة من تحمل رؤية سالم أكثر من فترة ثلاثة شهور، كانت تُردد أمامه مثلًا لا يعلم سالم من أين أتت به (كوّن صداقة مع القرش، لكن احذر أن يبتلعك)، لم يكن يظن سالم بأنه القرش المعني في قولها، هي تُريد ابتلاع القرش بما حمل في معدته من مخلوقات، لم تستوعب بأنها لن تستطيع أن تمنع الطيور من التحليق في أجواء بيتها، رغم أنها تستطيع منعها من أن تُعشش فيه، لم تُفكر أن عليها العمل على تفعيل الخير بكل وجوهه، وعليها كسب محبة الناس لها قبل مغادرة هذه الحياة في قطعة قماش بيضاء ملفوفة فيها، قيمتها ربع دينار، عملها الصالح سيكون دُعاءً لها في ظلمات القبر ..

دخلت الصالة كعادتها بوجهها الكئيب العابس، تبحث عن اختلاق مشكلة لتوريطه فيها، فرأت سالمًا يجلس قرب ابنتها إلهام، وبينهما كتاب مادة الفيزياء .. كان سالمٌ يشرح لها حلًّا لمسألة من مسائل الفيزياء، فانهارت صراخًا وعويلًا، وكأنها وجدت ضالتها في هذا المشهد المسرحي، **وقالت بصوتٍ مرتفع:**

مو قلت لك لا تقعد بروحك مع إلهام ..

چم مرة حذرتك من الضحك عليها، وهي زغيرة ما تعرف مثل ألاعيبك مع أنوار ..

أيا جليل الحيا ..

بنت ياهل نعنبو دارك، ما تفهم من الحياة شي، شنو لازق فيها، ما تستحي على ويّهك، حاط خشتك بويها ..

خلاص .. من اليوم ورايح مالك قعدة بالبيت عندنا، ولمن إيي خالك أخليه يشوف لنا صرفة وياك على هذي الجرأة مع البنت، يا خزياه قاعد معها بالصالة بروحكم، وسبق وأن حذرتك كذا مرة ..

لم يتفوه سالمٌ بأي كلمة، بل نظر إلى وجه إلهام المستغربة من تصرف أمها غير الطبيعي، ثم ابتسم لأنه تذكر شدة بلاء أصحاب التكية الذين هم أشقى منه بكثير، وكان يعلم بأن المهزوم إذا ابتسم أفقد المنتصر لذة الفوز ونشوة الانتصار، فكان قراره بأن لا يُحقق لها نصرها الذي تبحث عنه حتى لو كان نفسيًّا ..

ذهب لغرفة جمال في الدور الأول من المنزل .. جمع ثيابه وحاجياته في حقيبته، ومر عبر الصالة يُريد الخروج من البيت، فوجدها في نقاش وجدال حاد مع ابنتها إلهام، فسكتتا عندما شاهدتاه يحمل حقيبته في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل، فقال لهما، لستما بحاجةٍ لمثل هذي الخناقة، فأنا الغريب وأنا سأترك المنزل الآن، في أمان الله ..

أكرمكم الله يا خالة وما قصرتم معي، قال لي والدي حفظه الله، بأن مدة الضيافة ثلاثة أيام، فأصبحت ثلاثة شهور، فأنا آسف على تمديد الإقامة

لمثل هذه الفترة، سلامي الخاص لخالي الغالي، والسموحة منكِ يا أم جمال، وكلمتي الأخيرة، ستبقى إلهام أختي التي لم تلدها أمي ..

كان الوقت متأخرًا .. احتار في التفكير إلى أين يذهب في مثل هذا الوقت .. سبق أن أخبره بعض الموظفين عن وجود بعض سكن عزاب من الزبيريين في مناطق كثيرة في الكويت، مثل خيطان وحولي والنقرة وشرق، كأمثال، عزبة الصحن وعزبة العضيب وعزبة الحريبي، وعزبة اللصة، وعزبة الصالح، وعزبة العمر، لكنه لم يتمكن من التعرف عليهم، ووعده أحد الميكانيكيين من تزكيته عند عزبة يعرف أعضاءها في خيطان، لكنه حاليًا لا يعرف أحدًا منهم في مثل هذه الساعة المحرجة ..

فكر أين يذهب، هل يذهب لأحد الفنادق ويستأجر غرفةً لليلةٍ واحدةٍ، ستأكل مرتبه المدخر، كمصروف لباقي الشهر ريثما يتدبر أمره في الصباح؟ هل يستعين بأحد أصدقائه في الديوانية للمبيت عنده؟ كأنها غير لائقة، خصوصًا عندما يسمع صديقه وابن خاله جمال عن ما حدث له، بأن خواله طردوه من المنزل، بالتأكيد سيغضب منه ومن أهله؛ لأنها ستكون فضيحة بين ربع الديوانية ..

انقدح في فكره الذهاب إلى بيت عمته بكيفان لمدة يومين أو ثلاثة أيام، ريثما يتدبر أمره، بخصوص إيجاد عزبة تأويه ..

طرق الباب، فاستقبلته عمته خديجة استقبالًا لائقًا .. فرح كثيرًا في ابتهاجها بمثل هذا الاستقبال، لكنها أثقلت عليه بكثرة أسئلتها عن سبب

هجره لمنزل خاله، لم يجد لها عذرًا يشفي معرفتها، غير أن منطقة كيفان هي أقرب من الرميثية لمقر الشركة التي يعمل فيها، لكنها لم تقتنع من إجابته؛ مما زادها إصرارًا على معرفة المزيد عن خفايا الأمور، والوقوف عند السبب الحقيقي، خلف هجره لمنزل خاله، خصوصًا أنه فضل منزل خاله في بداية مجيئه، على السكن معهم، عندما عرضت عليه الإقامة معهم؛ لأن والده أرسل لها رسالة في ضرورة الاهتمام بسالم، فكانت تود رضا أخيها الذي تهاب من سوط لسانه ..

أخيرًا تمكن من إيجاد عذر لها، أخبرها بأنه سوف ينتقل خلال يومين للسكن في مقر الشركة التي يعمل فيها .. وهذه قصة لفقها لها ..

كيفان من مناطق محافظة العاصمة ومنطقة قريبة جدًّا لمركز المدينة ولمقر الشركة التي يعمل فيها سالم، سميت بهذا الاسم نسبة لوجود آبار مياه عذبة فيها، يقولون كان الناس يذهبون إليها لكي يكيّفون (يتنزهون) فيها ..

عمته خديجة لديها ثلاثة أبناء وبنتًا واحدةً، لم تتزوج رغم تخرجها من الجامعة قبل سنتين، من كلية الآداب، قسم الإعلام، وتعمل في وزارة الإعلام، في إدارة تطوير برامج الأطفال في الإذاعة، أما أولادها الثلاثة فاثنان منهما متزوجان ويقيمان معها بنفس الفيلا، أما الثالث الصغير (سعد) فلا زال يدرس علوم الشريعة في جامعة الأزهر بالقاهرة، لا يتحدث إلَّا بالعربية الفصيحة، يقبل حديثك معه باللهجة العامية فلا يُنكر عليك، لا

يمكن أن ينصب الفاعل، ولا يرفع المفعول به، وصاحب حجة في الدليل، كان هؤلاء الثلاثة هم من يقف خلف تأخر زواج أختهم الوحيدة ..

كلما جاء لها خطيب ردوه؛ بسبب عدم التزامه بالمظاهر الشرعية، أو نظرًا لمظاهر ضعف علاقته الدينية مع ربه؛ كتهاونه في صلاة الجماعة مثلًا، وخصوصًا صلاة الفجر، أو أن يكون المتقدم لخطبتها شخص لا يتناسب مع مقام مكانة عائلتهم، مستندين في هذا على حديث الرسول - صلى الله عليه وسلم: **"تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس"** ..

هؤلاء الإخوة الثلاثة يُمثلون واجهة من واجهات التيار الإسلامي في كثير من مناطق المحافظات، الذي انتشر وذاع صيته في مطلع السبعينيات في المنطقة العربية بصورةٍ عامة، عندما قام رئيس دولة عربية بتشريد الدعاة إلى الله، فهاجروا في أرض الله الواسعة لنشر دعوتهم، فكان هذا الزعيم سببًا بعد الله سبحانه وتعالى في انتشار دعوة الله بين الناس، دون علمٍ منه.

تعتبر منطقة كيفان معقلًا للتيار الإسلامي المعتدل، فمنها انطلقت الصحوة الإسلامية بمشاربها المتعددة، تجوب أرجاء ضواحي الكويت، انتشرت بسرعة رهيبة، ووجدت صدى القبول عند الناس، رغم وجود تكتل كان يتصدى لها ويُعرقل سير مسيرتها، ويطرح أيديولوجية مفهومه الخاص للحياة العامة والخاصة، رغم أن الكويت بطبيعتها دولة مسلمة وسكانها من المسلمين المحافظين على مظاهر الدين في جميع شئونهم، وهذا ما ورثوه أبًا عن جدٍ، وليس بأيديولوجيات جديدة، تُطرح على مسامعهم بخصوص النواحي التعبدية والفكرية.

في أول ليلةٍ في منزل عمته خديجة نام سالم في غرفة أصغرهم (سعد)، الذي كان يقرأ معظم ساعات الليل في أكثر من كتاب، كأنه يبحث في مسألة علمية أُشكلتْ عليه، ويريد أن يقف عند دليلها من هذه المصادر التي بين يديه، كل الكتب كانت أجزاء من أمهات كُتب، من ذوات الورق الأصفر، بعض صفحاتها ممتلئة بتهميشات قلمه الرصاص لحوافها، ثم بعد انتهائهِ من مسألته، قام يُصلي صلاة آخر الليل ..

استغرب سالم من صلاته التي كانت بدون وضوءٍ، سالم لم يكن مُتأكدًا إذا كان ابن عمته محافظًا على وضوئه خلال ساعات الليل التي كانت يقرأ فيها، أم أنه سرقه النوم عن رقابته، فقام للوضوء دون شعور منه!!

أيقظه سعد لصلاة الفجر، وسار معه للمسجد القريب من منزلهم .. استغرب من ابن عمته الكبير الذي تقدم المصلين ليؤمهم لصلاة الفجر؛ نظرًا لغياب إمام المسجد، كعادة بعض الأئمة الذين يتغيبون عن بعض الفروض، ولديهم من الأعذار الكثيرة، كانت صلاة ابن عمته خاشعةً وكان صوته هادئًا بترتيله للقرآن ..

بعد تسليم الإمام وانقضاء فترة التسبيح والأذكار، خرج سالم من المسجد ينتظر عند الباب الخارجي سعدًا أو أحد إخوته الخروج منه، لكنهم تأخروا كثيرًا في الخروج من المسجد، فرجع سالم لداخل المسجد لمعرفة سبب تأخرهم، فوجدهم متحلقين مع مجموعة من جماعة المسجد، كانوا يقرءون القرآن بصوتٍ عالٍ ومرتلٍ مسموع، وكان ابن عمته سعد يقوم بتصحيح الأخطاء التي يقع فيها القارئ.

فاحتار سالم ماذا يفعل، وليس معه مفتاح لباب المنزل الخارجي، وخشي أن يطرق الباب، فيُوقظ الراقدين ..

فانتبه سعد لوقوفه عند الباب لا يتحرك، فلوح له بيده يدعوه للمجيء والانضمام لحلقة تلاوة القرآن، فما كان منه غير الدخول في الحلقة، ومتابعة قراءتهم للقرآن، مستمعًا لهم؛ لأنه كان على غير وضوء حسب تبريره ..

قام سعد بإجراء مراسيم التعارف المعتادة بين سالم والحاضرين معه في حلقة التحفيظ، قال لهم: أعرفكم على أخيكم في الله سالم، ابن خالي من (أهالي الزبير)، من خريجي جامعة البصرة، كلية الهندسة، يعمل مهندسًا في شركة البابطين للسيارات ..

في منزل عمته خديجة سرداب كبير له أكثر من مدخل، زوجها ترك إدارة شؤونه وترتيبه لأبنائه الثلاثة، الذين أسسوا منه ناديًا صغيرًا لإخوانهم في الله، يُقيمون فيه الحلقات والندوات والمحاضرات والدروس الدينية التي تخص كل مسلم، لم ينسوا دعمه بالأنشطة الرياضية الترفيهية المتنوعة، فتم تأثيثه من ميزانيتهم الخاصة، وأعلنوا عن النادي للملأ، وجعلوا الانضمام إلى هذا النادي مجانًا، دون اشتراك أو دعم مادي، جعلوه وسيلة من وسائل الدعوة إلى الله، وهدفًا من أهداف الترويح عن النفس في أمور مباحة، وفيها من الفوائد الشرعية الكثيرة ..

فابتاعوا طاولة تنس، لمن يحب ممارسة هذا النوع من الرياضة، وقاموا بوضع رفوف خشبية عرضوا فيها مجموعة من الكتب الدينية والدعوية

والفكرية، ومكتبًا ذا ستة أدراج مع كرسيه المتحرك، وعددًا لا بأس فيه من الكراسي البلاستيكية ذات اللون الأبيض لجلوس الحضور، وتلفزيونًا كبيرًا، وشاشة بروجكتور، وسبورة بيضاء كبيرة لتُعلق عليها الإعلانات وكتابة الملاحظات، وبيبي فوت، وبلياردو.

لديهم يوم مميّز هم حريصون على الحضور فيَّه لسماع دروس فكرية مركزة، مستوحاة من فقه واقع الأمة الإسلامية، موعده في كل يوم ثلاثاء من بعد صلاة المغرب، في بعض الأحيان يشتركون في صيام جماعي (يشتركون في الإفطار معًا، كل منهم يأتي بطبق معين من بيته) ليومي الاثنين والخميس، أو الأيام البيض، كنوع نشاط من أنشطة السرداب ..

لاحظ سالم أن هنالك فرقًا بين ديوانية الرميثية وديوانية كيفان، فالأولى طابعها وطني قومي، ترفع فيه شعار الوطنية المحلية وراية القومية العربية، أما الثانية فيميل طابعها العام للتيار الإسلامي المعتدل (وكذلك جعلناكم أمة وسطًا)، يتغنون بأحلام الوسطية السمحاء، وبروح الربانية الحكيمة وبوطن الأمة الإسلامية ..

عرفَ سالم بعض رموز التيار الإسلامي المعاصر في الكويت، وقرأ فكر السابقين واللاحقين منهم في المنطقة العربية، رغم أنه لا يُطيق صناعة الفكر السياسي، ولا يميل لرموز سدنته، قرأ أشياء كثيرة عن رايات الفكر القومي، الذي يتكلمون بإخلاص عن أحلام وحدة الوطن والوطنية، وعن مشاريع إقامة دولة الأمة العربية الواحدة، رغم أنه لا يُطيق بلبلة أفكارهم

المستوردة، مع المواد الغذائية من شمال العالم وشرقه، حتى لو تم تهجينه في محاضن أيديولوجية عربية مسلمة.

والفكران، الرميثي والكيفاني أشبعا الديوانيات إغراقًا بمثاليات نظرية فكر (فقه الواقع) وفلسفتها الراديكالية .. لقد أصبح الجميع دون استثناء يدندن حوله، ولا تحلو الجلسة بدون طعمه ورائحة حطب طبخه، أصبحت نظرية فقه الواقع مادة لها قوة جاذبيتها المجنونة في العقول الشابة المتعشة بحرارة الحماس، ثم جاء من يتهم الاثنين بأنهم أصحاب مذهب (الواقعية) وأسموا فكرهم بـ(مذهب الواقعيين).

كلا التنظيمين أو النظامين بمشاربهما المتناسلة، يقف خلفهما رجال في الخفاء، لا تعلم من هم ومن الذي يمد لهم الدعم المادي والمعنوي والمنعة في التنفيذ .. إنه التنظيم الهرمي السري ..

سالمٌ لا يهوى هذا التوجه، ولا يهوى ذلك التوجه، فكلاهما له مكانته في قلبه، ويستويان عند تقييمه لهما؛ لأن قناعته في قدراته الفكرية أكبر من تأثير فكرهما عليه، لكنه أحب روح الحضور، وألف روح الجلسة بينهم، فكان رفيقًا عزيزًا من رفقاء جلسة الاثنينية، وأخًا حبيبًا غاليًا في جلسة يوم الثلاثاء.

كان يستمتع بحضوره الاثنينية في الرميثية، والثلاثائية في كيفان .. لم ينقطع عن الديوانيتين طيلة بقائه في الكويت.

وَجدَ سالم لأكثر من مرة فوق المنضدة التي بجانب سرير نومه كُتيبات صغيرة جدًّا، من أمثال تحريم حلق اللحى وتحريم شرب الدخان، وتصنيفه مع زمرة المسكرات، ووجد أيضًا رسائل قصيرة عبارة عن وريقات وعظية تذكيرية، بعضها يتكلم عن عقوبة إسبال الثياب، وأخرى تتحدث عن تحريم تأخير صلاة الفجر حتى طلوع الشمس، ورسالة ظريفة غريبة عن حرمة توقيت الساعات لأوقات الدوام الرسمي، بدلًا من توقيتها لأداء صلاة الفجر، وأخرى عن تحريم سماع الأغاني والمعازف ..

لم يُكلف نفسه بالسؤال عن من يضعها كي لا يثير بخصوصها زوبعة مشكلة، ولم يتأفف من تكرار وجودها فوق المنضدة لأكثر من مرة، وكان كل ما يفعله يأخذ مثل هذه المنشورات الوعظية الدينية معه للعمل، فيضعها فوق الطاولة الكبيرة المركونة في زاوية صالة الاستقبال في معرض الشويخ، فهناك تجد يدًا تلتقطها بلهفةٍ ثم تقوم بتصريفها.

***

خيطان

بعد شهر من الإقامة في منزل عمته خديجة، تمكن من إيجاد عزبة في خيطان بمساعدة أحد الميكانيكيين الذين يعملون تحت إشرافه في الورشة.

مشكلته كانت تكمن في وضعه شروطًا خاصةً، والتي لابد من توفرها في أعضاء سكان العزبة الذين سيشاركونه السكن، فمثلًا من شروطه التي كان يطلبها في السكان المقيمين معه في العزبة أن يكون أعضاؤها من المثقفين والمتعلمين، ومن خريجي الجامعات، بعضهم كان يستغرب من شروطه التعجيزية القاسية، ويعلق عليه بقوله: (سالم يريد أن يُصاهر الناس ولا يريد أن يسكن في عزبة معهم) ..

وأخيرًا وجد عزبة تُوافق ميوله الشخصية، وتُناسب شروطه المطلوبة، لكنها في الحقيقة لم تكن عزبة مكتملة التضاريس في جغرافيتها .. كانت عبارة عن منزل عربي مكون من أربع غُرف، موزعة بين فناء الحوش الكبير، الذي تنبض في قلبه نخلة باسقة، مرتفعة بسعفها المهمل، الذي بحاجةٍ لكراب، ذكرَتهُ هذه العزبة بشقيقتها (تكية الزبير)، غرفة مجهزة بمكيف يورك، تسمع صوت طحن كمبريسره، ولا تشعر بدرجة برودته.

في الغرفة ثلاثة أسرة حديدية أكل بعض أطرافها الصدأ، عند مدخل الباب من الخارج لصقوا قطعة مرآة مُثبتة بخلطةٍ إسمنتيةٍ على الجدار، تستعمل عادة لحلق اللحية وتمشيط الشعر وتصفيفه، وضعوا في ركن

الغرفة القريب من الباب طباخًا صغيرًا، يشكو من سوء الاهتمام وقلة الاستعمال .. في الزواية الأخرى من الغرفة باب يؤدي لدورة مياه كبيرة، مكونة من جزأين.

يُشارك سالم في غرفة هذا المنتجع الفارسي اثنين من خريجي الجامعة، الأول اسمه محمد من خريجي جامعة بغداد، كلية الصيدلة، ويعمل في إدارة الأدوية بوزارة الصحة، من منطقة الرشيدية في الزبير، أما الثاني فاسمه إياد من خريجي جامعة المستنصرية فرع بغداد، كلية الإدارة والاقتصاد، من منطقة الزهيرية، ويعمل في قسم الاعتمادات المستندية في بيت التمويل الكويتي، كانا يقيمان معًا في بغداد أثناء فترة الدراسة في منطقة (حي الثورة)، في شقة صغيرة ..

لم يشعر سالم في يوم من الأيام معهما بغربة، وهذا من حسن اختياره لهما؛ لأن الجميع ينتمي إلى معقل الثقافة وأخوة المعرفة التي توحد انتماءاتهم الفكرية، لم يلاحظ بأن بينهما مادة (فلوس)، كل منهما يُكمل الآخر في حضوره وفي غيابه، رغم تباين وزن الفروقات الاجتماعية بينهما.

عرف منهما بأن الغُرف الثلاث الأخرى يسكنها إيرانيون من الأهواز، بعضهم بدون إقامة رسمية، كل غرفة يُقيم فيها لا يقل عن العشرة رجال، كان معظمهم يتوجس الخوف من هؤلاء العرب الساكنين معهم، في بعض الأحيان تتهور ظنونهم وتقودهم إلى التفكير بأن هؤلاء العرب من جهاز أمن الدولة، فلذا هم حظوا بمنزلة مرموقة في مراتب القداسة والترحيب في العزبة، كانوا يأتون لهم بالخبز من المخابز الإيرانية، ولا يترددون في

إحضار بعض متطلباتهم الضرورية من البقالات البعيدة؛ حبًّا في خطب ودهم وتقديرهم.

لم يجد سالم الديوانية المثالية التي تُناسبه في خيطان؛ نظرًا لأن هذه المنطقة وما جاورها من مناطق أخرى تحظى بطابع تيار البداوة، ونظام القبلية، فيشتد فيها عزم الانتماء القبلي بقوةٍ، فكل قبيلة تُحاول أن تظهر مركز قوتها في هذه المناطق المتاخمة لخيطان ..

لم ينقطع سالم عن ديوانية الرميثية وديوانية كيفان، فاستمر تواصله معهما وكثف من زيارتهما، وحرص كل الحرص على أيامهما المقدسة (الاثنينية) و(الثُلاثائية).

تمكن فيصل نوخذة ديوانية الرميثية من إيجاد وظيفة لسالمٍ في إدارة قسم المولدات الكهربائية الضخمة، التي يرأسها بوزارة الكهرباء، براتبٍ قدره 250 دينارًا، فقدم سالم استقالته من شركة البابطين، معربًا لهم عن شكره وتقديره لهذه الفترة التي قضاها معهم، مدة عامين ليست بالقليلة، استلم منهم درعًا تشجيعيًّا ومكافأة مالية، وشهادة خبرة، وحسن سيرة وسلوك.

***

سردار في الكويت

لم تنقطع حبال الوصل بين سالم وأنوار التي عشقته وهامت بحبه، فأصبح الرجل المقدس في حياتها، فلقاءاتهما المتكررة الدافئة في كل المناسبات لم تتوقف حركة تدفق مياهها، بل تجرأتْ أنوار بأن دعته للسفر معهم في الصيف لليونان، أخبرته عن تفاصيل جدول سفرهم كاملًا، عن مكان السكن وعن أسماء الجزر التي سيزورونها، أخبرته عن اسم وعنوان المكتب السياحي الذي حجزوا منه الرحلة؛ لينضم إليهم في القروب السياحي ..

سيذهبون لزيارة أثينا لمدة ثلاثة أيام، ثم يواصلون الرحلة لجزيرة بارص على الباخرة، ومن جزيرة بارص سينتقلون لجزيرة سنتوريني الجبلية الجميلة، التي تبعد عن أثينا سبع ساعات في الباخرة ..

تحققت أمنية أنوار لسفر سالم معهم على نفس الرحلة، فكانت رحلة ممتعة؛ لأنهما سكنا في نفس الفندق وقضيا ساعات جميلة على ظهر الباخرة وفي لوبي الفنادق، في بارص استأجرا موترا سايكل، وتجولا في سهولها وتلالها بين غابات الأشجار وشواطئ البحر الصخرية ..

تمكن سالم من خلال وجوده معها في اليونان لساعاتٍ طويلةٍ من التأثير على أنوار؛ من أجل إقناع أبيها لطلب فيزا لسردار وزوجته للعمل في دولة

الكويت، فتم له ذلك، فوافق والدها محبة لها وإكرامًا لسالم ذي الخلق الرفيع المستوى الذي عرفه عنه.

بعد مرور شهرين، سردار وزوجته وابنهما سالم الثاني في الكويت يعملان في محل لبيع السمبوسة في جمعية كيفان التعاونية، ويُقيمان في ملحق صغير قريب من الجمعية، قدمه لهما أحد المحسنين المقربين لسعد ابن عمة سالم، مقابل قيام خاتون بواجبات الخادمة في أيام الأحد من كل أسبوع؛ نظرًا لأنه يوم عطلة رسمية لخادمتهم الهندية (كلارا).

***

مشروع زواج سالم

لم ينقطع سالم عن محافل تجمع الزبيرين في الكويت، كان يتابع أخبارهم أولاً بأول، سواءً ممن كان منهم في الزبير أو في الكويت أو في السعودية، كيف يستطيع جنينٌ أن يعيش بعيدًا عن أحتضان رحمه؟! فتواصل معهم، وكان يُشاركهم جميع أفراحهم وأحزانهم، يحضر جنائزهم، ويؤدي واجبات عزاء موتاهم، يرتاد ديوانياتهم الكثيرة المنتشرة في أرجاء الكويت، لا يتخلف عن الحضور فيها إلا نادرًا؛ كأمثال ديوانية البابطين، الفرحان، السهو، الحمود، المعيلي، الغوينم، السويل، يعرف أسماء معظم روادها من كبار السن، أو ممن كانوا في عمره.

في زيارةٍ من زياراته المتكررة لديوانية الفرحان، وجد الحاج سهيل بن سليمان، صاحب الفضل بعد الله عليه، في نقله للسكن بفندق الأمين، بدلًا من سكنه في التكية، وصرف معونة الرواتب الشهرية له، ففرح كثيرًا لرؤيته وذكرَّه بالشرط الذي كان بينهما، لقد جاء يوم الوفاء بهذا الشرط، وعليه سداد ما في ذمته من قرض مستحق له.

طلب سالم من العم سهيل إخباره عن المبلغ المستحق عليه ليقوم بسداده، فقال له سهيل بأنه قد حان اليوم المناسب ليخبره عن حقيقة الأمر، وعن ما أُخفي عليه في السابق، فاستغرب سالم واستعجله على سماع الخبر.

أخبره الحاج سهيل بأن جميع المبالغ التي صرفت عليه كانت من أبيه، الذي طلب منه القيام بهذه المهمة، والمحافظة على سريتها، فسكت سالم .. استغرب كثيرًا، وظهرت على ملامح وجهه الوجوم والاستغراب من تصرفات أبيه، كيف يقوم مثل هذا الرجل بمثل هذا العمل، يجرحُ بيدٍ ثم يداوي ذلك الجُرح باليد الأخرى، فسالت دموعه على خديه، وقال بصوتٍ مسموعٍ: غفر الله لك يا أبي عما فعلت بي وبنفسك.

عشق سالم الكويت وأحب أهلها، أحب طيبة أرضها وكرم سمائها وبركة رزقها، وفي السنة الرابعة من إقامته في الكويت، انتقل مع إياد للسكن في شقة بمنطقة السالمية، بعد أن سافر زميلهم الثالث (محمد) للعمل في شركة أرامكو السعودية .. وجد وظيفة مناسبة له فيها من المميزات الكثيرة التي كان يبحث عنها.

شقة السالمية مكونة من غرفتين نوم وصالة، لا بأس بمساحتها، تستوعب الثمانية رجال، لكل منهما غرفته المستقلة تجمع خصوصياته.

بفضل جهود سالم في تطوير عمله، وبتوصيات معارف سالم الكثيرة في الوزارة، حصل على سلسلة من الترقيات والزيادات السنوية والاستثنائية.

يرجع ابن خاله جمال إلى أرض الوطن، قادمًا من بريطانيا مع زوجته هيلين، المنتفخ بطنها بثقل جنينها، حاملًا معه شهادة الدكتوراه، ليلتحق بعمله في شركة نفط الكويت، ويطلب من ابن عمته سالم الانتقال للعمل معه في الشركة التي ستدفع له مميزات أفضل بكثير من وزارة الكهرباء،

لكن سالمًا رفض في الوقت الحالي مثل هذا الانتقال المغري، وسأله تأجيل هذا الموضوع بعد مشروع زواجه من أنوار.

سافر سالم للزبير من أجل إخبار والده وأهله عن مشروع زواجه من أنوار، وطلب من أبيه السفر معه للكويت من أجل التقدم لخطبتها له من أهلها، فتثور ثائرة والده الذي ينتقده بشدةٍ، كيف يُقدم على الزواج من مثل هذه المرأة، فهي لا تُناسبه ولا تتناسب معه، يخبره بأن للزواج أصولًا وأعرافًا وعلى الرجل التقيّد بها، وسماع رأي من هو أكبر منه، فماذا سيقول عيال عمنا عنك يا سالم؟

يا سالم بنت الكويت ليست من ملبوسك، لا تُناسبك حتى لو كانت من أقاربك ومن معارفك؛ لأنها تربت على الدلع والدلال والترف، خذ لك ما يُناسبك ويتناسب معك من بنات مدينة الزبير، أو اذهب لمدينة الرياض للزواج من بنات العائلة، وما أكثرهن يا سالم هناك (أصل وفصل).

لم يهدأ أبو سالم من ثورته، فبقي سالم واجمًا ينتظر سكوته وهدوءه، يُريد منه أن يقف عن المفاخرة بمحرقة الحسب والنسب، كيف يشرح لمثل هذه العقلية بأنه يبحث عن شخصية المرأة التي أحبها وتحبه، التي عرفها وتعرفه، لا يهمه جنسيتها، ولا ينظر إلى أية قبيلة ينتسب جدها الخُرافي التاسع عشر، يكفيه منها بأن تكون مسلمةً مثقفةً متعلمةً، تتحلى بأخلاق الدين الإسلامي.

سكت سالم بينما استمر أبوه في كلامه غير المنقطع دون استراحة لالتقاط أنفاسه الثائرة .. إنها عملية الاستنفار الذاتية للنفس لمقاومة الثورة والتمرد والعصيان لمثل هذا الشاب، الذي يريد الزواج من رافضية، حسب زعمه وادعائه، فماذا سيقول لأهل نجد إن سألوه عن أصول أحفاده؟ هل سيقول لهم: إنهم روافض أم هم من العجم ..

حاول سالم التفاهم بمودة مع أبيه بخصوص قبوله لمثل هذه الزيجة، حاول أن يقنعه بأن المسألة برمتها اختلاف متوارث عبر قرون بين سلسلة الآباء وعظام الهيكل العظمي للأجداد، لا صحة لمثل هذا الاختلاف في الاعتقاد طالما نحن جميعًا نشهد بأن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، أما مسألة اختلافنا معهم في العبادة فلنشاهد اختلافاتنا الكثيرة نحن أهل السنة والجماعة في أمورٍ كثيرة، نحن كحنابلةٍ نختلف مع بعض المذاهب الأخرى في أكثر من مسألة، فانظر يا أبي لمسألة كتف اليدين ووضعها فوق الصدر، هنالك من المذاهب الأربعة من لا يراها واجبة ولا سنة، لذا فهم لا يكتفون الأيدي فوق الصدور، متفقون مع أهل الشيعة في مثل هذه المسألة.

أما مسألة القبلية، فأهل أنوار يظنون كذلك أنهم من القبائل الإيرانية التي لها أصولها وعراقتها، هم ينتمون لقبيلة معروفة لها أصولها العربية، هاجرت لإيران منذ أيام الفتوحات الإسلامية المباركة، والله سبحانه وتعالى قال في كتابه العزيز: [چ چ چ چ چ] ، لم يقل لتتفاخروا فيما بينكم، فلا فرق بين عربي وعجمي إلّا بالتقوى، والقبائل ليست حكرًا على

الأعراب وأهل الجزيرة العربية فقط، فهم وكلاؤها الرسميون والمشرعون لها، كل الدنيا فيها قبائل، وتعتز بانتمائها القبلي مثل اعتزازهم، حتى الحيونات تعيش حياة نظام القبيلة الواحدة.

لم يتمكن سالم رغم قوة حجته وقناعته فيها كمنطق تيار مثقفين، من إقناع أبيه بالموافقة على زواجه من أنوار، بل إن والده ذهب إلى ما هو أبعد من مرحلة القناعة، فقال له: لو تزوجت منها لن تكون ابني ولن أعرفك، والذي بيني وبينك هذا الزواج الله لا يبارك فيه ولا في نسبته.

فنظر إليه سالم وقال لنفسه، يا سبحان الله نما وكثر الشيب في شعر لحيته وشعر رأسه، فأما عقله لم يتغير ولم ينم في اتجاه ثقافة عصره، ولم يتنازل عن حمل تبعيات أوزار موروثاته، بل أصبح أكثر شدة وقسوة مما كان عليه سابقًا، إني لأستغرب من إصرار أبي على البقاء في مدينة الزبير، لِمَ لا يعود لمنطقة نجد والسكن فيها على نمط حياة جده الذي هاجر منها قبل مائة سنة، يوم جاء منها حافي القدمين على ظهر جمل؟!

كان قرار سالم النهائي زواجه من أنوار مهما كلفه الأمر، سوف يضع والده أمام الأمر الواقع، الذي سيرضخ له في المستقبل، مثلما طرده سابقًا من المنزل، وكان في الخفاء يقوم بمساعدته وبمؤازرته، سوف يفعلها مرة ثانية وثالثة، إنه سالم ولده الوحيد، ولا يستغني عنه أبدًا، مهما كانت ظروف الاختلاف وقيمة تكلفتها، غدًا سوف يلين قلبه ويرضى عنه عندما يُشاهد أحفاده يفترشون ضفتي حضنه، عندما يرى منهم من يحمل اسمه واسم أبيه واسم جده السادس عشر، وأسماء كل قبيلته، سيفرح كثيرًا بسالم وورثته.

قبل عودته للكويت مر قرب أرض التكية التي أعدموا مبناها، وأزالوا غرفها المتراصة، وشردوا سكانها، وقتلوا شجرتها المباركة، وأزالوها من الوجود، ليحل مكانها شارع عريض، شاقًا منطقة قلب الكوت، ومتجهًا غربًا ليصب في شارع البلدية قرب محطة البنزين الأولى، فتوقف بسيارته عند قاعدة منارة جامع الزبير الضخمة، رافعًا كلتا يديه بالضراعة والترحم على سكان هذه التكية الميامين، سواء من كان منهم لا يزال يمشي فوق وجه الأرض، أو رفاتًا مع الأنقاض في بطن الأرض، ثم عاد للكويت وفي نيته الترتيبات اللازمة لمشروع زواجه من أنوار التي ملكت عقله وقلبه وروحه.

عاد سالم للكويت شاقًّا طريقه وحيدًا في سيارته عبر حدود البلدين حاملًا بين عينيه خيبة أمل كبيرة برفض والده لزواجه من أنوار، عاد محملًا بظرف رسالةٍ أخيرةٍ في جيبه من شفيقة لصديقه حسين، تُودعه فيها وتطلب منه نسيانها، نسيان تلك الصفحات البيضاء وذلك التاريخ المترنح بالآلام؛ لأنها اقترنت أخيرًا بابن عمها- الذي يعمل معيدًا في جامعة البترول والمعادن في الظهران، وستسافر معه قريبًا لأمريكا لإكمال دراستها العليا هناك، اعتذرت من حسين نيابة عن أهلها الذين رفضوا خطبته بقسوةٍ يوم تقدم لها، وقالت هي القسمة والنصيب، لستُ من نصيبك ولستَ من نصيبي، وأسأل الله أن يرزقك بمن تكون أفضل مني وتسعدك.

أما حسين فقد لام نفسه كثيرًا؛ لأنه لم يسمع كلام صديقه سالم الذي أخبره مقدمًا بأن أهلها سيرفضون، ولن يقبلوا تزويجه لها؛ لأنه يعرف

تقاليد وعادات أهل الزبير، فهم نادرًا جدًّا ما يُزوجون بناتهم للغرباء من جهة، ومسألة نسبه وأصوله الشيعية من جهة أخرى، رغم عدم قناعته بالمذهب الشيعي، وتقليده للمذهب السني بقناعةٍ وحماسٍ.

***

الغزو العراقي للكويت

قرر حسين استهلاك معظم أوقاته في العمل لنسيان شفيقة وماضيها المؤلم؛ لذا كان عليه البحث عن عمل إضافي لتصريف طاقة أوقات فراغه الفائضة بما ينفعه، فوجد في سوق الحراج بمنطقة الجهراء المكان المناسب للعمل فيه، فاضطر للسكن في عزبة بالجهراء مع عراقيين يعملون في نفس السوق كسماسرة ودلالين وبياعين.

عادة حسين ينهض يومي الخميس والجمعة قبل صلاة الفجر ؛لأنهما يومان شاقان ومرهقان بالنسبة له، رغم أن فيهما رزقًا كثيرًا، في ذلك اليوم سمع أصوات قذائف مدفعية وإطلاق نار مستمر يأتي من بعيد قبل انفجار نور فجر يوم الخميس، فاستغرب من كثافة زخم الإطلاق الناري المستمر، وظن بينه وبين نفسه على أنها تدريبات لبعض القطاعات العسكرية الكويتية في الميادين العسكرية المحيطة بالجهراء، لكن الذي فاجأه بأن أهالي الجهراء جميعًا سمعوا مثل ما سمع من كثافة إطلاق النيران المروّعة، فتجمعوا كبارًا وصغارًا رجالًا ونساءً في الشوارع والطرقات، خارجين من مخابئ منازلهم الباردة في هلعٍ وخوفٍ، وعلى وجوههم تساؤل لمعرفة ما الذي يجري خلف هضبة المطلاع، التي تأتي منها الأصوات، شاهدوا سرعة حركة بعض الدوريات الكويتية، وتحركات السيارات العسكرية الضخمة، شاهدوا بعض الدبابات، وبعض المدرعات الكويتية المتجهة لخلف منفذ المطلاع، فتحرك بعض المسئولين من أهالي الجهراء؛ ليستطلع ما يدور

حولهم من أمور، خصوصًا أن الكويت وأهلها لم يعتادوا على مثل هذه الأجواء العسكرية، سمعوا أخبارًا مفجعة، تقول بأن بعضًا من وحدات الجيش الكويتي تُقاوم الغزو العراقي الغاشم، فاحتارت البشرية ماذا تفعل في مثل هذه الظروف.

كان سالمٌ يغط في نوم عميق في فجر ذلك اليوم، عندما سمع إصرار هاتف شقته المزعج على مواصلة رنينه، رفع سالم سماعة الهاتف بتكاسل، بعد أن نزع نفسه من السرير، ليجد في الطرف الآخر حسين، يخبره عن مفاجأة الغزو العراقي للكويت، ويؤكد له بنفسه عن مشاهدته لوحدات من قوات الحرس الجمهوري بآلياته العسكرية المتحركة، التي بدأت تتوغل لداخل مدينة الكويت، بعد أن دارت معركة حامية في ضواحي شمال وغرب منطقة الجهراء بين قوات الجيشين.

لم يكن سالم ليُصدق ما سمع، لولا أن المتصل به صديقه حسين، ولن يُصدق مثل هذا الخبر المجنون من ذات حسين كذلك لولا أنه سمع صوت دوي المدافع وإطلاق النار بأذنه، قادمًا من جهة البحر في منطقة السالمية.

استغرب سالم وقال بصوت مرتفع: يا الله ماذا يفعل هؤلاء الأوباش بجيرانهم؟ أين هم من حق الجوار؟ أين هم من حقوق العروبة؟ أين هم من حقوق الإسلام ونخوته؟ كان من المفترض عليهم حماية الكويت من أعدائها، لا احتلالها وتشريد أهلها.

كيف يتم لهم الاعتداء على حرمات الناس بمثل هذه الصور البشعة؟ أين هم من مخافة الله في ترويع النساء والأطفال والشيوخ؟

بدأت أخبار الغزو العراقي تتقاطر بسرعة لمسامع الكويتيين والمقيمين في الكويت على حد سواء، سارع سالمٌ بالاتصال على حسين ليطلب منه أن يأتي ليُقيم معه في شقته خوفًا عليه من ردة فعل غير مسئولة من بعض الكويتيين؛ لأنهم يعرفون بأنه عراقي الجنسية، عليه أن يلتحق به ليُقيم معه في الشقة ريثما تنقشع غيوم هذه الأزمة المجنونة، عبر حلول أخوية ودية قد تأتي من بعض الدول المجاورة والصديقة، أو تأتي عن طريق أرشيف مكاتب ما يُسمى بجامعة الدول العربية.

تمكنت وحدات القوات العسكرية العراقية من الانتشار بسرعةٍ داخل الكويت، بعد أن قضت على بعض وحدات الجيش الكويتي، التي قاتلت بحدود إمكانياتها، والبعض الآخر منها انسحبت من المعركة؛ لأنها معركة غير متكافئة لا في العدة ولا في العدد ولا في الاستعداد، وخصوصًا فيها عنصر المفاجأة غير المتوقعة من الجيران.

نشرت قوات الاحتلال نقاط سيطرتها على جميع الطرق الرئيسية والداخلية، وبعد يومين من الاحتلال تُعلن الحكومة العراقية عن سقوط دولة الكويت ككيان، وتُلغي كافة السفارات الموجودة في الكويت، وتُعلن عن أن الكويت أصبحت بحكم المحافظة التاسعة عشر التابعة للعراق إداريًّا وسياسيًّا، وبمثل هذا العمل غير المسئول استطاعت القيادة العراقية أن تضع المجتمع العربي والدولي أمام أمر واقع مرير ومرفوض بالكلية،

فمهما كانت ذريعة الأسباب والمسببات لديهم، لا أحد يُجيز لحكومة العراق احتلال بلد مسلم آمن. إن الحكومة العراقية لم تفكر أبدًا بعواقب الأمور وقد أخطأت في حساباتها السياسية والعسكرية، فعلى الرغم من نجاح العراقيين من غزو هذه الدولة الصغيرة، إلا أن الحكومة العراقية لم تقرأ مستقبل المنظومة العالمية الجديدة القادمة .. لم تتنبأ عن تكتيكات السياسة العالمية، ومعرفة فكرة قيام العالم الموحد من شرقه لغربة تحت راية النظام الدولي الواحد، لم تفكر بأن العالم سيجمع على رأي الوقوف ضد هذا الاحتلال الجائر بحق الكويتيين حكومة وشعبًا، لم تُفكر بأنها ستواجه رفضًا دوليًّا قويًّا مجمعًا بلا استثناء.

خرجت الأسرة الحاكمة بأفرادها مع رجال حكومة دولة الكويت لتُقيم حكومتها في طائف السعودية، خرج كذلك بعض أهالي الكويت عبر منفذ الخفجي قبل إغلاق الطريق المؤدي إليه .. سيطرت القوات العراقية الغازية عليه لبضعة أيام في بداية أيام الغزو، ثم تمكنت القوات السعودية الباسلة من تحريره من أيدي المغتصب.

بعد إغلاق منفذ الخفجي خرجت العائلات الكويتية من طرق صحراوية كثيرة تحفها المخاطر، كطريق الوفرة والرقعي، قاصدين الوصول لمدينة حفر الباطن في السعودية، هربوا مما شاهدوا من مآسٍ دموية واعتداءات اجتماعية، لا يمكن السكوت عنها.

***

أبناء التكية في المقاومة الكويتية

أجمع أهل الكويت كلهم؛ صغيرهم وكبيرهم، على رفض كافة أنواع التعاون مع الاحتلال العراقي كنظام حكم أولًا، وكقوات عسكرية ثانيًا، رفضوا احتلال دولتهم وأرضهم جملة وتفصيلًا، ورفضوا فكرة عزل أميرهم وتنصيب رئيس جديد لهم، رفضوا تغيير أسماء مناطقهم وأسماء شوارعهم، رفضوا فكرة المحافظة الجديدة التاسعة عشر، فكرة ضم الفرع للأصل، رفضوا تغيير لوحات سياراتهم الكويتية، رفضوا استبدال بطاقات أحوالهم المدنية ببطاقة عراقية، رغم شدة الإكراه الذي حاصرهم به النظام العراقي من كل جانب.

لقد كان واضحًا وجليًّا منذ بداية الاحتلال العراقي، رغبة الشعب الكويتي، بتحرير أرضه وسمائه من الاحتلال العراقي، مهما كلف الثمن، فتمثلت صورها بتضحيات الشباب الكويتي رغم كثرة ما قيل عنه قبل الغزو، بأنه جيل مترف وصاحب دلع ومتتبع لتقليعات آخر الموضات، ولبس جديد الموديلات وركوب أحدث طراز للسيارات، ولا يمكن أبدًا في يوم من الأيام أن تعتمد عليه، إلا أنه أثبت عكس ذلك تمامًا في أيام محنة الاحتلال العراقي الجائر للكويت، رغم أن هؤلاء الشباب كانوا غير مهيئين لمثل هذه المهمات الصعبة، ولم يكونوا يعرفون أنواع السلاح، ولم يتدربوا على حمله ناهيك عن دقة الإصابة به.

لقد وقفوا وقفة الرجل الواحد، بجميع مشاربهم العرقية والمذهبية تحت مظلة الكويت أولًا، وقفوا بداية وقفة فكرية تصحيحية برفض فكرة مبدأ صور الاحتلال الغاشم على بلادهم، ثم كانوا جميعًا يدًا واحدة في مساعدة خلايا رجال المقاومة الكويتية؛ مما حفظ للكويت تاريخها وتراثها وسجلاتها المدينة ووثائقها الرسمية.

هكذا هم الذين يعشقون أوطانهم، لا يهابون الموت .. إن الذين ذاقوا طعم حلاوة الانتماء للأرض وتاريخها، لا ينسون بسهولةٍ كيفية حمايتها من أعتى الغزاة، هكذا كان شباب الكويت، ووقف معهم جنبًا إلى جنب كل من أحب الكويت، وأخلص لها من غير الكويتيين سواء أكانوا في الداخل أم في الخارج.

ومن حق أبناء التكية الانخراط في مساعدة هذه المقاومة المباركة؛ لأن مفهوم أيديولوجية الوطن في فكرهم يعني (الرزق والأمن)، فالوطن الذي أتقلب في جنات نعيمه، وألتحف أمن سمائه، وأستمد منه رزقي وقوتي هو وطني، فأرضه أرضي وأهله أهلي .. كان لمثل هذه الأيديولوجية حضورًا في فكر كل من سالم وحسين وسردار، فقالوا بصوتٍ واحدٍ: نعم للتعاون مع المقاومة الكويتية، نحن منها وهي منا، فانخرطوا فيها رغم عدم توفر الخبرة العسكرية الكافية لديهم، ما عدا حسين الذي كان عسكريًّا مسرّحًا من قبل الجيش العراقي، بعد انقضاء خدمته العسكرية الإجبارية.

تمكن المهندس الكهربائي سالم من وضع بصمات خبرته وموهبته في عمل الدوائر الكهربائية تحت أمر أبناء المقاومة، في رسم وتخطيط الأعمال الكهربائية في المناطق التي ينقطع فيها التيار الكهربائي، رغم مشاهدته لبراعة الكويتيين الذين يجيدون صناعة الكهرباء .. تمكن حسين من التمويه على قوات الاحتلال العسكرية بالزي العسكري، واستطاع اختراق مركز الأمن والتجسس على نوايا تحركات القوات العراقية لصالح المقاومة الكويتية، وتمكن كل من سردار وزوجته من العمل في مشاريع مخابز المقاومة الكويتية، بعد رحيل العمالة الأجنبية من الكويت، كل من هؤلاء الثلاثة عملوا كمتطوعين في صفوف المقاومة الكويتية في منطقة كيفان، بتزكية من أبناء عمته لهم، بأنهم ثقات ومعروفين لديهم.

أما فيصل المسئول عن ديوانية (الفريج) في الرميثية، فقد تمكن من إدارة المقاومة في منطقة الرميثية، لقد أبلوا بلاءً حسنًا في إدارة منطقتهم، وتمكنوا من صناعة بعض عمليات السيارات المفخخة التي قاموا فيها بنجاح، فقد فاجأوا قوات المحتل بنوعية تحركاتهم.

أما أنوار وأفراد عائلتها فقد سافروا للبصرة، ومنها عبروا لإيران، أما إخوانها الثلاثة، فكانوا بين صفوف المقاومة تحت قيادة فيصل.

في الأسبوع الثالث من الاحتلال دخل رتل عسكري من أفراد قوات المحتل لمنطقة الرميثية، مقتحمين ديوانية (الفريج)، فقبضوا على مجموعة من الشباب المتجمعين في الديوانية، بما فيهم فيصل وإخوة أنوار الثلاثة، وساقوهم بعربات نقل أفراد عسكرية لسجن أبي غريب في غرب بغداد،

هنالك تم محاكمتهم بتهمة أعمالهم التخريبية ضد قوات الجيش العراقي، وتم إعدام فيصل بصفته المسئول عن هذه المجموعة وسجن الباقي.

كان مقر تجمع المقاومة في منطقة كيفان في قبو منزل عمة سالم، سواءً أكان في الليل أو في النهار، تحول هذا السرداب إلى خلية نحل يتقاطر عليه شباب المنطقة .. أغلقوا مدخله الرئيسي ليتحول إلى ميدان عسكري للتدريب على استخدام سلاح الكلاشنكوف، وصناعة قنابل المولوتوف الحارقة، ودروس عن كيفية زراعة المفخخات .. أدار هذا التنظيم الشاب سعد، الذي حفظ القرآن الكريم كاملًا.

سمعوا طرق الباب الخارجي للمنزل، وعندما خرج سعد وجدَ رجلًا يرتدي الملابس الكويتية (الدشداشة والغترة) ولكنه يتكلم باللهجة العراقية، طلب منه رؤية سالم، لديه رسالة خاصة من حسين، وعندما خرج سالم له أخبره بحزنٍ شديدٍ عن استشهاد صاحبه حسين، فقد اكتشفه العقيد بهلول عندما شاهده يتجول بملابس عسكرية عراقية بين المكاتب في مقر الاستخبارات العسكرية فرع حولي، فأمسك به بعد أن تمكن من معرفته، وتحت وطأة التعذيب القاسي، تمكنوا من انتزاع المعلومات منه، عرفوا مكان مركز المقاومة في كيفان، وعرفوا أسماء أفرادها فردًا فردًا، ثم قال لسالم إني لم أتمكن من مساعدة حسين ابن خالتي، فطلب مني نقل هذه الرسالة لكم، وإخباركم بضرورة تغيير المكان بأسرع وقت ممكن؛ لأنه أصبح معلومًا لدى الاستخبارات العسكرية أسماؤكم، ومكان تواجدكم، وهم الآن بالتأكيد في الطريق إليكم.

استغرب سالم كثيرًا، وأكلت عقله قوة الصدمة، كيف يكون مثل هذا المجنون (بهلول) صاحب تربية الكلاب في التكية والمقصب عقيدًا ونحن لم نكتشفه، كان يتجسس علينا وعلى كل من يدخل التكية ويخرج منها، كان يعرف حركة الناس في الأسواقِ ويتجسس عليهم، كان من المباحث والجميع لم يعرفوا عنه شيئًا، كان خلف قضية توريط سهيل وسردار.

بسرعة البرق، تفرق شباب المقاومة بمنطقة كيفان، طلب منهم سعد أن يتفرقوا مثنى مثنى إلى خارج المنطقة، وأن لا ينام أحدٌ في كيفان عند أهله هذه الليلة، سنحاول أن نعد كمينًا للقوات العراقية لتفجيره أثناء دخولهم لمنطقة كيفان، **ثم قال سعد:**

أرجو من الفريق المكلف بإزالة لوحات أسماء الشوارع وأرقام القطع والمنازل سرعة رفعها، وبأي طريقة كانت، لقد تم توزيع منشورات على الأهالي بضروة رفع أرقام المنازل من أمام أبوابهم مساعدة لنا.

طلب سالم من سردار سرعة أخذ زوجته وابنه سالم الثاني، والسفر للبصرة، ومنها المغادرة للهند مثلما فعلت باقي الجنسيات الأخرى المقيمة في الكويت، والتي غادرت عن طريق مطار بغداد، لم يعد لهم مكان آمن في الكويت، طالما علم بهلول بوجودهما بين عناصر المقاومة، والآن بالتأكيد يبحث عنهم مثلما يبحث عن بعض أسماء رجال المقاومة في كيفان، أخبر سالم سردار بأنه عاقد العزم على الذهاب للسعودية حسب نصيحة والده،

ناوله ورقة صغيرة كتب فيها عنوان بعض معارفه في الرياض، وأخذ منه عنوان أهله في الهند، على أمل التواصل فيما بعد، سافر سردار للبصرة، بعد أن ودع سالمًا؛ خوفًا من تعقب بهلول لهم.

***

الرياض

اتفق سالم مع ثلاث أُسر كويتية على السفر للسعودية بسيارتهم الخاصة، عن طريق الوفرة الصحراوي، بعد أن أغلقت رحى الحرب منفذ الخفجي، وشددت القوات العراقية رقابتها على طريق منفذ السالمي والرقعي، فاضطُر الخارجون من الكويت للهروب عن طريق الوفرة، فودع سالمٌ أقاربه وأصدقاءه، بعد أن قام بتعبئة سيارته بما يحتاج إليه في الطريق من وقود وماء ومواد غذائية ضرورية.

في طريقهم الصحراوي شاهدوا المعاناة والضياع في وسط الصحراء التي يبتلع رملها السيارات.

شاهدوا مساعدة أهل البادية للضالين والتائهين في عمق الصحراء، وهم يسيرون على جمالهم، شاهدوا السيارات التي تغطس عجلاتها في أمواج الرمال المتحركة، ولولا لطف الله عليهم لهلكوا جميعًا.

وصلوا للمنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية، فاستقبلهم بعض المتبرعين من الشباب السعودي، الذين يعملون مع الندوة العالمية للشباب الإسلامي، وقادوهم لمجمع فندق القصيبي، حيث كان يأوي إليه الفارون بحياتهم من جحيم الاحتلال.

شاهدوا المساعدات والتسهيلات التي قدمتها الحكومة السعودية والسعوديون بصورة عامة، فقد كان الجميع يعرض خدماتهم عليهم.

جلس ثلاثة أيامٍ في المنطقة الشرقية بعد هذه الرحلة الشاقة، متنقلًا بين الدمام والخبر والظهران، قام بزيارة صديقه محمد، الذي يعمل في شركة أرامكو السعودية، وزار بعض الأهل والمعارف والأصدقاء.

في يومه الرابع واصل خط سيره للرياض التي ينوي الإقامة والسكن فيها.

ترجع معرفة سالم بالرياض ليوم قدومه لها مع والده لزيارة أعمامه يوم كان يدرس في المتوسطة، كان عمه الكبير يُقيم في شارع الغنم القديم في المنطقة القريبة جدًّا لدوار دخنة، لا يزال يذكر ذلك الحي الهادئ الذي يحتضن المنازل الشعبية المتلاصقة الجدار الواحد، ولا زال يذكر مسجده الصغير، ويذكر صورًا لبعض شيبانه الذين كانوا يُصلون خلف إمامهم على البحص (الحجر الصغير الناعم) في الحوش.

في تلك الأيام كان شباب الرياض مُغرمون بسياقة الدبابات (الموترسايكلات)، كل بيت يُوجد فيه دباب لونه أحمر (هوندای).

أخذه والده معه لزيارة بعض المنازل الزبيرية؛ من أجل توصيل الرسائل التي حملها معه من أقاربهم في الزبير، كثير منهم يقطن في منطقة البطيحة الملاصقة لمصلى العيد في الديرة، التي تقع في نهاية شارع الوزير من جهته الجنوبية، قبل التقائه بشارع الأعشى، وزار مع والده بعض المنازل الواقعة في كل من منطقة غبيرة ومنفوحة، ولا يزال يذكر العزبة التي موقعها في الشارع العام لمنفوحة ..

في تلك الزيارة ذهب مع بعض أبناء عمومته المقيمين في الرياض إلى شارع الخزان، وشاهد عمارة الباخرة وعمارتي الملكة، تعرف على شارع البطحاء وشارع الوزير، وذهب لشارع شانزلزية الرياض سابقًا (شارع العصارات)، شاهد سينمات الأندية الرياضية، مثل سينما نادي النصر ونادي الهلال ونادي الشباب، استغرب كثيرًا وقتها من سوق الأفلام السينمائية التي تُباع أو تُؤجر في منطقة المربع، الواقعة شمال حديقة الفوطة، كان صاحب المحل يُؤجر الفيلم مع جهاز تشغيل بكرة الفيلم لمدة يوم أو يومين بمبلغ رمزي ..

كان ما بعد الملز من جهة الشرق أرض فضاء، تسكنها طعوس حبات الرمال وتلالها، كانت هنالك منطقة الربوة تحت الإنشاء العُمراني، فُلل قليلة جدًّا متناثرة تطل برؤوسها بين الطعوس، كان الناس في ذلك الوقت يتحدثون عن شيء جديد، لم يطرق مسامعهم من قبل اسمه (الطفرة)، لم يكن في وقتها من يفقه مثل هذا المصطلح الاقتصادي العمراني إلا قليل، لم نكن نستوعب بأنها بداية مشاريع الانفتاح على أراضي شمال الرياض، مثل منطقة العليا ومنطقة السليمانية وشمالها، كان شارع الضباب يومها يُمثل وجهة الرياض الشمالية وما بعده، سلسلة من الطعوس الرملية التي ترتفع حينًا وتنخفض حينًا آخر.

دخل سوق حلة العبيد، الذي يشتهر بمحلات بيع المطبق والفول بكيس نايلون، كان يظن في هاجسه التاريخي الموروث من المسميات التي تتناسب مع حدود عمره، بأنه سوف يُشاهد عبدًا أسود، مكبلًا بالسلاسل

يجره سيده أو سمساره للبيع في سوق المزاد؛ نظرًا لصغر عمره الذي لم يُؤهله لسماع قصة تحرير العبودية في العالم أجمع .. لقد كان وقتها يُسقط المسميات على ذات الأسماء دون دراية مكتفيًا بالرواية ..

زار منطقة البطحاء التجارية، وشاهد سوقها المزدحم ذا التشعبات الكثيرة في نوافذه .. شاهد مجرى سيول البطحاء قبل دفنه مؤخرًا، وشاهد الجسور المتعددة، والمقامة بين ضفتيها لعبور المشاة والسيارات فوق ظهورها في آن واحد .. ظنه بداية نهرًا من الأنهار الجارية في مدينة الرياض، وخصوصًا عندما شاهد بعض العمال الذين يجلسون على أطراف شاطئه للاستمتاع بمشاهدة المارة والعابرين ..

لا يزال يذكر تسكعه في أزقة سويقة الضيقة، وبين محلات شارع الثميري الكثيرة، وسوق وشيجر التُراثي الضيق جدًّا، الذي يسمح بمرور شخص واحد في بعض تشعباته، وتذكر غدوه ورواحه في شارع الوزير الذي كان يومها الواجهة التجارية لمدينة الرياض.

هاله كثيرًا ما وصلت إليه الرياض من تطور عمراني سريع، ونهضة حضارية، وتغير في ملامح وجهها الاقتصادي والسكاني والاجتماعي، وكيف أصبحت أكبر من مدينة حضارية شامخة، لم يكن يظن أن يُشاهدها بمثل هذا الفارق الكبير الذي يُشاهده الآن، رغم قصر الزمن في قياسات تطور المدن والبلدان والحضارات ..

في أثناء ذروة عصر ذاكرته من استنطاقها لعرض الصور القديمة عن مدينة الرياض، سمع صوت صفارات إنذار الدفاع المدني، التي تصم الآذان، بدأوا يجربونها بعد أن تم تركيبها في الأماكن العامة، فذاكرة الرياض لم تعرف مثل هذه الصفارات، لأول مرة تعرفها المدن الرئيسية في المملكة العربية السعودية، ثم تلاها بعد أيام قليلة وصول أول دفعة من صواريخ النظام العراقي (سكود) لأجواء مدن المملكة، فبدأ الناس يسهرون حتى آخر الليل؛ لمتابعة شاشات التلفاز؛ تحسبًا لأي إعلان عن غارة صاروخية مفاجئة، ثم بدأت الناس تبحث عن كمامات واقية من سموم المواد الكيماوية، التي ربما تكون محملة داخل رؤوس صواريخ النظام العراقي، ولكن سرعان ما تطير لها الصواريخ الأمريكية المضادة (الباتريوت)؛ لضربها في أعالي الجو، وتفجيرها في الهواء قبل سقوطها فوق الهدف المحدد لها؛ مما دفع بعض السكان للاستمتاع بمتابعة عملية مطاردة هذه الصواريخ، دون شعور بالخوف من سقوطها عليهم، رغم كثرة تحذيرات إدارة الدفاع المدني للمواطنين، وعاشت المنطقة بأسرها أجواء حرب عالمية، فأصبحت بؤرة تصب فيها كافة أنواع الأسلحة ..

***

سردار وعائلته في بومباي

وصل سردار مطار بومباي، فاستقبله والده، الذي انزعج كثيرًا عندما علم بدخوله الدين الإسلامي، فطلب منه عودته لدين أهله وآبائه وأجداده، فرفض سردار مثل هذا الطلب، بعد أن منّ الله عليه بهدايته لدين الفطرة (الإسلام)، فتبرأ منه والده، وطرده من المنزل والمدينة التي يقيمون فيها، فذهب مع زوجته وابنه سالم الثاني لمدينة أخرى ليعيشوا فيها، فتبعه عصبةٌ من عائلة كومار زوج حبيبته السابقة ماريا، فاقتحموا عليهم المنزل الصغير عنوة، فقتلوه أمام أعين زوجته خاتون، دون رحمة، طعنًا بسكاكينهم الحادة كما فعل بابنهم ..

ذهبت خاتون لأهله وقصت عليهم الحادثة بتفاصيلها وبأوصاف هؤلاء الرجال، وطلبت منهم النصرة له ولابنه سالم الثاني، فعرضوا عليها الديانة الهندوسية، وأن تتنازل عن دينها الإسلامي لضمان بقاء سالم معها، فتستغرب منهم، **وتقول لهم:**

ويّ .. ويّ .. أصير أعبد هوش (بقر) ..

فرفضت البقاء، وخافت على نفسها من البقاء بين ظهرانيهم، وخافت من مكرهم والغدر بها، فغادرت الهند دون علمهم، بعد أن تركت سالمًا في الهند ليعيش بين أهله ليتربى على المعتقد الهندوسي إن لم يهده الله ..

***

رسالتان موجعتان

تمكن سالم من إيجاد وظيفة بكل سهولة ويسر، فبفضل بعض معارفه وخبرته في وزارة الكهرباء التي لا بأس بها، وجد عملًا مناسبًا في راتبه ومميزاته في شركة سكيكو في إدارة المشاريع، واستأجر منزلًا في حي الروضة بالرياض؛ من أجل إيواء أهله القادمين من الزبير، هذا المنزل قريب جدًّا من طريق خريص (الخط السريع المؤدي للمنطقة الشرقية) ..

في هذه الفترة عاش سالم محنة عظيمة جدًّا، ففي الوقت الذي تأتيه مكالمة هاتفية من الزبير بخصوص وفاة والده، تأتيه رسالة من خاتون تُخبره فيها عن مقتل سردار، وعودتها إلى البصرة بدون سالم، بعد أن رفضت اعتناق عقيدة الهندوس ..

يحتار سالم بأي منهما يُعزي نفسه أولًا، ومن منهما يُقدمه على الآخر، فكل منهما يحتلُ مكانة مرموقة في قلبه .. قرر الذهاب للزبير لحضور واجب العزاء هناك، وضرورة إحضار والدته وأخواته غير المتزوجات معه، قدم إجازة لمدة أسبوعين، وغادر مطار الملك خالد في الرياض، وحطت طائرته في مطار عمّان، ثم استأجر سيارة ذهب بها للعراق، عن طريق منفذ مفرق الأزرق في الحدود الأردنية، ثم منفذ طريبيّل داخل الحدود العراقية، ومن بغداد إلى البصرة، ثم لمدينة الزبير.

مقبرة الحسن البصري

وصل مدينة الزبير قبل أذان العصر، سلم على والدته وإخوته، وعزاهم في وفاة والده، ثم توجه لمقبرة الحسن البصري مع بعض أقربائه، الذين يعرفون مكان قبر والده، وقف عند القبر، فصلى صلاة الغائب على والده، ثم دعا له بالرحمة والمغفرة ..

لحظتها تذكر كيف هم حملوا جسد والده على النعش الخشبي، وساروا به مرفوعًا على الأكتاف، يطوفون فيه الشوارع في طريقهم للمقبرة، يتناوبون على حملها من قريب ومن بعيد، ومن صديق ومن حبيب، كل منهم يُحدث الآخر بعجل يلًّا بسرعة، مرددون بين أنفسهم .. من إكرام الميت تعجيل دفنه في قبره.

سأل نفسه لماذا يذهب الناس لزيارة القبور في المقابر، والترحم على قاطنيها، وبينهم من الأحياء هم أموات يعيشون داخل غرف، هم أحق بمثل هذه الدعوة من الرحمة والشفقة منهم.

***

الخاتمة

لقد تم بعون الله الانتهاء من النصف الأول من الرواية، أما نصفها الآخر فلدى المتلقي؛ لأن النص لا تكتمل رؤيته إلّا بقراءة الوجه الآخر، الذي يُمثل الجانب النقدي، فالنقد جزء من النص، مهما كان حجم ثقله وقساوة رأيه.

تمت بتاريخ 2008/5/5

المؤلف

الفهرس

لم أضع فهرسًا؛ خوفًا من قتل أحداث الرواية.

المؤلف

***